مقالات فى النقد القصصى والمسرحى

د. إبراهيم عوض

مكتبة الشيخ أحمد
١٤٤٧هـ - ٢٠٢٥م

مع قصة "على حافة الأرض"

لمصطفى الخطيب

قبل أن أبدأ فى كتابة ما عندى عن إبداع الصديق المهندس مصطفى الخطيب أستسمحه فى كتابة كلمة على الماشى عما أومن به تجاه عنوان الأعمال القصصية، إذ أرى كثيرا من المنتمين صدقا أو كذبا إلى النقد الأدبى هذه الأيام يقفون أول ما يقفون إزاء العنوان متنطعين متساخفين زاعمين أن العنوان إحدى العلامات التى تميز العمل الحامل له ، فهو يدل عند النظر إليه على ما يتضمنه العمل الذى عُنْوِنَ به. وأقولها قولا قاطعا لا جمجمة فيه ولا تردد إن هذا خطأ ودعوى بغير برهان. فأنا، قبل أن أقرأ هذا العمل الذى بين يدىَّ الآن، لم أفهم ماذا يقصد الصديق بهذا العنوان، بل لقد قرأت العمل ثم نسيت العلاقة التى تربط بينه وبين عنوانه. ولست بهذا أرمى إلى انتقاده، إذ رأيى أن عناوين الأعمال القصصية لا يمكن الربط بينها وبين تلك الأعمال إلا بعد الانتهاء من قراءتها. ثم إن القارئ ربما عجز بعد ذلك عن التوصل إلى ذلك الرابط بعد القراءة أو ربما وجده غير مقنع لأن الكاتب لم يوفق إلى اختيار اسم مرتبط بمضمون قصته.

وأزيد القارئ من الشعر بيتا فأقول له إننا الآن أمام مجموعة قصصية، فلنفترض أن عنوان القصة القصيرة الذى أطلق على المجموعة كلها يدل من أول نظرة على ما تتضمنه تلك القصة، فهل من المستطاع التوصل إلى ما تتضمنه المجموعة كلها من هذا العنوان الذى يخص قصة واحدة منها ليس إلا؟

وهذا إن كان من الممكن معرفة مضمون القصة التى خُلِــعَ عنوانُها على الكتاب كله من مجرد رؤية عنوانها قبل قراءتها. فما بالنا ونحن نعرف أننا لا نقدر على معرفة ذلك المضمون بل لا نقدر على مجرد تخمينه؟ وكما أننا، لدن معرفتنا باسم الشخص الذى لم نكن نعرفه قبلا، لا يمكننا معرفة شخصيته من مجرد سماع اسمه فكذلك لا نقدر على معرفة مضمون أى قصة أو رواية لمجرد قراءة عنوانها. ذلك أن الاسم يطلق على صاحبه فور ولادته أو عقب ذلك بقليل، بل ربما اختير له الاسم وهو ما زال جنينا فى بطن أمه قبل أن يكون له وجود فضلا عن أن تكون له شخصية. وهذا إن كانت هناك شخصية ثابتة للإنسان طوال الحياة.

إن عنوان القصة التى نحن بصدد تناولها هنا هو، كما قلنا، "على حافة الأرض"، فمن يا ترى يمكنه، متى ما رأى العنوان ولم يسبق له أن اتصل بالكاتب وفهم منه ماذا يعنى ذلك العنوان، أن يعرف صلته بالقصة؟ بل هل للأرض حافة أصلا؟ هناك من القدماء، كما جاء فى مقدمة "معجم البلدان" لياقوت الحموى عن هيئة كوكبنا لديهم، من كان يظن "أنها مبسوطة التسطيح فى أربع جهات: فى المشرق والمغرب والجنوب والشمال، ومنهم من زعم أنها كهيئة التّرس، ومنهم من زعم أنها كهيئة المائدة، ومنهم من زعم أنها كهيئة الطبل..."، ومن القدماء أيضا من نسب للرسول عليه السلام حديثا باطلا غبيًّا كمُلَفِّقِه، ونَصُّه: "والَّذِى نفْسِى بيدِهِ لوْ دَلَّيتُمْ أحدَكُمْ بحبْلٍ إلى الأرضِ السابعةِ لَقَدِمَ على ربِّهِ عز وجل"، وهو ما يعنى أن للأرض حافة، ومن ثم يمكن، اتكاء على تلك المقولات القديمة، أن يقال: "على حافة الأرض". لكن صاحب

المجموعة لا يعد الأرض مسطحة، فهو مهندس متنور يعرف أن الأرض كروية أو ذات شكل قريب من هذا وأنه ليس لها حواف على الإطلاق يجلس عليها الشخص ويدلِّى رجليه كأنه جالس على مسطبة أو أريكة مثلا، وليس عقله كعقل واحد مثلى حين كان يتصور فى طفولته الأولى الأرض التصورات المضحكة. وحتى لو أخذنا "حافة الأرض" على سبيل المجاز، وقلنا إن من المحتمل أن يكون المؤلف قد استعملها وفى ذهنه خريطة الأرض لا الأرض ذاتها، وبالتالى فإن المقصود هو آخر نقطة فى الشرق الأقصى، أو أخر نقطة فى سواحل أمريكا الغربية مثلا لما أصبنا المراد لأن الصديق الكريم لا يقصد شيئا من هذا أبدا، إذ القصة لا علاقة لها بشرق أو غرب ولا بنهاية آسيا من جهة اليابان أو أمريكا من ناحية أخرى، بل المقصود أن راوى القصة كان يعتقد وهو صغير أن الأرض تنتهى بعد المطار، وأن من ينزل من الطائرة إنما جاء من السماء! أى أن المطار يمثل حافة الأرض. وهذا معنى لا يمكن أن يخطر على بالنا نحن القراء. وقد رجعت الآن إلى القصة المسماة بهذا العنوان لأستعيد سبب إطلاق هذا العنوان عليها.

إن الاسم هو علامة من علامات كثيرة تميز الشخص عن سواه. وكم من شخص يحمل اسم "علىّ" وهو منحطٌّ ليس فيه من العلوّ والرفعة شىء، أو اسم "حامد" وهو دائم السخط على أحواله لا يحمد الله أبدا، أو "شريف" وهو وضيع، أو "سيد" وهو عبد خاضع، أو "عبد" وهو سيد عظيم، أو اسم "عزيزة" وليس فى شخصيتها أية عزة، أو "اعتماد" ولا أحد يعتمد عليها فى شىء، أو نبيلة وهى دنيئة فارغة من كل نبل... إلخ. على أننى، قبل مغادرة هذه النقطة،

أود ألا يفهم أحد أنه لا وشيجة تصل بين القصة وعنوانها البتة، بل كل ما أزعمه هو أننا لا نستطيع ذلك قبل قراءتها، بل قد نفشل فى ذلك حتى بعد تلك القراءة لأن كاتبها لم يحسن اختيار العنوان أو لعدم قدرتنا على استشفاف السبب لأمر أو لآخر.

وهكذا فرغنا من عتبة العنوان واكتشفنا معا أن ما يقال عن ذلك الموضوع لا قيمة له بل هو افتراء أدبى ونقدى من ناس لا يحققون ما يقولونه ولا يمحصونه أو يدققون بنظرهم وعقلهم فيه. وننتقل الآن إلى واحدة أخرى مما يدعوه الفارغون بـ"عتبات النص"، تلك العتبات التى يحسبونها على نص المبدع ويدخلونها فى تقييمهم (أو تقويمهم) له، أقصد تلك الكلمة التى وضعها المؤلف بعد ذلك فى صفحة على حدة، وهى "لا شىء عادىّ فى هذه الحياة ..."، وكذلك الاقتباس التالى:

"أصغ!
لم يأخذ إنسانٌ متاعه معه
ولم يعد إنسانٌ ثانيةً ممن رحلوا إلى هناك"
(من أنشودة فرعونية كُتِبَتْ على جدار مقبرة ٢١٠٠ ق.م".

وهو، رغم روعته، لا علاقة له بالنص من قريب أو بعيد، وإن كان يوحى برهافة مشاعر المؤلف وما يشغل ذهنه من أمور الحياة العجيبة التى كنا نود لو كانت على نحو آخر غير الذى نراه وجربناه واكتوينا بناره. وما دام الأمر هكذا فلا يصح حسبانه جزءا من النصوص القصصية التى يشتمل عليها

الكتاب، وكل ما يمكن أن نقوله عنه هو ما قلته أنا قبل قليل حين استشففت منه ما استشففت من إيماءته إلى نفسية المهندس الخطيب، ولا شيء آخر.

وكثيرا ما قرأتُ مثل تلك المقتبسات أو التعقيبات فى بداية الإبداعات الأدبية، وكثيرا ما أُخِذْتُ بروعتها، ثم لما قرأت العمل الأدبى ذاته أصبت بخيبة أمل، وعرفت أن المؤلف قد أراد عبثا أن يرفع خسيسة عمله باقتباس من هذا المؤلف المشهور أو ذاك، وكثيرا أيضا ما خلت الأعمال الأدبية من مثل تلك الممهدات الاقتباسية، وكانت أعمالا بديعة... إلخ، إذ كل تلك الاقتباسات والتعقيبات هى شيء منفصل عن العمل الأدبى.

ومما يسمونه: "عتبات النص" أيضا المقدمة الجميلة التى كتبها للمجموعة الصديق أ. نشأت المصرى وأثنى فيها على المؤلف ثناء جما مستطابا وأشاد بطريقته فى اختيار موضوعاته غير الاعتيادية وفى القص وتصوير الشخصيات وقبول العمل لأكثر من تفسير، وتنبأ للمبدع بأنه سوف يتبوأ مكانة عالية فى مضمار الكتابة القصصية. وأنا مع كاتب المقدمة إلى حد بعيد، فقد قرأت قصص المجموعة وداخلنى كثير مما داخل الصديقَ صاحبَ الكلمة المذكورة تجاه القصصِ ومبدعِ القصص، وكنت أشعر بشيء كثير من الشجن المتسم بالعذوبة، فقد كان المهندس الخطيب يختار موضوعات إنسانية ويعالجها بأسلوب حساس متناولا لها من زوايا غريبة بعض الشيء.

وعند قراءتك لقصص المجموعة سوف تشعر أنت أيضا بهذا أيها القارئ الكريم. إن مصطفى الخطيب لا يكتب أدبا مما كان اليساريون يحبون أن يكتبوه ويسمونه بـ"الأدب الملتزم"، كما لا يكتب شيئا يتعلق بالدين تعلقا مباشرا

ولا يكتب أدبا كفاحيا ضد الاستعمار وأعوانه والرجعية ومؤامراتها الحقيقية أو المدَّعاة ولا عن السجون ولا عن موضوعات الشارع اليومية ولا عن علاقات الجيران ولا عن متاعب الفقراء ومعاناتهم فى سبيل الحصول على اللقمة ولا عن الفساد الإدارى ولا عن الرشاوى والوساطات ولا على انحطاط التعليم ولا عن فساد الذوق الاجتماعى... إلخ، بل يختار موضوعاته وشخوص قصصه من ناحية الوجود الإنسانى العام. وهى موضوعات تخلو من العنف والصراع الأرضى والتصرفات الحادة والكلام الصاخب، لكنها بما فيها من رقة وعذوبة وشجن وأسى وصوت خافت فى كل الأحوال تجذبك إليها وتثير لديك الشجن العذب والأسى الرقيق نفسيهما. ولسوف أوضح هذا حين أدخل فى نقد القصة القصيرة التى اجتبيتُها من المجموعة الموجودة فى أيدينا.

ولكن هناك نقطتين أحب أن أتوقف قليلا بإزائهما تبيينا لسخفٍ آخَرَ مما يتشادق به أصحاب العتبات غير المقدسة أولئك الذين لا يجدون شيئا يشغلهم فيشغلون أنفسهم ويريدون أن يشغلونا معهم بالتفاهات الكاذبة. ذلك أنهم يُدْخِلون العتبات فى تقويمهم (أو تقييمهم) للعمل القصصى (أو الشعرى أو المسرحى...) الذى يتناولونه بالنقد. وهذا "سخفٌ ساخفٌ" كما يحب طه حسين أن يصوغ عبارته أحيانا، فالمقدمة التى يكتبها غير المؤلف لا يصح أن تحسب للمؤلف أو عليه، إذ ليست هذه المقدمة جزءا من عمله بل من عمل قلم آخر. وكثيرا ما تحاول المقدمة أن ترفع من شأن العمل ومبدعه فى الوقت الذى يكون فيه العمل المبدَع رديئا، والعكس بالعكس، وقد تكون المقدمة صادقة، ويكون ما فيها انعكاسا حقيقيا لنظرة كاتبها إلى العمل الذى ينقده. وفى كل

الأحوال لا ينبغى أبدا أن ندخلها فى اعتبارنا ونحن ننقد أى إبداع قصصى. ولكن من ناحية أخرى نستطيع بكل جدارة أن نجعل المقدمة فى حد ذاتها موضوعا لنقدنا وتقويمنا ونعطيها درجة خاصة بها ونبدى رأينا فيها سلبا أو إيجابا حسبما نرى. وحتى لو كان كاتب مقدمة العمل القصصى هو كاتب ذلك العمل ذاته فلا مناص، إن أردنا أن نكون منصفين عاقلين، أن نحاسبه فنيا على العمل نفسه وحسب دون أن نربطه بنص المقدمة بوصفه جزءا منه يرفع منه فى تقديرنا أو يحطه. فذلك شىء، وهذا شىء آخر مختلف. العمل القصصى كيان مستقل عن المقدمة حتى لو كانت المقدمة تساعدنا على فهم العمل.

والآن إلى بعض ما تتسم به المجموعة القصصية التى أبدعها قلم المهندس مصطفى الخطيب. وأول كل شىء هو اللغة. وقد لاحظت أن فى أسلوب المهندس الخطيب سلاسة وإحكاما وحساسية. وهذا، حسب فهمى، راجع إلى موهبة فطرية نماها لديه قراءته لكبار الكتاب المصريين. لكن، ويا لها من "لكن"، لكن للأسف نجد أن النحو والصرف عنده يحتاجان إلى ضبط بل إلى "ضبط وإحضار" كما تقول لغة الشرطة والنيابة. وقد أخبرنى، وأنا أبدى له فى بعض حواراتنا هذه الملحوظة، أنه قد عهد بالمجموعة إلى بعض المدققين اللغويين رغم ذلك.

بل هو نفسه قد ذكر هذا فى صفحة الشكر حين أثنى على جهود من قام بتقويم الاعوجاج النحوى الذى كان واضحا فى الكتاب مع ذلك, فقلت له ما معناه أن المدقق اللغوى قد يكون أحيانا محتاجا إلى من يدقق له لغته هو أيضا، إذ إن حالة التعليم هذه الايام لا تسر ولا تبهج بتاتا. ونَحُثُّ للمؤلف أن يتقن

قواعد اللغة بنفسه من خلال العكوف على أى كتاب بسيط فى النحو كـ"النحو الواضح" للمرحومَيْن على الجارم ومصطفى أمين. وأنا زعيمٌ بأنه متى ما عكف على هذا الكتاب، وهو مجرد مثال، عكوفا صادقا بنِيّة معرفة قواعد العربية وقرأ تلك القواعد فيه مرتين مثلا مع التركيز سوف يكتب دون أخطاء تذكر. وهذا أفضل من إعطاء العمل لمن يصححه لغويا، وبخاصة فى حالة المهندس الخطيب وأمثاله ممن يملكون حساسية التعبير وسلاسة الأسلوب. وليس ثم داع لأن نقول إن الحلو لا يكتمل أبدا إذا ما عمل المهندس الخطيب باقتراحى السهل اليسير.

إن أسلوب المؤلف يشبه شخصا يرتدى ملابس غالية متناسقة الألوان تدل على مقدرة مالية وذوق سليم، لكن مَكْوَى القميص قد نال منه تغضن هنا أو اتساخ هناك، وخرج طرف منه من السروال من أمام، وتحتاج السترة إلى إمرار الفرشاة عليها لتخليصها مما علق بهما من الغبار، فضلا عن أنه خرج من البيت دون تمشيط شعره جراء العجلة. أشياء يمكن تداركها بأضأل الجهود والتكاليف، لكن صاحب الملابس الغالية المتناسقة الألوان لم يُولِها اهتمامه، ولو فعل لازداد تألقا وأناقة.

وشىء آخر، وهو أنه يكتب حوار شخصياته فى بعض قصصه بالعامية، وعاميته تخلو من أى شىء منفر، بيد أنى كنت أود لو اصطنع الفصحى فى جميع حواراته القصصية حتى يكون كل شىء متسقا مع الموضوعات الإنسانية الراقية التى يطرقها فى قصصه. إنه لا يتكلم عن نزاع حول الميراث مثلا ولا الفقر المدقع والحقد الطبقى الذى كان يبدئ فيه الشيوعيون ويعيدون ولا

يقرب المشاهد الجنسية لا الفجّ منها ولا غير الفجّ ولا يخطر على باله الشذوذ الذى يُغَثِّى النفوس الكريمة على عكس كثير من الكتّاب والكاتبات الحاليين الذين يحرصون على "تزيين" قصصهم ورواياتهم بالممارسات الجنسية الشاذة بما فى ذلك معاشرة الحيوانات: الأليف منها كالحمار والكلب وغير الأليف كالقرد مثلا.

لقد اكتشفت، مع الانصدام البشع، ما كتبته بعض الكاتبات العربيات المنتسبات إلى الإسلام عما يفعلنه مع الرجال والنساء والحيوان زنا وسحاقا وسفادا على الترتيب غير مورّيات ولو بنقاب شفاف لا يحجب شيئا لا فى الوصف ولا فى الألفاظ غير مستحييات عن ذكر أعضائهن الأمامية والخلفية وما يقع بينهن وبين الطرف الثانى من كلام وأفعال. موضوعات مصطفى الخطيب، كما طالعتها فى هذه المجموعة، موضوعات إنسانية رهيفة رقيقة أسيانة تخلو من عنف المشاعر والألفاظ الغليظة أو العارية، ويتناغم معها جدا أن يكتب حوار قصصها كلها بالفصحى.

صحيح أن هناك من يقول، تسويغا للجوء إلى العامية فى الحوارات القصصية، إن الناس فى الواقع لا تتحدث الفصحى بل العامية، فالقصاص حين يكتب حوارات أعماله بالعامية إنما ينقل الواقع ويُشْعِر القراء بأن ما يقوله حقيقى. لكن فات هؤلاء أن العبرة ليست بنقل الواقع بعُجَرِه وبُجَرِه، أو كما نقول فى كلامنا اليومى: "بِعَبَلِه"، بل بالإيهام بأنك تنقل الواقع، وإلا فهل الناس فى الواقع تحكى قصصها بالفصحى؟ طبعا لا بل بالعامية. فهل نقلب سرد القصص وما فيها من أوصاف ورسْم شخصيات وخواطر داخلية ونُسْكِنه

العاميةَ بناء على هذا؟ بل هل يتناول الناس الحديث فى أمور الدين والسياسة والاقتصاد وما إليها فى الواقع بالفصحى؟ طبعا لا. فهل نقلب نشرات الأخبار وخطب الجمعة ومقالات الصحف وأخبارها من أجل ذلك من الفصحى إلى العامية؟ معنى ذلك أننا سوف ننبذ الفصحى من حياتنا وثقافتنا وكلامنا وتفكيرنا وكتاباتنا تماما ونفقد بالتالى عاملا شديد الأهمية فى الوحدة العربية، وسوف تهبط كتاباتنا درجة بل درجات، ولن نستطيع فهم النص القرآنى الذى شرفنا الله به نحن العرب ولا تراثنا العلمى والأدبى. فهل يصح أن يتخلى شعب من الشعوب أو أمة من الأمم عن أحد عناوين شرفها ونبلها وعزها ومجدها والعامل الأهم فى وحدتها والتفاهم بين شعوبها؟

ولقد كتب كبار المؤلفين العرب فى العصر الحديث، كعائشة التيمورية وعلى الجارم وإبراهيم رمزى ويعقوب صروف وجرجى زيدان والعقاد وطه حسين والزيات والمازنى ومحمد فريد أبو حديد ومحمود تيمور ومحمد سعيد العريان ومحمد كامل حسين ومحمد فريد أبو حديد ومحمد فريد الشوباشى وعلى أحمد باكثير وسيد قطب ونجيب محفوظ وعبد الحميد جودة السحار وبنت الشاطئ وسهير القلماوى وأمين يوسف غراب وثروت أباظة ونجيب الكيلانى وحلمى القاعود، حوار أبطال قصصهم ورواياتهم بالفصحى، ونحن حين نقرؤها نحس بروعة الفن وسموق الأسلوب وقدرته الفذة على التعبير عن أفكار أبطالهم وخواطرهم ومشاعرهم. ولم نسمع أحدا منهم يشكو أية صعوبة فى إنطاق شخوصهم بلغة القرآن المجيد على الإطلاق أو يتحدث عن إحساسه بالتنافر بين اللغة الفصحى ومتحدثيها فى أعمالهم. من هنا أحب أن يراجع م. مصطفى

الخطيب نفسه ويطّرح العامية تماما ويلتصق بالفصحى التصاقا لا انفصام له أبدا حتى يُكْتَب لأدبه الدوام ويظل مصدر إلهام لقرائه على مدى الأيام.

والآن حان وقت الانتقال إلى القصة التى اخترتها، وهى أولى قصص المجموعة. وستكون نقطة البدء هى التوقف إزاء عنوانها: "برج الحمام"، وأريد أن أسأل القراء الذين ليس لديهم علم بهذا العمل: ماذا يفهمون من ذلك العنوان ودلالته على مضمون القصة وصلته بها؟ ولسوف أجيب نيابة عنهم وأقول: لا أحد يعلم شيئا عن تلك الدلالة وهذه الصلة. وهذا حق، فليس فى العنوان أكثر من أن الكلمة معناها ذلك البناء المخروطى المقام على سطح المنزل وفيه فتحات كثيرة يدخل منها الحمام ويخرج طول النهار ويبيت داخله خلال الليل. لكن بعد قراءتك للقصة ستعرف أن المقصود هو برج الحمام الذى كان الطفل فيها يرى عمه وهو يفتحه ويغلقه ويشرف على سكانه اللطاف، فيتمنى لو حصل على هذا المفتاح ليقترب من ذلك الطير ويَطَّلِـع على عالمه من قريب حتى لو كان السبيل إلى ذلك هو أن يموت عمه. والآن بالله عليكم هل كان هذا يخطر على بال أى منكم؟

وهنا أضع بين أيديكم السطور الأولى من القصة: "كنتُ قد فارقتُ الحُلْم لِتَوِّى، لم أفلت من قبضته بعد، مازالت بقاياه تعبث بمُخَيِّلَتِى، وتراود روحى المنهكة، أحاول أن أتذكر، بعض التفاصيل مفقودة، وكذلك البداية، لكن النهاية أتذكرها جيدا.

...

فى طريقه إلى الحَمَّام سمع صوتا وحركة فى المطبخ فتوجه إليه، فإذا هى جالسة إلى طاولة المطبخ تُحَضِّر طعاما للقطط، تَطَلَّعَ إليها وتَفَحَّصَهَا، ثم قال مستغربا ومستنكرا:

- إنتى مين؟! إيه اللى جابك هنا؟

فى أول الأمر اعتقدتْ أنه يداعبها كعادته، ظهرت ابتسامة خفيفة على وجهها الجميل الشَّاحب بعض الشىء، ودون أن تنظر إليه قالت مداعبة هى الأخرى، ودون أن تنظر إليه قالت:

- خدامتك آمنة.

- آمنة مين!

هَالَهَا الجدية البادية على وجهه، إلا أنها اعتبرتها حبكةً وإمعانًا فى المداعبة، تجاهلت الأمر، قالت:

- عَبَالْ ماتخلَّص الحَمَّام وتصلّى هاكون حضرت لك الفطار...

فى تلك اللحظة اجتاحها سيلُ الذكريات...

بين الحدائق وعلى الممر المُكَلَّل بالزهور كان عليهما فى نهاية الحفل أن يمضيا بصحبة القليل من الأهل والأصدقاء حوالى مئتى متر سيرا على الأقدام ليصلا إلى العربة التى ستُقِلّهما إلى عش الزوجية، بعد عدة أمتار قطعوها كأن فخّ نُصِب لهما، فتحت السماء أبوابها فجأة عليهم بماء منهمر، حولت الممر والحدائق المحيطة حولهما فى ثوانى إلى برك ماء وطين، لاذ الجميع بالفرار، يبحثون عن ملجأ أو مظلات يحتمون فيها، لم يبق معهما إلا بنتين صغيرتين كانتا ترفعان ذيل ثوب عرسها عن الأرض وتبكيان، صرخت فيه ماذا تفعل وقد ابْتَلَّ

ثوبها عن آخره، سال ماء المطر على وجهها نخلط ألوان "الميك اب" فبدا وجهها كوجه بلياتشو حزين بائس، كانت ستبدو على وجهه ابتسامة خفيفة، تراجع عنها فورا عندما رأى على وجه البلياتشو مظاهر الحنق والغضب، ولتكتمل المأساة انحشر كعب حذائها العالى بين قطعتين من بلاط الممر، حاولتْ نزعه بقوة وعصبية فترنحتْ ومالت بشدة، حاول هو أن يمنعها من السقوط، فسقطا في بركة من الماء العكر، صرخت صرخة تَرَدَّد صداها فى أرجاء المكان تبعتْها بنحيبٍ قاس، بينما ظل صامتا لبرهه لا يدرى ما الذى يحدث، ثم انفجر فى ضحك صاخب، نظرتْ إليه على أنه فقد عقله، حاولت النهوض، فأمسك يدها ومنعها وهو يقول:

- بالعكس يا بنتى دى لحظة تاريخية ماتتعوَّضش، فين المصوّر، صَوّر يا بنى صَوّر ...".

وفى هذا الاقتباس نجد الجمل تنساب انسيابا، فلا ركاكة ولا خلخلة، إذ كل كلمة فى مكانها لا تتقدم ولا تتأخر، وليس هناك حذفٌ فى موضع ذِكْر ولا ذكر فى موضع حذف، والكلمات مَقِيسَةٌ على المعانى المطلوب التعبير عنها، وليس ثم إطناب فى محل إيجاز ولا العكس... وهذا ما قصدتُه حين أثنيت على أسلوب الكاتب. كذلك نلاحظ أن ثم جملا كثيرة قصيرة، وبوجه عام يخلو الأسلوب من الجمل الاعتراضية. كما أن كثيرا من الجمل تبدأ دون واو الاستئناف، وهذا ظاهر فى أساليب العقود الأخيرة، وهو أحد مظاهر التأثر بالأساليب الغربية. ومع هذا لم أشعر هنا بالاستغراب كما كنت أحسه فى سبعينات القرن الماضى لدن قراءة الشبان اليساريين ومَنْ لَفَّ لِفَّهم. وربما

كان استخدامُ المؤلفِ الفاصلةَ فى موضع النقطة مثلا هو السبب فى هذا، إذ توحى الفاصلة باتصال الجمل بعضها ببعض لا باستقلال كل منها بنفسها.

لكن لا مناص من الإشارة إلى بعض الملاحظات النحوية والصرفية دليلا على صدق ما قلتُه حين ذكرتُ أنه لو راجع المهندس مصطفى الخطيب قواعد العربية، وهو على ذلك قادر، لكان له شأن آخر. وهذه أمثلة سريعة من القصة التى نتناولها على تلك الملاحظات اللغوية: "كأن فخٌّ نُصِبَ لهما" (وصوابه "كأن فَخًّا نصب لهما"). "فى ثوانى" (فى ثوانٍ). "لم يبق معهما إلا بنتين صغيرتين" (إلا بنتان صغيرتان). "لبرهه" (لبُرْهَة). "لا تنظر ورائك" (وراءك). "يأمرنى الصوت: أركب" (اِرْكَبْ). وطبعا قد لاحظنا فى النص السابق كيف يدير قصاصنا الحوار بين أبطاله بالعامية كما وضحنا قبلا.

والقصة تصور العلاقة العاطفية الرقيقة بين زوجين كبيرين بينهما حب قوى هادئ وراسخ. وتبتدئ الحكاية بالزوج وقد استيقظ لتوه من النوم محاولا بصعوبة أن يتذكر حلما رآه فى المنام. ولدن عودته من الحمام حيث توضأ لصلاة الصبح تلاحظ الزوجة أن نطقه للكلام قد اعتراه ثقل وأنه لا يستطيع التعرف إلى أنها زوجته بل يظنها امرأة غريبة لا يدرى ما الذى أتى بها إلى هناك. ثم تتصل الزوجة بابن أخيه ليحضر عربة إسعاف لنقله إلى المستشفى لتدارك حالته. وهناك يدخل غرفة العمليات بينما تجلس زوجته المحبة إلى جواره ممسكة بيده وتفركها له بلطف وحب أثناء تخديره.

ثم ينتقل بنا المؤلف مع الزوج فى رحلة يُلْفِى فيها نفسه فوق ظهر نسر كبير ذى جناحين هائلين يطير به فى الفضاء بعد أن كان قبل قليل ينظر يمينا

وشمالا بناء على صوت آمر لا ندرى صوت من هو، فيرى مناظر جميلة وخيرات كثيرة متنوعة: "فى سيارة الإسعاف، بينما كان مستلقيا على ظهره، مسكت يده بين راحتيها وضغطت عليها برفق، كان قد بدأ فى الذهاب لنوم عميق.

...

ثمة صوت يهمس فى أذنى:

- لا تنظر ورائك ...

ثمة شخص يقف بجوارى ولا أراه، يقول:

- انظر إلى يمينك، هناك ...

فتظهر أشجار كبيرة لها فروع ملتويه، وأوراق لها تبدو كآذان الفِيلَة، تنتهى بثمار ذهبية وفضية، تبدو الأشجار بعيدة وغريبة، وسط حقول من أزهار وزنابق وأعشاب برية على مد البصر.

...

أشعر براحة يدها طرية ناعمة حنونة، تفرك كفى.

همس الصوت من جديد:

- انظر إلى شمالك

فتكون طيور جميلة ملونة تسبح فى الفضاء، يدنو طائر كبير ويخشع أمامى، يأمرنى الصوت:

- اركب ...

أشبه بنسر عظيم، يطير بى فوق جبال وأنهار وسهول، فيما يشبه الأرض من جديد.

...

أشعر بأصابعها النحيلة تتخلل أصابعى، تتشابك معها وتتداخل، أسمع همسها فى أذنى يلهث بالتسبيح والتكبير، أحاول أن أردد وراءها، أفتح عينى لبرهه لأراها، فأنا أعى أنى أغادر الآن، قناع الأوكسجين يحجب عنى وجهها، أراها تنظر إلى أول حفيد لنا فى صندوق الحضَّانة الزجاجى، أنظر من الجهة المقابلة، تلتقى عينانا كما التقت أول مرة رأيتها فى الجامعة، وكما أريد أن أراها الآن لولا قناع الأوكسجين، لا أقوى على نطق، ارفعوا القناع ...

يطير بى النسر فوق بحار عظيمة لا أول لها ولا آخر، يعلوها بخار كثيف، يزيد النسر من سرعته ليجتاز تلك البحار التى يبدو أنها تغلى، أشعر برذاذ ملتهب يلسع أطراف قدمى، فأحثه أكثر على المسير، فيخفق بجناحيه العظيمين بقوة، يحدث موجات هوائية هائلة ويصيح فيتردد صوته بين الجبال، يظل هكذا أحقابا عديدة، لا يصل ولا يسقط بى...!". وتنتقل القصة بغتة إلى ما يفهم منه أن الزوجة كانت قد انتقلت إلى جوار ربها وتركت زوجها وحده يفتقر إلى حنانها الجميل العميق وتنتاشه الذكريات، وإن لم يحدد المؤلف متى كان ذلك بل تركها مفتوحة.

وركوب النسر هنا يذكرنا بما ورد فى "ألف ليلة وليلة" من ركوب البشر للنسر والرخّ. بل هناك من ركب إنسانا مثله من البشر كما هو الحال حين امتطى جانشاه ظهر السيدة شمسة وأمسك بريشها بناء على طلبها وطارت به إلى

بلده كى يتزوجا ويقيما هناك. وسارت، كما تقول الحكاية، فى الجو مثل هبوب الريح والبرق اللامع، ولم تزل طائرة من وقت الضحى إلى وقت العصر، وجانشاه راكب على ظهرها. وفى وقت العصر لاح لهما على بعدٍ وادٍ ذو أشجار وأنهار، فقالت لجانشاه: قصدى أن ننزل فى هذا الوادى لنتفرج على ما فيه من الأشجار والنبات هذه الليلة. فقال لها جانشاه: افعلى ما تريدين. فنزلت من الجو وحطت فى ذلك الوادى، ونزل جانشاه من فوق ظهرها وقبلها بين عينيها، ثم جلسا بجانب نهر ساعة من الزمان.

وبعد ذلك قاما على قدميهما وصارا دائرين فى الوادى يتفرجان على ما فيه ويأكلان من تلك الأثمار ولم يزالا يتفرجان فى الوادى إلى وقت المساء ثم أتيا إلى شجرة وناما عندها إلى الصباح، ثم قامت السيدة شمسة وأمرت جانشاه أن يركب على ظهرها، فقال جانشاه: سمعًا وطاعة. ثم ركب جانشاه على ظهرها، وطارت به من وقتها وساعتها، ولم تزل طائرة من الصبح إلى وقت الظهر، ثم نزلت من أعلى الجو إلى مرج فسيح ذى زرع مليح، فيه غزلان رائعة وعيون نابعة وأثمار يانعة وأنهار واسعة. وكانا قد قطعا حتى ذلك الوقت مسافة ثلاثين شهراً...

وهناك كذلك حكاية الرجل الذى امتطى ظهر الرخ وطار به فى الأعالى. ولما حط الرخ على الأرض نزل صاحبنا وترك الطائر يذهب فى حال سبيله، وانصرف هو لِطِيَّته. وهناك أيضا السندباد البحرى، الذى ربط نفسه بذبيحة حملها النسر بمخالبه دون أن يتنبه إلى أن السندباد مربوط بها بعد أن جمع كثيرا من قطع الألماس قبل التصاقه بالذبيحة وعبأها فى ثيابه. ولم يزل النسر طائرًا

بالذبيحة وبالسندباد إلى أن صعد بها إلى أعلى الجبل وحطها وأراد أن ينهش منها، وإذا بصيحة عظيمة عالية من خلف ذلك النسر، وشىء يخبط بالخشب على ذلك الجبل، فجفل النسر وطار إلى الجو، فخلَّص السندباد نفسه من الذبيحة ونجا من خطر محدق... إلخ.

ولا بد أن يكون المؤلف قد قرأ "ألف ليلة وليلة" أو سمعها فى المذياع، أو تناهت إليه على نحو أو آخر تلك الحكايات. فهو مثقف ومبدع، ولا يعقل ألا يكون عارفا بهذا. وليس شرطا أن يكون قد كتب هذا عن وعى وقصد، فكثير مما يبدعه المبدعون يطفو من الذاكرة المظلمة فى أعماق أنفسهم وعقولهم دون أن يخططوا له تخطيطا. بل كثيرا ما يظن المبدعون أنهم أبناء بَجْدَتها، ثم يتنبهون فيما بعد إلى المنبع الذى مَتَحُوا منه فى غفلة عن الوعى.

ومن ناحية بناء القصة نجدها تبدأ بالسرد عن طريق ضمير المتكلم على لسان الزوج يصف ما شعر به حين استيقظ من النوم وبقايا حلم عالقة بذاكرته محاولا تذكر الباقى. ثم يتحول السرد بعد ذلك إلى ضمير الغائب يحكى بعض ذكريات الزوجة، ليعود كرة أخرى إلى ضمير المتكلم على لسان الزوج. وقد تمت هذه المراوحة بين تخصيص الزوج بالسرد بضمير المتكلم بينما يتحول السرد إلى الراوى الكُلِّىّ العِلْم عندما يأتى دور الكلام عن الزوجة، تمت هذا المراوحة بنعومة ومهارة لدرجة أنى لم أُعِرِ الأمر فى البداية انتباها مما يدل على براعة الكاتب فى هذه النقطة، وبخاصة إذا عرف القارئ أن العبد لله حساس تجاه التنقل بين زوايا السرد المختلفة لا يعجبنى كثير منها وأرى أنه مفتعل وغير

منطقى، أما هنا فلم ألحظ ذلك فى القراءة الأولى ولم أجد، بعد تنبهى إليه فيما بعد، ما يبعث على الاعتراض.

لكن هناك نقطة يلزم التأنى عندها قليلا، وهى أن السارد العليم قد أشار إلى الزوجة حين وقع نظر زوجها عليها فى المطبخ وهو فى طريقه إلى الحمّام عقب قيامه من رقاده فى مفتتح القصة بقوله: "فى طريقه إلى الحمام سمع صوتا وحركة فى المطبخ فتوجه إليه، فإذا هى جالسة هناك..."، ولم يكن قد سبق كلام عنها بأى حال كى نقول إن الضمير: "هى" يحيل عليها، ومن ثم لا بد أن يكون مستعمل هذا الضمير لصيقا بها على نحو شخصى حميم، وهو ما لا يصدق على الراوى الشامل العلم لأن الراوى الشامل العلم يقف على مسافة واحدة من الجميع ولا يقترب من أى شخص فى القصة على ذلك النحو. لقد كان يمكنه أن يقول مثلا: "فإذا زوجته/ فإذا امرأة جالسة هناك"، أما عبارة "فإذا هى جالسة هناك" فتوحى بأنه كان واعيا بأنها زوجته، بينما كلامه إليها عقب ذلك يدل على أنه لم يكن يعرف آنئذ أنها كذلك، إذ سألها من هى وماذا تفعل فى المطبخ ومن أتى بها إلى هناك. بل إنه حين قالت له إنها آمنة كان جوابه على الفور: آمنة مَنْ؟ ولم يشفع لها قولها إنها سوف تعد له الفَطُور الذى يحبه وسوف يكون الطعام جاهزا عند فراغه من صلاته. قد يقال إن هذه نقطة ضئيلة الشأن لا ينبغى أن ينشغل بها الناقد، لكنى أرى وجوب الاهتمام بمثل هذه الدقائق المتعلقة بزوايا السرد تجنبا لشعور القارئ (الحساس) بقلق البناء القصصى وعدم إحكامه.

وثم ملاحظة أخرى أخذتْ عينى وعقلى فى القصة، وهى قول ذلك السارد العليم إن الزوج حين قام من النوم كان يحاول أن يتذكر بعض التفاصيل فى حلمه الذى كان يحلم به قبيل الاستيقاظ، فسمع صوت القابلة وهى تقول: ولد، والله ولد. ويفهم من السياق أن الكلام عنه هو عندما وُلِد. فهل سمع هذا الكلامَ فى الحلم؟ إن كان فلا بأس، فما أكثر الأحلام العبثية غير المنطقية، إذ من غير المعقول أبدا أن يسمع الوليد صوت القابلة ويفهم كلامها عنه آنذاك فى الوقت الذى يستحيل فيه على طفل فى سنه ليس له من العمر غير دقيقة أو دقيقتين أن يسمع ويفهم ما يقال عنه أو عن أى شىء آخر، ومن ذلك ما أذكره من رؤيتى لنفسى ذات ليلة أيام الشباب فى المنام وأنا أَسِيرُ خلف نعشى وأبكى لموتى وكأنى أبكى على عزيز علىّ لا على نفسى. أما إن كان المقصود أنه تذكر ذلك عن نفسه فى الواقع الفعلى وأنه سمع وفهم ما قيل لدن ولادته فهو أمر غريب وعجيب بل مستحيل.

ويغلب على ظنى التفسير الأول رغم التباس الأمر هنا علينا نحن القراء، وعليه فلا ملامة على المؤلف، وإن كنت أستغرب إثارة نقطة كهذه ساعتذاك لا يمكن أن تكون قد وقعت بأى حال! لكنى أعود فأنتكس على رأسى وأقول إن السياق الذى يعقب العبارة المذكورة هو سياق تذكُّر وقائعَ حدثت على الأرض لا أضغاث أحلام رُؤِيَتْ فى المنام. وهذا عجيب وغريب بل مستحيل كما سبق القول.

وحبا للتعالم ولفْت انتباه القارئ إلى أننى أنا أيضا على شىء، وإن كان "ضئيلا بئيلا" كما كان يحب أن يقول طه حسين، من الوعى بما يسمى هذه

الأيام بـ"النقد الثقافى" حتى لا يتهمنا ببغاوات النقد بالجهل بالمناهج النقدية الحداثية رغم أن هذا اللون من النقد موجود فى نقدنا التراثى بسلاسة تامة وأريحية كاملة، وإن لم يكن نقادنا الماضون يستعملون رطانة النقاد الثقافيين ومصطلحاتهم ودعاواهم التى لا تنتهى بل يمارسون ذلك اللون بتلقائية كما يتنفسون، وهو ما أثبتُّه فى كتابى: "النقد الثقافى فى كتابات نقادنا القدماء"، أقول إنى، حبا فى ذلك التعالم، أجد لزاما علىَّ أن أتريث قليلا عند برج الحَمَام على سطح منزل أسرة الزوج حين كان طفلا، إذ كان البرج من سمات الوجاهة الاجتماعية والقدرة المالية والحرص على تربية الطيور فى المنزل من حمام فى الأبراج، ودجاج وبط وإوز وأرانب وديكة رومية فى الأقنان حتى يأكل أهل المنزل مطمئنين من الطيور التى يربونها على أيديهم ويكون اللحم جاهزا حين يريدون أن يَطْعَموا اللحم، وإن لم يأت ذكر لبقية تلك الطيور، فقد وقفت ذكريات الولد الصغير عند برج الحمام لما كان يمثله له من غموض وحرمان، إذ كان عمه يحتفظ بمفتاح قفله فى جيبه، وكان الطفل يتطلع إلى غفوة من العم بل حتى إلى موته كى يظفر بالمفتاح ويدخل البرج ويتمتع برؤية ما فيه على راحته. وكانت هذه الأبراج قائمة على سطوح كثير من المنازل، وعلى وجه الخصوص فى الريف. بل كانت الأغانى والمواويل تصور ذلك. ومشهورة تلك الأغنية التى تشدو بها كوكب الشرق لعبد الفتاح مصطفى بعنوان "طُوفْ وشُوفْ" وتقول فيها:

شُوفْ هنا جَنْب المصانعْ والمداخنْ والزحامْ
الغِطَان اللّى آخِرْها المَدْنَهْ وابْراج الحَمَام

وبالمناسبة فقد لاحظت وأنا فى بريطانيا فى مدينة هستنجز الساحلية فى الجنوب أن أصحاب البيوت يربون الدجاج فى الحديقة الخلفية للمنزل، وكنت أرى الديك يمشى متبخترا هناك كأنه ملكٌ عليه التاج. وكثيرا ما وقف الشعراء العرب القدماء كبشار بن بُرْد الأعمى مثلا وديك الجن، وهما من شعراء العهد العباسى، أمام ذلك المَلِك الواثق بنفسه المُدِلّ بوسامته وجماله وما لريشه وعُرْفه من سحر وبهاء وتفننوا فى وصفه وبلغوا فى ذلك مبلغا فنيا عظيما باهرا.

ومن مستلزمات النقد الثقافى فى قصتنا كذلك التقاط ما يتضمنه النص من حديث عن الأطعمة ورسوم تناولها. ومن ذلك أن المصريين بوجه عام يحبون أن يفطروا على الفول والفلافل والجبن والبيض، ويا حبذا لو كان بيضا بالبسطرمة والسمن، والخبز البلدى، وبخاصة لو كان ملدَّنا كما نقول. وكانت الزوجة بسبيلها إلى تجهيز هذا الفَطُور لرجلها لولا أنه كان فى حالة يرثى لها تستدعى نقله للمستشفى دون إبطاء.

ومن مستلزمات ذلك النقد أيضا الإشارة إلى ما يذكره مفتتَح القصة من أن الزوج كان يستعد لتأدية الصلاة. والمسلمون حتى الآن ما زالت الأغلبية منهم تصلى ولو الصبح فقط فى بداية يومهم سواء خرجواإلى العمل أو بَقُوا فى المنزل لم يخرجوا. وهذا ما تقوله القصة. ورغم هذا فقليل من القصاصين اليوم من يتطرق إلى تأدية أحد من أبطالهم الصلاة إما عن عدم اهتمام بالدين أو تصورا منهم أن التدين شىء رجعى لا يليق بالإنسان العصرى.

والشائع بيننا الآن أن الحياة فى مصر فى الأجيال السابقة كانت تغشاها السكينة المنزلية والعلاقات الجميلة بين الزوج والزوجة، وعلى نحو خاص حين يتقدمان فى السن ويكون أولادهما قد تزوجوا وبَنَوْا أسرا جديدة ولم يعد أحد معهما بالبيت، وكان كلاهما يغمر صاحبه بالحب والاهتمام والمودة والخوف عليه أن يتعرض لما يزعجه أيا كان. وهذا كله منعكس فى السطور الأولى من قصتنا الجميلة، وبعد ذلك حين يدخل الزوج المستشفى للعلاج من الجلطة، إذ نرى الزوجة تمسك بيده وتبثه من خلالها الحنان والمرحمة والاهتمام طوال الطريق فى عربة الإسعاف وفى غرفة العمليات الجراحية. كما نراه فى شعور الزوج بالوحشة والأسى فى مختتم القصة بعد رحيل زوجته.

كذلك كان المنزل الواحد يضم عدة أسر تنتمى إلى أب أو جد واحد. وقد أشار الزوج إلى هذا الوضع عَرَضًا حين تكلم عن عمه وقيامه على أمر برج الحمام فى منزل الأسرة الكبيرة والاحتفظ بمفتاحه معه لا يمكّن الأطفال الصغار منه حتى ليتمنى بطل القصة فى صباه لو تاحت له غفلة من عمه أو حتى مات كى يضع يده على المفتاح ويَقْدِر على دخول البرج ويطَّلع على عالم الحمام العجيب داخله. ومن هذا الوادى أيضا فرحة الأسرة بميلاد الولد: على الأقل فى أول إنجاب. وقد رأينا كيف أعلنت القابلة فى بهجة وحبور أن المولود ذكر. وقد كنت أحسب الغربيين جميعا لا يهتمون بهذا الأمر إلى أن أخبرتنا زوجة جارنا الأمريكى فى المسكن الجامعى بأكسفورد أن حماتها كانت سعيدة جدا حين أنجبت جيفرى، أى أتت لها بولد. فأبديت دهشتى وراجعتها

فى هذا الموضوع، فأكدت لى ما قالتْه. ولست أقصد أنهم جميعا يتخذون نفس الموقف. إنما هى حالة سجلتُها كما سمعتُها.

وأحسب أن فى هذا الكفاية لمن يريد من الببغاوات أن يعرف أننا، مثل الآخرين، على علم بالمناهج الحداثية الواردة إلينا من الغرب وبمدرسة فرانكفورت أو جماعة براج أو لا أدرى ماذا أيضا من المدن الأوربية حتى يتحقق الببغاوات المفتونين بالحداثة فى ميدان النقد الأدبى رغم أن بلادنا وشعوبنا لا لها فى الحداثة ولا فى الباذنجان، ويكفى تدليلا على ذلك أنه نادرا ما نجد فى أحياء مدننا بما فى ذلك أحياء الطبقات المتوسطة وأحيانا الطبقة التى تعلو تلك الطبقات شارعا مرصوفا رصفا يليق بالآدميين، ولا طوارا واحدا يتيما يصلح للمشى عليه ولو حتى للقطط والكلاب والمَعْز وبنات عِرْس الضالة، ولا داعى للحديث عن القرى والمناطق العشوائية فى مدننا، وناهيك بالزبالة والقذارة المنتشرة فى كل مكان وحرصنا على توسيخ شوارعنا وحوارينا ومبانى مؤسساتنا ومدارسنا وجامعاتنا حتى لقد ورد إلينا نحن أساتذة الجامعة منذ أسابيع منشور من المسؤولين بأن نتابع تنبيه الطلاب إلى وجوب الحرص على نظافة الكلية طرقات وقاعات ونوافذ حيث تجد الفضلات من كل لون وشكل كورق الكلينكس المستعمل وعلب المياه الغازية وأكواب الشاى والقهوة الورقية وبقايا الطعام حتى على البنشات داخل المحاضرة، ولم يبق إلا أن يكلفونا بمرافقة أبنائنا الطلاب إلى دورات المياه وشد يد المثعب وراءهم عند انتهائهم من قضاء حاجتهم ودعائنا لهم بـ"شُفِيتُم" ومسح أرضية دورة المياه وتجفيفها من الماء الذى يُزَرْوِطها فى كل وقت، وأنتظر على أحرَّ من الجمر أن تصرف

الجامعة لكل واحد من الأساتذة فوطة صفراء لمسح أسطح البنشات بعد إزالة ما عليها من فضلات وأوساخ.

ومع هذا تجد المتنطعين الهلاسين يمضغون مصطلحات الحداثة وما بعد الحداثة مع تخلف عقولهم وأفكارهم ومشاعرهم وعيشهم بتصرفاتهم ومواقفهم فيما قبل العصور المتحضرة من تاريخنا بل فيما قبل الجاهلية ذاتها كبقية الشعب، لكنهم لا يستحون ولا يخجلون بل لديهم مرض عضال اسمه التشادق بالحداثة وما بعد الحداثة وترديد مصطلحاتهما كالببغاوات والقرود، وكأن مجرد ترديد هذه المصطلحات سوف يجعلهم متحضرين حداثيين وما بعد حداثيين كالغربيين كتفا بكتف بينما الحقيقة هى أن اتخاذ هذه الوجهة يكفل لأصحابها الدعوة إلى حضور الندوات والمؤتمرات والحصول على الجوائز والمكافآت والمرتبات، وكثير منهم لا يقيم جملة واحدة ولا يعرف قواعد لغته، وإذا تحدث أو قرأ نصًّا فيا للفضيحة والعار والشنار!

ولمن يستغرب ما نقول فليقرأ كتاب "من يدفع أجر الزمار؟" والكتب التى تصدرها مؤسسة رانْد الأمريكية والتى ترجم العبد لله المسكين غير الحداثى. وأنا، حين أقرأ ما يكتبه نقادنا الحداثيون و"ما بعد الحداث"يون وأرى تنطعهم وحرصهم على أن يعرف الناس عنهم أنهم متحضرون يمشون على عجين النقد الغربى بحرص وانتباه عالٍ حتى لا يلخبطوه فيبوؤوا بلعنة شياطين الغرب ويحق عليهم الإبعاد والحرمان من اليغمة التى ينعمون بخيراتها السحت، حين أفعل هذا أتذكر للتو أبيات الشاعر الأموى جَرِير بن الخَطَفَى التى يقول فيها وكأنه كان يقرأ بظهر الغيب ما سوف يفعله أشاوسنا النقاد المتنطعون:

والتغلبىّ إذا تنحنح للقِرَى
حَكَّ اسْتَه وتمثَّل الأمثالا
* * *
والتغلبىّ لئيمٌ حين تَجْهَرُه
والتغلبى لئيم حين يُخْتَبَرُ
والتغلبىّ إذا تَمَّتْ مروءتُه
عبدٌ يسوق رِكَاب القوم مُؤْتَجَرُ

ومن ناحية الأسلوب يلاحَظ أن كثيرا من الجمل فى قصص المجموعة التى بين أيدينا مستقلة عما قبلها وعما بعدها كما نبهنا من قبل. وقد كان هذا الاتجاه، فيما أذكر، قد شرع ينتشر بين القصاصين الشبان فى سبعينات القرن الماضى، بل لقد اتبعتُه أوانذاك فيما كنت أكتبه من قصص قصيرة ثم سرعان ما أقلعت عنه وعن كتابة القصة. وهم فى هذا متأثرون بالأساليب الأوربية التى لا تعرف واو الاستئناف. ومع هذا لم أتنبه فى بداية الأمر إلى هذه السمة الأسلوبية فى قصص المجموعة. وربما يكون أحد أسباب ذلك أن الكاتب، حسبما شرحتُ، كان يستعمل الفاصلة بشكل كبير بين الجملة والأخرى لا النقطة، فتوهمك الفاصلة أن الجمل ليست منفصلة بعضها عن بعض بل مترابطة. وكثير من الكتاب المصريين فى العقود الأخيرة يستخدمون الفاصلة بكثرة على حساب النقطة وغيرها من علامات الترقيم، ومنهم أستاذى د. شوقى ضيف، ولكنْ خارج نطاق الكتابات الإبداعية بطبيعة الحال.

كذلك من سمات لغة المؤلف كما تظهر فى هذا الكتاب بُدُوّ أثر الأسلوب القرآنى عليها. وهو فى هذه الحالة لا يقتبس الآية القرآنية كما هى، وإنما يذيب جزءا منها فى كلامه. يقول واصفا ما وقع ليلة زفافه على زوجته من هطول المطر وهما بلباس العرس يقطعان الحديقة كى يصلا إلى العربة التى تنتظرهما لتحملهما إلى بيت الزوجية، فاختلطت ألوان الزواق على وجهها مما حوله إلى وجه بلياتشو: "كان عليهما فى نهاية الحفل... وكأن فخّ (فَخًّا) نُصِب لهما، فَتَحَتِ السماء أبوابها فجأة عليهم بماء منهمر...". فانظر كيف أخذ آية "ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر" من سورة "القمر" وصيَّر عبارة "ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر" إلى "فتحت السماء أبوابها فجأة عليهم بماء منهمر" محولا الفعل المسند إلى رب العزة إلى فعل مسند إلى السماء، التى كانت مضافا إليه فى الآية فصارت الآن فاعلا، وأضاف هو من ناحيته كلمتى "فجأة عليهم". كما أن الموقفين يختلفان: فعبارة القرآن جاءت فى سياق الحديث عن عقاب الله لقوم نوح حين أغرقهم فى سيول هطلت من خلال أبواب السماء هطولا وتفجرت بها عيون الأرض تفجيرا، أما هنا فقد وردت فى سياق تصوير تهكمى أقصى ما وقع فيه ذوبان ألوان الميك اب على وجه العروس. وهذا مجرد مثال. وتعقيبا على هذه الملاحظة أقول إن المؤلف قد أنبأنى منذ أيام أنه حفظ من القرآن تسعة أجزاء. لكنى أتساءل هنا: كيف يستطيع الزوج تذكر هذه الحوادث القديمة التى تتعلق بليلة دخوله بزوجته وقد مر عليها عشرات الأعوام، وفى نفس الوقت يعجز عن التعرف على زوجته وهى أمامه تحدثه ويحدثها وتقول له إنها سوف تعد له الطعام بينما يتوضأ ويصلى؟ مجرد تساؤل!

وثمة موضوع آخر، وهو أن الزوج لدن قيامه من النوم ومروره على زوجته فى المطبخ ميمما الحمام للوضوء كان ثقيل اللسان بطىء النطق مما أزعج زوجته ودفعها إلى الاتصال بابن أخيه كى يستدعى الإسعاف لحمله إلى المستشفى. فى البداية لم أفكر فى سبب ما حدث للزوج، وبعد ذلك بأيام دار بينى وبين المؤلف حوار حول تلك النقطة، فسألته عن تفسير الأمر، فاستغرب سؤالى عن أمر كهذا قائلا إن الرجل قد أصيب بجلطة. فرددت بأننى لم يدر بخلدى شىء من ذلك، فأضاف أن المسألة باتت من المعارف الشائعة حتى إن العامة يعرفونها، فضحكت مداعبا أننى، فيما هو واضح، أجهل من العامة لأنى لم يسبق لى أن شاهدت شيئا من ذلك ولا سمعت به ولا دارت مناقشة حوله أمامى.

وقد أخذنى هذا إلى ما كان يقوله نقادنا الحداثيون القروديون فى يوم غير بعيد تقليدا غبيا لما كان يردده النقاد الغربيون آنذاك من أن النص كيان مغلق لا ينبغى الاستعانة على فهمه بشىء أى شىء من خارجه، فكنت أستسخف هذا وأعلق على هذه المقولة بأن النص ليس ولا يمكن أن يكون كيانا مغلقا لا هو ولا أى شىء آخر فى الدنيا، إذ أشياء الحياة وأمورها مفتوح بعضها على بعض، ومن غير المفهوم تحريم طلب المساعدة على الدخول إلى دهاليز النص المتشابكة وغرفه التى يخيم على فضائها خيوط العنكبوت. ونحن فى تفسير القرآن نفسه نستصحب أسباب النزول والمعاجم والنحو والصرف والبلاغة والنقد الأدبى والشواهد الشعرية والنثرية وأحاديث الرسول صلّى الله عليه وسلّم وما قاله المفسرون المسلمون فيها على مدى التاريخ وسيرة النبى وتاريخ الإسلام وغير

ذلك من المعارف والفنون والعلوم كعلم النفس وعلم الاجتماع وعلى الاقتصاد وعلم الآثار والجيولوجيا والفيزياء والكيمياء والطب وعلم البحار... كما بينت ذلك تفصيلا فى كتابى: "مسير التفسير" فى الفصل المسمى: "كل العلوم فى خدمة التفسير".

والواقع أن أى نص يحتاج منا إلى الاستعانة بعدد من العلوم يختلف من نص إلى آخر كحاجتنا إلى ذلك فى فهم القرآن الكريم. ومن يرجعْ مثلا إلى كتابَىْ "ثقافة الناقد الأدبى" و"الشعر الجاهلى- منهج فى دراسته وتقويمه" للدكتور محمد النويهى يَرَ الرجلَ يدعو بكل قوة إلى وجوب رجوع الناقد أحيانا إلى بعض الكتب العلمية الخاصة بالفيسيولوجيا والفلك والحيوان مثلا فى طبعات مبسطة للقارئ العادى على الأقل إن أردنا فهم ما نقرؤه فى الشعر الجاهلى من أبيات تتصل بهذا العلم أو ذاك كوصف أعضاء الناقة والنجوم والضفادع وحركاتها فى الماء وأصواتها وما يعترى عروق ظاهر الكف البشرى من بروز عند الكبر فى العمر وما إلى هذا، وإلا خرجنا من القصيدة وأقفاؤنا تجِّمر عيشًا.

وقد قلت شيئا مثل هذا لدن مناقشتى لبعض ما كتبه أحد النقاد الحداثيين الخليجيين، وهو من أكابر الهلاسين رغم أنه إذا ظهر فى التلفاز أشعرك أنه سوف ينفجر من انتفاخ خديه وزمّ شفتيه وغلظ غبغبه، فيظن السذج السطحيون أن ذلك الانتفاخ راجع إلى أنه مفعم علما فى حين أنه فى الواقع بالونٌ فاضٍ متى ما مسسته برأس دبوس انفثأ فى الحال وأراحنا منه ومن نفخته الكاذبة الخاطئة، قلت فى أول فصل كتبته عنه، وكان ذلك فى بلده منذ عقود، إن هذا النهج إنما يراد به فى نهاية المطاف إحياء الاتجاه الباطنى فى

تفسير القرآن بإسباغ معان خبيثة عليه وتقويله ما ليس فيه بناء على مقولة انغلاق النص. إن القائلين بهذا هم الباطنية الجدد. لقد شاهدنا قبل قليل أن قصة قصيرة بسيطة تتطلب، من أجل فهم نقطة صغيرة فيها، اللجوء إلى علم الطب، وإلا مررنا بحكاية ثقل لسان الزوج المسكين دون أن نعرف له سببا.

وبعد فإن القصة التى كنت بسبيل من قراءتها وتحليلها وتناولها بالنقد فى الصفحات الماضية هى قصة جميلة رغم أنف كل الملاحظات التى أبديتها. إنها قصة جميلة بصغر حجمها، لا من ناحية قلة الصفحات فحسب بل بصغر القطاع الذى تناولتْه بالسرد والوصف والحوار والموضوع التى تشتمل عليه. إن وقائعها لا تستغرق إلا يوما واحدا بل ربما لم تستغرق اليوم كله، ولا تعرف من الحياة الواسعة الشاسعة سوى العلاقة بين زوجين كبيرين فى السن تجمع بينهما الذكريات الحبيبة والعشرة الحلوة التى لا يزيدها كر الأيام ومر الأعوام إلا وثاقة وإحكاما والتحاما.

وهذا واضح فى الاهتمام الحميم الذى بدا فى حديث الزوجة إلى زوجها حين قام من النوم وأرادت أن تسر قلبه وبطنه فأنبأته أن فَطُوره سوف يكون جاهزا حالَما ينتهى من الوضوء والصلاة، وهو الفطور الذى يحبه من فول إسكندرانى مضاف إليه زيت الزيتون، وفلافل بالبيض، وخبز ملدن وما إلى ذلك مما يتحلب له ريقى وريق كل المصريين وتزقزق له عصافير بطوننا شوقا وابتهاجا، والذى كانت الزوجة المحبة قد أعدته لزوجها لولا أنه كان لا بد من ذهابه للمستشفى لتدارك حالته الصحية المقلقة التى طرأت بغتة، فلم يتسع الوقت ليصيب منه، مما جعلنى أشعر بالتحسر وكأنى أنا الذى حُرِمْتُ منه لا

هو. كما يتبدى ذلك الحب الرقراق فى مسارعتها إلى الاتصال بابن أخيه فى الحال كى يحضر لعمه عربة الإسعاف فور شعورها أن ثمة شيئا مقلقا فى الجو وأن أمور قرينها الصحية ليست على ما يرام بعدما ظنت فى البداية أنه يداعبها بالتباطؤ فى كلامه وتظاهره بعدم معرفته لها وأنه يحاول بذلك إدخال البهجة على قلبها مع الدقائق الأولى من النهار. كذلك يتبدى هذا الحب الهادئ العميق فى حرصها على مرافقته له فى الطريق إلى المستشفى والبقاء معه فى غرفة العمليات وإمساكها بيده طوال الوقت وفركها إياها بلطف بالغ، والتطلع إليه باستمرار فى إعزاز وقلق شديد.

والقصة جميلة أيضا بما فيها من وصف رائع، على قِصَره، لِمَا خالَ الزوجُ أنه يراه ويسمعه ويحس به عند بدء سريان سائل التخدير فى شرايينه وبداية فقدانه الوعى بالأشياء والأشخاص والمكان من حوله، إذ توهم أنه يسمع من يطلب منه النظر يمينا ثم النظر يسارا، ناهيا إياه عن التلفت إلى الخلف، فيشاهد ما ينبسط عن يمينه ويساره من حقول ذات زهور بديعة أوراقها كآذان الفيلة، وهو ما فسرتُه على أنه كان يتصور نفسه يطير فى أجواء الجنة، وفسرت النسر بأنه مزيج من البراق الذى تقول الأحاديث إنه حمل الرسول الكريم من مكة إلى بيت المقدس، والنسر الذى ورد ذكره فى "ألف ليلة وليلة" وكان يتعلق به البشر فى بعض البلاد البعيدة على نحو ما ويطيرون معه على هذا النحو دون أن يدرى هو بهم. أما الزهور والنباتات التى كانت أوراقها فى حجم آذان الفيلة فتأخذنا إلى قول النبى عليه السلام مصورا بعض مراحل الطريق خلال رحلة الإسراء والمعراج على النحو التالى: "لمّا انتَهَيتُ إلى سِدْرةِ المنتَهى إذا ورقُها مثلُ

آذان الفيلة، وإذا نبقُها مثلُ القِلالِ. فلمّا غَشِيَها من أمرِ اللَّهِ ما غَشِيَها تحوَّلت. فذَكَرَ الياقوتَ". ويبقى البحر الذى كانت مياهه تغلى ويشعر الزوج بلسْع رذاذها الملتهب لأخمص قدميه، وقد حسبته يشير إلى نار السعير وأن عبوره فوقه راكبا النسر رمز على اجتيازه للصراط المستقيم المضروب على ضفتى جهنم.

وقد ذكر الأستاذ المؤلف لى أنه استقى حكاية النسر الطائر من إحدى الروايات فى سلسلة "هارى بوتر" والفلم الذى أُخِذ عنها، ثم أرسل لى على الماسنجر مشهدا يركب فيه أحد الشبان على ظهر النسر ويطير به ملك الطيور هنا وهناك فوق البحيرات وعلى قمم الأشجار ومسلات أبراج الكنائس وأسطح المنازل. وقد لاحظت أن ذلك الكائن الطائر ليس نسرا بل حيوانا مركبا من جسد حصان ورأسه وذيله وقوائمه، لكنه يختلف عن الحصان رغم ذلك بأن له منقارا وجناحين كبيرين، وله بدل الحوافر مخالب، ومن ثم فلا هو نسر ولا هو حصان. كما أنه انتهى بعد طيرانه إلى بيت تظلله الوحشة والكآبة، وهو ما يختلف تماما مع الأجواء التى كان يطير فيها نسر الزوج فى التهويم الذى سبق استيلاء مفعول الحقنة التخديرية على حواسه وإدراكه. وبمناسبة ما نحن فيه الآن فإن البُرَاق، الذى امتطاه النبى فى رحلة بيت المقدس وسدرة المنتهى، كان هو أيضا حيوانا يعدو على وجه الأرض ويطير فى السماوات، وإن لم تذكر الروايات أنه كان له أجنحة. لقد وصفه صلّى الله عليه وسلّم بـ"دابَّة أبْيَض يُقالُ له: البُرَاق، فَوْقَ الحِمارِ ودُونَ البَغْلِ، يَقَعُ خَطْوُهُ عِنْدَ أقْصى طَرْفِهِ، فَحُمِلْتُ عليه، ثُمَّ انْطَلَقْنا حتى أتَيْنا السَّماءَ الدُّنْيا، فاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ صلّى الله عليه وسلّم، فقِيلَ: مَن هذا؟ قالَ: جِبْرِيلُ. قيلَ: ومَن معكَ؟ قالَ: مُحَمَّدٌ صلّى الله عليه وسلّم".

كما أن "ألف ليلة وليلة" عرفت الحصان الطائر، لكنه لم يكن له جناحان بل لولب متى ما فركه الراكب تحرك الحصان وطار به إلى عنان السماء بنص عبارة الكتّاب، وزِرٌّ إذا ضغط عليه هبط به رويدا رويدا. وفى قريتنا إبان طفولتى كنا نردد مصدقين حدوتة الحمار الذى لقيه فى ظلام الليل الدامس رجل من شارعنا فأمسك به وقفز فوق ظهره متجها به ناحية بيته فرحا بتلك الهدية التى ساقها الله إليه على غير انتظار وبدون مقابل. بيد أنه لم يكد يستقر على ظهره حتى طار به الحمار فى السماء، فعرف أنه جنى، وارتعب خوف السقوط من حالق وتحطمه أشلاء. ولحسن حظه استطاع استعادة رباطة جأشه وتذكر أن فى جيبه مسلة فأخرجها وغرزها فى جنب الدابة، التى سرعان ما أَنَّتْ من الألم وأخذت تهبط قليلا قليلا حتى حطت على الأرض. وهنا قفز الرجل وسَلَتَ مسلته من جنبها واندفع يعدو إلى بيته وهو لا يصدق بالنجاة.

وهنا لا بد لى من القول بأنى أستغرب خطور هذه الرؤيا العجيبة على عقل المريض المخدَّر، وبخاصة إذا كان مصابا بجلطة. لقد مررت بتجربة التخدير عدة مرات، وكنت فى كل مرة أظل يقظان واعيا بينما الأطباء يحدثوننى حتى يشغلونى عما أنا مقبل عليه فلا أقلق، ثم بغتة أغيب عن الوعى دون أن أرى شيئا. أما مثل هذه الرؤيا فيراها الشخص، لو رآها، لدن السقوط فى النعاس التدريجى فى مرحلة الوسن لا على طاولة العملية الجراحية. ومع هذا فمن يدرى؟ ربما كان من الممكن حدوث ذلك رغم كل شىء. فأنا لم أمر بكل التجارب، ومعرفتى بالحياة ليست مثالية ولا تحيط بكل الأمور. وعلى أية حال فالرؤيا فى نفسها بديعة، وفيها الكثير، وقد حللناها على قدر استطاعتنا

فوجدنا فيها طائفة من القضايا المثيرة للعقل والوجدان، وبالذات فى ميدان ما يسمى هذه الأيام بـ"التناصّ".

وأخيرا لقد استمتعت بقصة الصديق مصطفى الخطيب استمتاعا كبيرا، وهذا واضح من كلامى عنها. اسستمتعت بها فى قراءتى الأولى رغم ما وجدته فيها فى تلك القراءة من غموض كان سببه الطريقة السردية التى اتبعها فى رواية أحداثها، وعُرْى شخصياتها عن التسميات، وتداخل الأزمنة، وجهلى بطبيعة مرض الزوج، وأخيرا أحداث غزة التى لم تكد تترك لنا بالا مرتاحا، وكذلك تعطُّل كاتوبى مرتين أثناء ذلك وامِّسَاح عدة صفحات مهمة من الدراسة الحالية كان علىَّ إعادة كتابتها من ذهنى. وقد اقتضانى فهم أبعاد القصة الجميلة قراءتها ثلاث مرات على فترات متباعدة بعض الشىء، وفى كل مرة ينجلى لى شىء من الغموض الذى كان يسربلها فى البداية. والبارحةَ فقط انهار حاجز آخر من حواجزها، فصرت أفهمها أفضل كثيرا من فهمى لها أول مرة. ومع هذا كله ظلت القصة جميلة كما كانت من قبل، وازدادت متعتى بها جراء ما بذلتُه فيها من وقتٍ أحاول قَشْع عَتَمَتها والربط بينها وبين نصوص أخرى هنا وهناك وما أتيح لى أثناء ذلك من فرصٍ اهتبلتها لكى أؤكد موقفى من الهلس النقدى الذى ابْتُلِينا به فى العقود الأخيرة وأفضح ما فيه من سخف وما يتمتع به مرددوه من جهل وانعدام شخصية وببغاوية. شكرا للصديق المهندس مصطفى الخطيب، وشكرا لكاتب مقدمة القصة الأستاذ نشأت المصرى.

رواية "ترنيمة غرناطة الأخيرة"

لمحمود القاعود

بدأتُ قراءة هذه الرواية وأنا، بغير قصد منى، أدندن على طريقة الأمهات حين يشجعن أطفالهن الصغار على المشى ويعملن على فطمهم عن الزحف على أربع: تاتا خط العتبة. تاتا حبة حبة! وفجأة تذكرت ما يقوله نقادنا الأشاوس الذين لا شخصية لهم ولا لون ولا رائحة تميزهم عن غيرهم إذ هم يجتهدون بكل ما لديهم من طاقة على ترديد كل ما يأتينا عن نقاد الغرب، ومنه ما يسمى بـ"العتبات"، لكنها عتبات غير مقدسة، فهى ليست عتبات الشيعة فى النجف الأشرف، بل عتبات التنطع والتساخف والمخ الفاضى الذى ليس لديه شىء يقدمه لنا نحن القراء مما يمكن الانتفاع به، ومن ثم يريد أن يوهم نفسه ويوهمنا أن فى جَعْبَته شيئا ذا قيمة، وهيهات. فما تلك العتبة التى تنبهت إليها وأنا أدندن "تاتا خط العتبة"؟ آه. إنها العنوان وغلاف الرواية.

فأما العنوان فهو "ترنيمة غرناطة الأخيرة"، ونقادنا الأشاوس المتنطعون المتساخفون يزعمون أن العنوان يدل على المُعَنْوَن، وأنه ينبئ عن مضمون العمل القصصى بمجرد وقوع بصرك عليه. وأنا أزعم بدورى ردا على مزعمهم أن العنوان يخلو من كل ما يقولون، وإلا فما معنى "ترنيمة غرناطة الأخيرة"؟ أهى ترنيمة كنسية؟ أهى ترنيمة عيد الميلاد؟ أهى ترنيمة يغنيها المغنون والمغنيات فى بيوتهم؟ أهى مجاز؟ أهى حقيقة؟ كل ذلك جوابه هو "لا ندرى"، وإلا فليقل لى واحد من أولئك العنوانيين: ماذا يفهم من تلك الكلمة؟ وكيف؟ ولماذا؟

فهذا عن الترنيمة. ولكن ماذا عن غرناطة؟ هل هى سينما غرناطة التى فى حى روكسى بالقاهرة والتى كنت أذهب إليها فى شبابى أنا وزوجتى فى ليالى الصيف حين يكون الجو سجسجا، والشريط جميلا؟ هل هو مطعم غرناطة؟ هل الكلام عن غرناطة القديمة أيام كانت الأندلس مسلمة؟ ومتى؟ هل وهى فى عز مجدها؟ هل وهى فى أيامها الأخيرة؟ هل أيام محاكم التفتيش؟ أم هل هى غرناطة فى أيامنا هذه؟ أم هل المقصود غرناطة فى كتاب من كتب الآثار؟ وإذا كانت فهل المقصود زيارة غرناطة فى رحلة عارضة ضمن وقائع أخرى لا علاقة لها بغرناطة؟ أم ماذا؟ والله رغم أنى أعرف أطرافا من تلك الرواية التى بذرتها حقيقية فلا أدرى معنى "ترنيمة غرناطة الأخيرة". وأنا والله أنتظر، وكلى فضول، لأعرف ماذا يعنى هذا العنوان، الذى لن أفهم علاقته بالعمل إلا بعد انتهائى من قراءة العمل، وهو ما أردده دائما من أن العمل هو الذى يدل على العنوان ويعرفنا حقيقته لا العكس حسبما يقول النقد الأوربى الذى يخر عليه نقادنا الأشاوس السخفاء ساجدين. أنا أتكلم هنا عن القارئ الذى لا علم له بمضمون العمل لا بالقارئ الذى تناهى إليه ذلك المضمون من المؤلف أو من القراء أو النقاد الذين طالعوا الرواية من قبله وعرفوا ما فيها. فهذا القارئ ما كان يمكنه، ولا حتى بالطبل البلدى ولا بمزيكة حسب الله السابع عشر بقيادة المعلم عبد السلام النابلسى، الذى دلقتْ عليه الست بتاعة "كتاكيته بنى" حلة الملوخية فوق رأسه، فِمنْ جوعه الذى كان يفرى مصارينه أحضر فى الحال رغيفا وأخذ يغمس الملوخية من على رأسه قبل أن تبرد ويصير طعمها مش ولا بد! منه لله كان ينبغى أن يعطينى رغيفا آخر حتى

أقابله من الناحية الأخرى وأغمّس الملوخية من على قفاه فلا يضيع هدرا ونفوز بدعاء القفا لنا. ألم يقل الرسول عليه الصلاة والسلام: الإناء يستغفر للاعقه؟ بلى قال ذلك، وقال أيضا فى حق أولئك النقاد المتنطعين المتساخفين وأمثالهم من كل متنطع فى أى مجال من مجالات الحياة: "هلك المتنطعون". قالها ثلاثا. وقال كذلك بأبى هو وبأمى عليه الصلاة والسلام: "إنَّ أحبَّكم إلى وأقربَكم منى فى الآخرةِ أحاسِنُكم أخلاقًا، وإنَّ أبغضَكم إلينا وأبعدَكم منا الثرثارونَ المُتشدِّقون المُتفيهقون. قالوا: يا رسولَ اللهِ، قد علمنا "الثرثارونَ والمُتَشدِّقونَ"، فما المُتَفَيْهِقُون؟ قال: المُتكبِّرونَ". ولا ريب أن نقادنا المتنطعين المتساخفين يدخلون من أوسع الأبواب والشبابيك فى طائفة الثرثارين المتشدقين المتفيهقين الفارغين، والمتكبرين رغم ذلك ظنا منهم أنهم بترديد سخافات النقد الغربى قد صاروا حداثيين متحضرين غربيين متقدمين رغم أن معظمهم، وأنا منهم، كانوا إلى وقت قريب يخبزون عيشهم ويطبخون طعامهم على نار الجلة وتحيط بهم الزبالة من كل جانب ولا تقع أعينهم وأنا منهم على شىء تهش له الروح أبدا، بل على القبح الشامل الكامل. والرسول صلى الله عليه وسلم لا يحب أبدا لمن آمن به أن يكون إمعة لا شخصية له ولا استقلال فكر أو ضمير.

ونتقل إلى العتبة الثانية، وهى عتبة الغلاف، وهى عتبة غير مقدسة أيضا. وأحب أن أقف من الغلاف فقط إزاء اللونين: الأسود والأحمر اللذين كتبت بهما كلماته: فأما الأسود فأنا أقرؤه على أنه تعبير عما ينتويه الناشر القادر الفاجر المتدبر والمتجبر للمؤلف الشاب المسكين من نية سوداء إذ سوف يجعل يومه أسود من قرن الخروب لو فكر فى فتح فمه بالمطالبة بشىء ضئيل

بئيل من حقه من سعر الكتّاب، وأما الأحمر فرمز على الدم الذى سيسيحه للمؤلف الغلبان الذى ساقه حظه التعيس إليه بعدما ظل يرد عليه كلما طالبه بشىء من المال ولم يفهم سيادته العبارة ولا الإشارة فى قوله له فى ذلك الرد: إن الذى بعنا به الكتّاب كله لا يساوى حق ساندويتش شاورمة يا أبا حنفى! وما دام نيافته لم يفهم معنى هذا الرد وماذا يخبئ وراءه فليس أمام الناشر سوى أن يسيّح له دمه حتى يكون نكالا لِمَنْ بين يديه ومَنْ خلفه من الكُتّاب وعبرة وموعظة لأولئك الجاهلين! وبالمناسبة فأنا أيضا لم أحصل من الناشر ولا على حق سندويتش طعمية من الرجل الذى يقف على الناصية بين المدينة الجامعية والجامعة بعربة وحمار ويظل الحمار يعطس فى الجردل الذى يغسل فيه بياع سندويتشات الطعمية يده وصحونه ورجله ويتمضمض كذلك فيه، ولا عزاء لآكلى الساندوتشات من عربته وقِدْرته ومغرفته ومريلته، ويأخذ له فوق البيعة نهقتين من صوت الحمار ورفستين من حافريه الخلفيين حتى يعرف أن الله حق فيحرّم على نفسه أكل الطعمية ونشر الكتب عند الناشرين.

وبالمناسبة فهناك على الغلاف صورة ظلية لشاب أو رجل (لا أدرى)، وأمامه صورة ظلية أخرى بدا لى أنها صورة فيل بزلومة ونابين، وكأن هناك همسا وحبا بين الرجل والفيل. ألا ينادى الغرب الحداثى بتقنين ممارسة الجنس بين البشر والحيوانات؟ بلى والله وبالله وتالله وتَرَبِّ الكعبة وتالرحمن! ولسوف يأتى متنطع قائلا إن هذه إشارة إلى أن وقائع الرواية تجرى فى بلاد تركب الأفيال. ولسوف أقول أنا بدورى له: خيبك الله. كيف تقول لى هذا الكلام المضحك؟ أنت فاكرنى هندى؟

منك لله يا دكتور قاعود! فتحت علينا أبواب المواجع، لكنى أعرفك عفريتا نفريتا واسع الصدر لكل من يفضح البكاشين. وهل هناك أسوأ من بكاشى العناوين والعتبات والشبابيك والخوخات والبوابات؟ لذلك سوف آخذ راحتى على الآخر وأكتب ما بصدرى وأفض ما بأعماق نفسى كى أتطهر من أولئك المتنطعين وأحرقهم بجاز وسخ حتى لو كان التخلص من التنطع والتساخف على حسابك وحساب روايتك التى أتوقع أن تكون رواية جيدة شائقة ممتعة. أتصور!

والآن إلى عتبة أخرى، وهى عتبة الكلمة المعنونة بـ"فى البدء كان الحب". آه يا ولد يا حِبّيب! بيب بيب! أااهلى! عجايب يا صديقى وابن صديقى. مبلغ علمى أن الحب لا يشغلك. لا يشغلك الآن بعدما أبرأك الله من جراحات قلبك. ولهذا فأنا أتفهم إثباتك لهذه الكلمة فى مقدمة روايتك التى أتصور أنها رواية جميلة. وهذا نص كلمة الصديق ابن الصديق، وعنوانها: "فى البدء كان الحُبّ" على غرار أول عبارة فى العهد الجديد: "فى البدء كان الكلمة": "هالة مِن الضوء شديدة التوهج تنبعث فى الروح فيكون الحُبّ! الحُبّ ظاهرة حيّرت البشرية، ومبلغ العلم أنه لا تفسير لها، والحُبّ لا يخضع لقانون السببية، فلا تسأل: لماذا يُحب فلانٌ فلانة أو تُحب فلانة فلانًا؟ فهذا قدرٌ مقدور، وهو قوة الروح التى لا غالب لها فى هذه الحياة الدنيا. والحب لا يعترف بالفوارق أو العُمْر ولا يُقيم اعتبارًا لنقدٍ أو وشاية".

لكن هل الحب حقا لا يعلل؟ فى رأيى الحب يعلل ككل شىء فى هذا الكون. كل ما هنالك أننا لا نستطيع التوصل إلى علة بعض الأشياء. لكن

هذا لا يعنى أبدا أن هناك أشياء غير قابلة للتعليل ولا حتى الحب. فأنا مثلا حين يميل قلبي إلى إنسانة تكون جميلة فى نظرى وفى نظر من حولى، وأنيقة وذكية وتحب القراءة وتؤمن بالله وواسعة الأفق وترحم المكسورين وتعطف عليهم وتقدم لهم يد العون، فهذا هو سبب الحب وعلته. وحين أحببت زوجتى كانت تتمتع بتلك الصفات بنسبة كبيرة مع التفاوت فى تلك النسبة بين صفة وأخرى. ولا بد أن نضع فى الاعتبار أننا بشر قبل وبعد كل شىء، ومعنى هذا أنه ما من فتاة أو امرأة إلا وفيها عيوب مثلما أن فىَّ أنا أيضا لذات السبب عيوبا. وقد نسيت أن أقول إننى لا أحب النحيفات ولا السمينات ولكن أحب المرأة أن تكون بين بين مع بعض الميل إلى الامتلاء لا إلى النحافة. وهناك من يقع فى الحب لأن من يحبها حنون ومريحة وتجعل من يحبها يشعر بأنه ملجؤها وكهفها الذى تلجأ إليه ليحميها من نُوَب الدهر وأنه فخرها الذى تباهى به وتحرص على أن تطعمه كل ما هو شهى ولذيذ مثلا. أقول: مثلا. وهناك من يعشق من تؤلمه وتؤذيه. وقد يشكو لطوب الأرض منها لكنه لا يفكر فى هجرانها، ولو ذهبتَ تحاول تبغيضه فيها لأبغضك أنت وابتعد عنك. وهناك من يحبها غنية مترفة، وهناك من يحبها خاضعة ضعيفة... أما لماذا يحب هذا تلك السمات، ويحب غيره تلك السمات الأخرى فلا ريب أن هذا راجع إلى البيئة التى تربى فيها وذوق هذه البيئة، والتجارب التى مر بها، والكتب التى قرأها (إن كان المصريون والعرب والمسلمون فى عصرنا هذا البائس يقرأون، وهم بحمد الله أكبر من القراءة وتفاهة القراءة والصداع الذى تسببه القراءة للأمخاخ العجالى)، وراجع إلى الأصدقاء الذين يعايشهم، والقيم

الأخلاقية والجمالية التى يتمسك بها... إلخ. ستقول: ولكن هذا كلام عام. وأرد بأن كلامك قد يكون صحيحا، إلا أن الحب، كما ترى، يمكن تعليله أولا على سبيل العموم، أما حالات الحب المعينة فعلينا أن نطبق هذه التعليلات عليها بحرص ويقظة.

وأختم بأننا لا ندرى حقيقة مليارات الأشياء فى هذا الكون، لكن جهلنا بذلك لا يدل على أنه لا يمكن معرفته يوما ما. وأما أن الحب جبل صلب لا يؤثر فيه شىء فهل نسيت ما درسته فى علم الجغرافيا والجيولوجيا من أن عوامل التعرية لا يستعصى عليها جبل ولا هضبة ولا حتى الفولاذ ذات نفسه؟ ألم يأتك نبأ الشعر والقصص والمسرحيات والسير الذاتية والغيرية التى يبكى فيها المحبون لأن الطرف الآخر تركه وطار بتأثير شخص آخر أجمل أو أغنى أو آنق أو أبرع فى الكلام أو عنده سيارة بينما المحب الأصلى ليس لديه ولو عربة كارو بحمار أو بسبب الوشايات، وما أكثرها فى دنيا البشر؟ بالله عليك يا صديقى وزميلى الدكتور حنف القاعود أَفِقْ من طيبة قلبك الذى يشبه لونه لون البفتة، ولا داعى لأن نقول: أفق من أوهامك. وهل أنا بحاجة إلى أن نتحدث عن صديقك الذى حدثتنى عنه وتركتْه حبيبته وتزوجت من رجل آخر عنده لحم كثير وبلاش، وذلك بسبب هيجان أهله وأهلها ضد هذا الحب وزَنّهما المِلْحاح عليهما حتى فسد العشق الجنونى الذى كان يربط بين قلبيهما وتمتعا به زمنا وكأنهما فى الجنة، وتغير كاللحم حين يترك خارج الثلاجة أياما كثارا؟ بالله عليك لَتُسَلِّمَنَّ لى عليه ولَتُوَاسِيَنَّه وتُعَزِّيَنَّه وتُرَبِّتَنَّ على كتفيه وتُنِيمَنَّه على صدرك حتى ينسى ويبرأ من جراحه.

ولماذا نذهب بعيدا ولدينا ابن زيدون صاحب أعظم قصة حب فى تاريخ الأدب العربى، تلك القصة التى ربطت بين قلب شابٍّ وزيرٍ أديبٍ له فى الشعر والنثر فرائد عجيبة قلما يجود الزمان بمثلها روعة وإبداعا، وشابة بنت خليفة ذهبية الشعر بيضاء البشرة لعوب كأنها خلقت لتُحَبَّ وتُحِبّ وتُعْشَق وتَعْشَق، ونظم فيها ابن زيدون أعظم وأبدع وأجمل الألحان... ومع هذا كله انهدم صرح ذلك الحب كما ينهدم كل شىء فى الحياة. ولا تكن كأخى الأصغر الذى كانت تربطه بشاب مثله من القرية وشيجة صداقة كان أخى يصفها بأنها صداقة خالدة، فكنت أقول له: ليس هناك شىء فى الحياة خالد. لكنه لم يكن يقتنع بما أقول إلى أن كان الصديق الخالد يعبث بقنبلة أتى بها من ساحة معركة من معارك رمضان المجيد على أنها قنبلة خامدة، فانفجرت فيه بغتة وحولته إلى أشلاء، وبعد أن اندملت جراح أخى رأيته يأتى حزينا صامتا ويحدثنى بشأن صديقه ويقول لى: عندك حق. لا شىء خالد فى هذه الحياة. فلذت بالصمت احتراما لذكرياته ومشاعره وأحزانه ولوفاة صديقه الذى كنت أحبه وأعجب به وبشهامته ومأساة موته العنيفة الشنيعة.

ودعنا، يا قارئى الكريم، من هذا كله وتعال نتساءل: ترى هل هذه الكلمة التى صدر بها عَمُّو حَنَفُ روايته ووصف بها الحب، أيا كان نصيبها من الصواب أو الخطإ، تدخل فى نسيج الرواية؟ ترى أإذا حذفناها من موضعها الذى أثبتها فيه كاتب الرواية أتتأثر روايته وتصير ضعيفة رديئة؟ أبدا. وعلى هذا الأساس لا يصح إدخال هذه العتبة فى تقييم الرواية، إذ هى لا تمثل جزءا منها بل هى عضو غريب عنها. قد تكون كلمة جميلة فى حد ذاتها وتدل على ذوق الكاتب

المرهف وتثير إعجابنا أيما إثارة، بيد أن جمالها هذا ورهافة ذوق كاتبها لا مدخل لهما فى الرواية بخلاف ما لو شَكَّلَتْ عضوا من أعضائها وأوردها الكاتب فى صلب روايته سردا أو حوارا وكان لها دور تؤديه فى العمل، فإنها حينئذ تؤثر فى العمل وتتأثر ببقية عناصره تفاعلا وأخذا وعطاء، لكن لا بوصفها عتبة بل بوصفها جزءا أساسيا فى الرواية. وقل مثل ذلك فى الأبيات الجميلة التى صدر بها الكاتب كل فصل من فصوله. فجمالها لا يضيف شيئا إلى الرواية، ولو حذفها ما تأثرت الرواية بذلك الغياب. ولا ينبغى فى هذا السياق أن ننسى أن ثم روايات تافهة كثيرة رغم روعة الاقتباسات التى يرصع بها المؤلفون الخالون من الموهبة أعمالهم. وبناء على هذا جميعه سوف أركز على جسم الرواية وأدع كل هاتيك الفضول.

لكن تعال إلى الأغنية التى وردت على لسان البطل خلال حواره مع البطلة حبيبته، وهى أغنية محمد عبد المطلب التى كنت أسمعها فى الإذاعة ولكنى لم أعطها أذنى كاملة قبل ذلك ولا أعرف من مؤلفها ولا ملحنها، فجاءت الأغنية داخل الحوار المذكور هدية من السماء، وقرأت نصها وأحطت بما فيها من شجن وحرقة ومشاعر تنطلق وتصعد من أعماق القلب وتتفاعل مع الموقف وأحاسيس العاشقين. والأغنية هنا هى جزء لا يتجزأ من نص الرواية، إذ أتت على لسان البطل العاشق وهو يتحدث مع البطلة العاشقة تعبيرا عن مشاعره التى تقاسمه إياها البطلة السورية، تلك المغرمة بالغناء المصرى الذى تراه تعبيرا عن مشاعرها وتنظر إلى الأغنية على أنها ترجمة عما يمور فى أعماقها تجاه حبيبها وعلى أنها أيضا دليل على اشتراكهما فى تذوق الغناء المصرى،

وليس أى غناء بل الغناء القديم الذى يرمز إليه عبد المطلب، ويشير إلى أن عاشقينا ليسا عاشقين خفيفين يمشيان مع أغانى المرحلة الضحلة التى لا تحرك عصبا فى النفس ولا تجد لها صدى فى القلب ولا فى العقل. ومن ثم يرى القارئ أن هناك فرقا حاسما بين النص الشعرى البديع الذى يورده السارد قبل كل فصل فى حكايته وبين نص يشكل عضوا أصيلا فى نصه الروائى ويدل على مشاعر أهم شخصيتين فيه ويشترك مع بقية عناصر الرواية فى تطوير الأحداث وكشف طبيعة الشخصيات.

ليس هذا فحسب بل الأغنية تعبير عن حنين العاشقين إلى بلاد العرب، إذ هما يتذكرانها فى الغربة ويزيد العاشق فيلقيها على مسامع حبيبته. وهل هناك أقوى من الغناء تعبيرا عن الحنين الطاغى إلى الوطن والماضى الجميل؟ اسألونى أنا، فقد كنت وأنا فى أكسفورد حريصا إذا ما خرجنا أنا وزوجتى والطفلان على كرسييهما المتلاصقين المتحركين نجوب القرى والحقول حول تلك المدينة، حريصا على اصطحاب المذياع ذى الموجة القصيرة معنا نستمع فيه إلى أغانى مصر وتطير قلوبنا شوقا حارقا إليها. ولا أنسى ذات ليلة من ليالى رمضان فى الشقة، وكنت فاتحا المذياع على إذاعة القاهرة، إذ فجأة سمعت صوت المسحراتى بصوت سيد مكاوى وكلمات فؤاد حداد النصرانى اليسارى الشامى الذى تحول إلى الإسلام وكتب أحلى أغانى السحور وأداها مكاوى بصوته الشعبى الأصيل على طبلته الصغيرة التى ينقرها بزُخْمَتِه البديعة، فقفَّ شعر رأسى وجاش قلبى بالمشاعر الهادرة وتحركت عيناى وأوشكتا أن تهميا بدموعها رغما عنى لولا تماسكى العنيف فى وقته.

تقول الرواية: "انساب صوت عبد المطلب حزينًا باكيًا نادمًا، ما جعلنا أثناء تجولنا بمدينة غرناطة وكأننا نعيش فى عصر ابن زيدون وولّادة بنت المستكفى جرّاءَ عذوبة الصوت والحنين والشجن:

"تروح وتنسى ودادى ما كنت أنا الغالي
وتقول: "بَحِبَّكْ"، وقلبك م الغرام خالي
يارتنى اشوفك يا قلبي تبات كده خالي
بَصْعَبْ على روحى لما بشوف حالي
بين بسمتى ونوحى كلمة تقولها لي
إنت السبب إنتَ. واصعب عليك إمتى؟
بصعب على عينى وكل ما أشكى لها
وكل ما أشكى لها تبكى تواسينى والدمع دبّلها
ومهما أبات أنعى إيه راح يفيد دمعى؟
إنت السبب إنتَ . واصعب عليك إمتى؟
بصعب على قلبي اللى شغلنى بيك
يقول لى: ده ذنبي إللى جنيته عليك
بينى وبين قلبي بَنْدَم على حبي
إنت السبب إنتَ. واصعب عليك إمتى
بصعب على فكرى منك وم الدنيا
لما يروح عمرى فِ مْلَاوْعِتَك فيَا
قريب ولا بترحم دا البعد كان أرحم

إنت السبب إنتَ. واصعب عليك إمتى"

أمام بيتها فى غرناطة، ودعتها، صافحتنى بحرارة، عاودتها ذكريات أول لقاء لنا".

على أن ليست هذه هى الأغنية الوحيدة التى أتى ذكرها فى الرواية، بل ثم عدد غير قليل من أسماء أغانى أم كلثوم. تقول لُبْنَى لعُمَر وهى تحكى له كيف انفصلت عن عبد الحميد وشرع الدكتور زياد يتقرب منها ويعمل على أن يقترن بها: "اقتربتْ ساعة التخرج، وصرتُ أصل ليلى بنهارى للدراسة، وأذكر أنى كنت لا أنام أكثر من ساعتين يومياًّ، الليل كله أستمع إلى أم كلثوم وأغنياتها الأثيرة: "يا مسهرنى، ولسه فاكر، وهجرتك، ودليلى احتار، وغُلُبْت أصالح فى روحى، وقصة الأمس، وعوّدت عينى على رؤياك، ويا ظالمنى، وأنا فى انتظارك، وجدّدْت حبك ليه، وحيرت قلبى معاك، وياللى كان يشجيك أنينى". آه من أم كلثوم! كم تعذّب العُشاق!". الواقع أن كاتبنا الفنان هو الذى يتكلم هنا ولكن من خلال لبنى وعلى لسانها، وهو مما يحسب له، إذ أم كلثوم هى سفيرة مصر للبلاد والشعوب العربية كلها. والقاعود يهيم بأم كلثوم، وأستطيع أن أؤكد أنها لو كانت حية الآن لكان ذهب إليها وفى يده كيلو حلوى من عند الحلوانى السويسرى الشهير، والذى لا أستطيع تذكر اسمه لكبر سنى، ولَطَلَبها للزواج، فهو يهيم بالأرامل والمطلقات والأكبر منه فى العمر هياما لم يحدث ولن يحدث، وثومة بكل تأكيد واحدة من إحدى هذه الفئات.

وهذه الرواية تجمع بين الوقائع الحقيقية ونظيراتها التى هى من ثمرات الخيال، إذ أصل الحكاية كلها يرجع إلى الواقع الحى الذى هو جزءمن تجارب

البطل العاشق واختلط به خيال المؤلف الشاب الذى لم أكن أحسب يوما أنه قادر على تحويل ما وقع إلى رواية تجرى معظم أحداثها فى إسبانيا، التى لم ير المؤلف منها شيئا على الإطلاق، وتنحصر معرفتها فيما عرفه المؤلف الشاب من أحداث وحوارات جرت بين صديقه الذى أعرفه عن بعد من خلال ما كان يحكيه لى عنه وعن عشيقته وبين كاتبنا الشاب الذى تراه يذكر مدن إسبانيا والمسافات التى تفصل بينها والوقت الذى تستغرقه الرحلة بين كل من تلك المدن والأخرى، وما تتميز به كل مدينة من سمات تميزها عن غيرها من المدن...إلخ، وكأنه يعرفها معرفة حقيقية فى حين أنه، كما قلت، لم تطأ قدماه تلك البلاد قط وإنما اعتمد، فيما كتبه عنها، على السماع من فم صديقه العاشق أو من مواقع المشباك المختلفة، وعلى رأسها الموسوعات الخاصة بتلك المعلومات، ومنها ويكبيديا، وهو ما أثار استغرابى وجعلنى أحجم عن الكتابة عن الرواية قائلا فى نفسى: كيف عرف المؤلف هذا كله وأنا متأكد أنه لم يسافر خارج مصر إلا إلى السعودية، والسعودية وحدها، أيام كان والده يعمل أستاذا جامعيا هناك، ومؤلفنا لا يزال صبيا يتلقى تعليمه فى مدارس تلك البلاد، التى لا علاقة لها بإسبانيا من بعيد أو من قريب؟ وهذا برهان على قوة الخيال عنده ومقدرته على تحويل ما يسمعه إلى أحداث وشخصيات وحوارات تبدو وكأنها حقيقية ليس له من دور فيها أكثرمن أنه نقل ذلك الواقع الحى إلى صفحات الرواية فقط لا غير، وهو ولا ريب صاحب فضل كبير فى هذا، كما يرجع الأمر فى جانب آخر منه إلى صديقه المصرى العاشق الذى روى له ما حدث بينه وبين حبيبته الدمشقية، فأخذه وضمنه روايته بعدما خلع عليها من خياله

وتصوراته العجيبة الفريدة الموهمة بأن كل ما تضمه الرواية هو من واقع الحياة الحقيقية دون تدخل منه فى ذلك، إذ اقتصر دوره على تحبير ما سمع على وجه الورق ليس غير.

وفضلا عن ذلك فما تقرؤه يا عزيزى القارئ الكريم على أنه قصة حب واحدة هو فى الواقع الحقيقى قصتان اثنتان لا قصة واحدة، بيد أن خيال مؤلفنا المذهل قد مزج القصتين فى قصة واحدة وحذف وأضاف واستدرك وسد الثغرات الناتجة عن هذا المزج وصيَّر هذا كله سبيكة روائية واحدة. لقد كانت لأحد أصدقائه (الذى عرفنى به كى أساعده اعتقادا منه أنى حصيف وقادر على إزجاء النصح لمن يستحقه أو يطلبه) كان لصديقه هذا قصة عشق تربط بينه وبين امرأة قريبة له أذاقته أفانين من الحب تشبه ما ذاقه ابن زيدون، وإن لم يكن هو وزيرا ولا أندلسيا ولا كانت حبيبة قلبه بنت خليفة ولا بيضاء البشرة أو ذهبية سبائك الشعر ولا كانا يلتقيان على حدود قرطبة فى الليالى الجميلة لا يعلم أحد بهما بل كانا يلتقيان فى محطات القطارات التى تقلهما هنا وهناك بعيدا عن أهلهما فتسقيه من لحظات اللقاء ما يُعِيشه فى مثل الجنة الأولى التى كان يعيش فيها آدم وحواء والتى طردا منها حين لم يلتزما بنهى ربهما لهما من الاقتراب من الشجرة المحرمة فأكلا منها بتأثير وسوسات الشيطان لهما بأن الأكل من تلك الشجرة كفيل بتخليدهما فى الحياة وجعْلهما ملَكين لا يعرفان الموت ولا الألم والمعاناة، وإن لم يكن فى حياتهما شيطان يوسوس لهما بقدرتهما على البقاء الخالد بعيدا عن الموت والآلام بل كان هناك السيدة التى حملته بطنها تسعة أشهر وكانت تخشى عليه من حبيبته

التى تكبره بثمانية أعوام لكنها عرفت كيف تشعره بأنه رجلها الذى يحميها وأديبها الذى يمتعها بحواراته معها والتى تعلق على كل شىء فيما يقول أو يعمل بما يدل على تدلهها فى هواه، بالإضافة إلى ما كانت تنفقه من كيسها وتجعله فى نفس الوقت يشعر وكأنه هو الذى ينفق من جيبه الفاضى كفؤاد أم موسى، وتفيض عليه من عشقها ما يدير رأسه من السعادة التى كانت تغمره بها، إلى أن وقعت الواقعة وشعرت العشيقة القريبة أنها سوفت تنفضح أمام أسرتها وأسرة حبيبها، وكانت بين الأسرتين صلة قرابة قريبة، ولن يكتب لهذا الحب المضى إلى نهايته فيتخرج العاشق الولهان من الجامعة ويقترن بحبيبة القلب، وهو ما اضطر الحبيبة إلى الاختفاء من حياته والتزوج من الرجل الذى تقدم لها والبعد عن قريبها الشاب الذى كاد أن يفقد عقله ولا يتصور أن بإمكانه العيش بدونها أبدا حتى لقد فكر أن يذهب إلى البيت الذى يضمها هى وزوجها ويطالبه بتطليقها لأنها حبيبته وليست زوجته هو ولا ينبغى أن تكون له على أى وضع من الأوضاع، وهو ما قدر الله لى أن أشهد منه تلك الوقائع الأخيرة وأعلم بما كان يدور فى عقل العاشق الشاب الصديق الذى صرت أحبه وأشجعه على أن يكون كاتبا أديبا، إذ كان كالدكتور محمود القاعود زميله وصديقه الحميم، فحاولت بكل ما لدى من قوة وتأثير عليه أن أمنعه من تحقيق نيته الكارثية التى كانت كفيلة بوقوع جريمة خطيرة تضيع فيها رقبته ورقبة العشيقة السابقة المسكينة التى لم تستطع الصمود فى وجه العواصف والتى باءت باتهامه لها بالخيانة والفجور بينما العبد لله يفهمه أنها مظلومة وأن الأقدار لم تكن رحيمة بها ولا به، وأن عليه الابتعاد عنها إن كان يحبها حقا ويكتفى بالذكريات

الجميلة التى لم تكتب لأحد سواه لروعتها وإبداعها إذ كانت تمثل له التجربة الأولى فى ميدان الحب، ومعروف أن تجربة الحب الأولى للشاب هى تجربة صاعقة ماحقة قلما يكون لها فى حياته نظير، ومن الصعب جد الصعب أن يقدر المحبون الشباب على تحمل تبعات الحرمان منها بل يظلون يتخبطون من الألم كما تفرفر الدجاجة المذبوحة ضاربة الهواء والأرض بجناحيها المجنونين إلى أن تصفى دمها تماما وتسكن سكتة الموت.

وكنت أقول له، عندما يسألنى: كيف تكون لذلك الرجل الذى لم تكن تعرفه ولا كانت تربطه بها أية وشيجة ويحرم منها هو يا من كانت تدور حياته حولها كما تدور الأرض حول الشمس ويدور القمر حول الأرض؟ فأقول له: ادع الله أن يعوضك عن هذا الحرمان بأن يجعلها زوجتك فى الجنة. فيقول ملتاعا يائسا كالفرخة الى تتخبط وتتشحط فى دمائها: كيف وهى زوجة غيرى، وسوف تكون لزوجها فى الجنة؟ فأجيبه بأنه لا مانع أن يجعلها الله لكليهما هناك. فيقول: كيف يكون ذلك؟ فأرد بأن الله قادر على أن يخلق منها نسختين متطابقتين تمام المطابقة ويكون له هو إحدى هاتين النسختين ويكتب الله له الشعور بأنها هى تلك النسخة مثلما يكتب لزوجها الشعور بأن النسخة التى يملكها هى زوجته الحقيقية. وأظل أعزف له تلك النغمة أياما وليالى حتى هدأ واقتنع بعدما تعذب وعذبنى معه طوال تلك الأيام والليالى التى مرت علينا وكأنها دهر طويل لا يبدو أنه سوف ينقضى ويصبح ذكرى لا أقل ولا أكثر. فهذه قصته هو التى مزجها بقصة صديقه عاشق الدمشقية الناضجة التى تنفح

بأنوثة جريئة تموت فى العشق وتذوق التجارب العشقية تجربة بعد تجربة تصورا منها أنها ستكون التجربة الوحيدة فى حياتها وحياة من تعشق.

والتجربة الثانية التى استوحاها د. محمود القاعود ومزجها بالقصة التى انتهينا من تلخيصها لتونا هى قصة زميل وصديق آخر أسرع كاتبنا إلى العبد لله يطلب منه له التوجيه والإرشاد، فلم أبخل ولم أتأخر لا لتصديقى أنى قادر على النصح والإصلاح بل لرغبتى فى أن أجتهد معهما فى حل معضلة الغرام الذى وقع فيه ذلك الشاب وغاص حتى شوشته. وملخص الحكاية هى أنه تعرف بامرأة جميلة شامية تعشق الحياة والحب وتخبر حبيبها بأن هواها نحوه قد فتر وينبغى من ثم أن ينفصلا. وكان تعرفها إلى صديق صديقى شيئا فاصلا فى حياتها إذ شعرت أنها بحاجة إلى شباب ذلك الشاب البرىء، فقد كانت فى أوائل الأربعينات من عمرها، وهو فى أواسط ثلاثيناته، وفوق ذلك يتمتع بموهبة الكتابة الأدبية وليس له فى دنيا الغرام صولات وجولات، فراسلته وتطورت الصلة بينهما إلى أن عرضت عليه بذكاء امرأة محبة ناضجة تريد بحرارة لاهبة الحصول على قلبه وشبابه أن يتزوجا مخبرة إياه أنها على وعى تام بأنه أصغر منها وأنه يمكن أن يسأم علاقته بها يوما، وعلى هذا فإنها تبرئه من الآن من الاستمرار معها متى ما شعر بتحول قلبه. وبدا العرض رائعا للشاب إذ فتنه حبها له وتمسكها به فى رصانة وذكاء، وأعجبه أكثر قولها له إن من حقه تركها متى ضاق صدره بعلاقته بها. ولما سُئِلْتُ عن هذه النقطة قلت له: إنه زواج، والزواج لا بأس به ولا حرمة فيه ولا عيب. ولكن عندما علمت أنها متزوجة ولا تزال، وأنها تخطط بهدوء وتصميم للانخلاع من هذا الزواج وإخراج الزوج

من حياتها غير عابئة بمناشدته إياها البقاء معه انقلب رأيى وحذرته من الاستجابة لمطلبها، وفاتحته بخشيتى من أن تنتقم منه إذا ما بدا له أن يتركها استجابة لتقلب قلبه، وبخاصة أنه سيكون تحت رحمتها فى ذلك البلد الأوربى الذى تعمل فيه طبيبة، مؤكدا له أنه ليست هناك امرأة على استعداد لفقدان حبيبها متى شعر بانصراف قلبه عنها بهذه الطريقة التى شرحتْها له، علاوة على أن تخطيطها الهادئ بل البارد للتخلص من حياتها مع زوجها الراهن هو تخطيط مخيف بل مرعب. ومثل تلك المرأة لا يمكن الاطمئنان إلى وعودها الغريبة، وهذا إن كانت هناك امرأة أو حتى رجل يمكنه الوفاء بمثل ذلك الوعد الشاذ الغريب! ويستطيع القارئ الآن أن يعرف كيف تم الامتزاج بين قِصَّتَىْ صديقنا المؤلف ولأى من القصتين كانت الغلبة، التى أرى أنها كتبت للقصة الثانية بينما اقتصر أمر الأولى على استعانته ببعض عناصرها لتصوير مسار انتهاء العلاقة بين الحبيبين فى القصة الثانية. والغريب (ولكن لماذا هو غريب؟) أن الطبيبة الفاتنة حين علمت بحصول صديق المؤلف على درجة الدكتوريه أرسلت إليه تهنئه وتلمح إلى ولهها السابق له وتعبّر بين السطور والكلمات عن حزنها لحرمانها منه ومن حبه الذى كان قمينا أن يخلقها خلقا جديدا وأن يهبها الحيوية الجسدية والعاطفية.

وما صنعه محمود القاعود يذكرنى بما فعله أبوه قبل عدة سنوات حين ألف رواية بعنوان "محضر غش" أدارها على واقعة حقيقية كنت شاهدا عليها وطلب منى المسؤولون بالشؤون القانونية أن أكتب تقريرا عنها، فكتبت ما أتصور أنه يرضى الله سبحانه دون تهويل أو تهوين مع الحرص على عدم اتهام بطلة الغش

صراحة رغم اطمئنانى التام من واقع معرفتى بها ومن واقع الخط الذى كتبت به ورقة الغش المضبوطة معها ومن خلال ما قالته بعض زميلاتها عنها من أنها كانت طوال عمرها فى الجامعة تعتمد على الغش فى الحصول على مركز متقدم كان يتيح لها أن تصير معيدة، مما جعلنى أرتاب فى موقفهن وأشتبه فى أنهن مثلها حصلن على مراكزهن المتقدمة بالغش هن أيضا، وبخاصة أنهن ظللن حتى بعد أن صرن دكتورات على جهلهن القديم الفاضح، وإن كن لا يأبهن بذلك، بل يمضين فى حياتهن لامباليات ومتصورات أنه لا أذكى ولا أعلم منهن.

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فقد وقفت، حين قرأت رواية الأب التى كتبتُ عنها وعن سواها من رواياته فى كتابٍ من كتبى قبل عدة سنوات، أمام أحد أشخاص الرواية، وكان أستاذا بقسم اللغة الفرنسية التى تنتسب البطلة الغشاشة إليه رغم أنها كانت، طبقا للواقع الحقيقى، تدرس فى قسم اللغة العربية، أقول: وقفت أمام صورة ذلك الشخص متسائلا فيما بينى وبين نفسى: ترى هل استلهم الأب صورة ذلك البطل منى بوصفى كاتب تقرير الغش و و و... إلخ؟ ثم سكتُّ وانصرفت عن الموضوع برمته لأفاجأ بعمنا الشيخ الدكتور محمود القاعود يخبرنى أن والده قد قصدنى بذلك الشخص بوصفى أمثل المتدين العصرى الذى يجمع بين التدين وبين التخصص فى أحد الآداب الغربية مع الانفتاح الفكرى والنفسى الذى لا أتمتع بشىء منه، فلما علمت بذلك ابتهجت أن دخلت التاريخ فى صورة ذلك الأستاذ وصرت شيئا مهما وخرجت

من ركن العنكبوت الذى كنت أقبع فيه مجهولا لا يلتفت إلىَّ أحد بل لا يعرفنى فيه أحد. فشكرا يا دكتور قاعود الأب.

وقد صاغ د. حنف الرواية بأسلوب سلس يتوثب حيوية ونشاطا، أسلوب لا يستطيعه معظم كتبة هذه الأيام بمن فيهم المشاهير الذين تدق أسماؤهم كدق الطبول رغم خوائهم التعبيرى والمضمونى والفنى. وواضح براعة صديقنا فى صياغة الكلام وإبداع العبارات الرومانسية الشفيفة مع أنه فى حياته التى نعرفها لا رومانسية ولا يحزنون. وأخطاء اللغة قليلة. وأستغرب أن يكون هناك تدقيق لغوى للرواية كما هو مذكور فى ظهر عنوان الرواية الداخلى، إذ الهنات التى كنت ألقاها فى كتابات الصديق الشاب قبل هذا التدقيق هى هى بعده.

وقد كنت على وشك الوقوف أمام "المرأب"، الذى استعمله الصديق الشاب على أنه "مركن السيارة" لأقول له كلمتين: الأولى أنه لا أحد فى هذا الجيل يعرف فى ظنى هذه الكلمة، بل يستعملون كلمة "جراش"، والثانية أن "المرأب" هو دكان تصليح السيارات: "الورشة"، ناسيا أن المرأب هو أيضا مكان انتظارها. وعلى هذا بلعت لسانى وسكتُّ بعدما أغلقته بورقة سيلوتيب. لكن كلمة "اللامتناهٍ" فى الجملة التالية لا يمكن بلع اللسان معها أبدا بل لا بد من إثارة موضوع كتّاب القواعد الذى فى الحمام. تسألوننى: ما موضوع كتّاب القواعد الذى فى الحمام؟ وأجيبكم بأنه موضوع خاص بينى وبين زميلى الدكتور القاعود، الذى لا يطيق أن ينسى أحد أنه حاصل على الدكتورية فيهمل أن يكتب كلمة "دكتور" قبل اسمه أو على الأقل: حرف الدال أبى نقطة الذى سيصيبنى بنقطة عما قريب من هذا الصديق الذى لم يكن يوقر أحدا معه هذه الدال فلا يذكره

(فى غيابه طبعا) بهذه الدال أبدا. فإذا ما نبهتُه إلى وجوب ذكرها شمخ بأنفه قائلا: أنا حر. أما الآن فموضوع آخر، ونحن أبناء النهار ذا، ولسنا أبناء الماضى الذى ولى وضاع.

المهم أنه فى حدود علم العبد لله الغلبان أن الفعل: "كلف" فى السياق الذى ورد فيه بالصفحة السابقة على الفصل الأول مباشرة، هو فعل لازم، فلا يصح أن نقول: "كُلِفَ" فلان بالشىء الفلانى، بل "كَلِفَ به"، أى لا ينبغى وضع ضمة على الكاف حتى لا يتحول الفعل إلى مبنى للمفعول بل فتحة. أما أن ننسب إلى ابن عبد ربه الأندلسى ضم الكاف فى شعره الذى أورده المؤلف وجعله عتبة للفصل الأول للرواية فلسوف يغضب ابن عبد ربه فى قبره ويثور ثورة عامرة وينهض شاقا كفنه وهادما قبره ومطربقا الدنيا فوق رأس الأستاذ الدكتور بتاع كتاب القواعد المرمى فى الحمام. ذلك أن "كُلِفَ" معناه "عُلِفَ"، والحب لا يُعْلَف لأنه ليس بقرة أو جاموسة أو حتى خروفا يذبح، اللهم إلا إذا كانت حبيبته تعلفه لتجزر رقبته وتلتهم لحمه فى وقت الغلاء الفاحش الذى نعيشه، أو بالأحرى: نُمُوتُه. كذلك فى حدود علم العبد لله أن التنوين لا يمشى مع الألف واللام، فلا يصح أن نقول: "اللاهٍ" إلا فى كتاب القواعد المرمى فى الحمام دون أن يحظى من بعض الناس، ربنا يهديهم، ولو بنظرة حنية! إننا إما أن نقول: "متناهٍ" رفعا وجرا، و"متناهيًا" فى حالة النصب، وإما أن نقول: "اللامتناهِى" رفعا وجرا، و"اللامتناهِىَ" نصبا. وأرجو ألا أكون مخطئا يا سيبويه العصر! وعلى نفس الشاكلة لا يُقْبَل أن يقول الواحد منا: "هنا مدارس للذكور، ومدارس للإناث، ويجب أن يكونوا بعيدين عن بعضهما".

والصواب، حسبما أفهم، ولعلى لست مخطئا: "ويحب أن تكون مدارس الذكور بعيدة عن مدارس الإناث". أما عبارة الرواية فقد استعملت ضمير جماعة الذكور العقلاء للمدارس التى يعاد إليها هى وجماعة الجمادات ضمير المفردة المؤنثة. كذلك تقول الرواية: "يجب أن يكونوا بعيدين"، ثم سرعان ما استعملت ضمير المثنى للمدارس: "عن بعضهما". وكذلك لا يصح، فيما أعرف، أن يقال: "ضربوا بعضهم، ابتعدوا عن بعضهم، يتعاونون مع بعضهم"، بل يقال: "ضرب بعضهم بعضا، ابتعد بعضهم عن بعض، يتعاون بعضهم مع بعض". وهذا الاستعمال الأخير متكرر فى الرواية.

ومن الهنات اللغوية التى وقعت فى الرواية استخدام الفعل: "حشا يحشو" على أنه "حَشَى يَحْشِى" فى قول لبنى عبد الوهاب حبيبة الراوى وطبيبة طب الأسنان: "كنت أنحت سِنًّا كى أحشيها"، فالصواب هو "كى أَحْشُوَها" بالواو لا بالياء. وهى من النقاط المهمة فى علم الصرف. لكن هناك أفعالا تأتى بالياء والنون معا، ومنها "نما ينمو/ نَمَى يَنْمِى، شكا يشكو/ شَكَى يَشْكِى، نضا ينضو/ نَضَى يَنْضِى، علا يعلو/ عَلَى يَعْلِى...". و"الفعل: "أُزِحْ" فى "لم أكن أزح عينى عن عينه" قد استعمل فى غير موضعه، فقد حذفت ياؤه لغير موجب إعرابى، إذ هو ليس مجزوما بل مرفوعا، ولا بد من إعادة الياء إلى مكانها: "لم أكن أُزِيح عينى عن عينه". ومن ذلك أيضا الكلام عن اثنين فيقال عن أحدهما: "أحدهم". وهناك العبارة التالية: "أخشى من هذا العقد أكثر مِنْ لو لم يكن موجودا"، وهى تعانى شيئا من الاضطراب يمكن أن نتخلص منه لو قلنا ببساطة: "كنت أخشاه أكثر مما لو كان غير موجود". وهناك "الإقياء"، ولا أدرى

كيف ترك "القىء" أو حتى "التقايؤ" وأمسك فى "الإقياء". ألعله لسواد عيون "الإقياء"؟ لكن "الإقياء" ليس له وجود أصلا، ومن ثم ليست له عيون! وهناك الفعل: "ستدخلى"، وهو فعل مرفوع لكن الكاتب قد حذف نونه دون أدنى داع من الإعراب بل ضد الإعراب، إذ لا تحذف هذه النون إلا فى حالة النصب والجزم بينما نحن هنا أمام حالة رفع، وصحته إذن هى "ستدخلين" بإرجاع النون المحذوفة إلى موضعها.

وأحيانا ما تأتى عبارة المتحاور أقل مما ينبغى فى الشدة أو الضعف: فمثلا يقول الراوى عن لبنى حبيبته حين كانت تحكى له عن موت أبيها، الذى كانت تعبده: "وكأنما استنزلت لبنى أنينا كونيا ضاق به صدرى، واصطخبت له نفسى" ثم يتبع ذلك بقوله: "سألتها بحزن شفيف: كيف مضت هذه المحنة؟"، إذ لا يتسق "الأنين الكونى الذى يضيق به الصدر وتصطخب له النفس" مع "الحزن الشفيف".

وبالمناسبة فالرواية تستخدم أحيانا ألفاظا ومصطلحات تختلف عما لدينا فى مصر: فـ"الشام" يعنى "دمشق" مثلما أن الواحد منا فى المحروسة قد يقول: "أنا مسافر إلى مصر"، يقصد "القاهرة". وفى القاهرة حى يقال له: "مصر القديمة"، وكان المتوقع أن يقال: "القاهرة القديمة" كما نقول الآن :"القاهرة الجديدة" وليس"مصر الجديدة". وعندهم "البكالوريا" بينما هى عندنا "الثانوية العامة". ولديهم "الآذِن"، وهو فراش المدرسة أو الرسول الذى يتنقل بين قاعات الدرس ويبلغ الأوامر أو ينادى هذا أو ذاك من الطلاب والتلاميذ. وهناك "الشقيقة"، التى ندعوها نحن بـ"الصداع النصفى". ومن الألفاظ السورية فى

الرواية كلمة "باص"، التى نستخدم فى مصر بدلا منها "أوتوبيس"، وجمعها فى عامتينا هو "أوتوبيسات" بينما يجمعها السعوديون على "أتابيس"، وهو ما يجرى على العكس فى جمع "أنبوبة" إذ يجمعها المصريون على "أنابيب"، أما فى السعودية فيقولون: "أنبوبات". والسوريون يقولون: "كيفاك/ كيفيك؟"، ونحن نقول فى لغتنا اليومية: "إِزَّيّك؟". وهم يقولون: "مْنِيح" ردا على من يسألهم عن حالهم، ونحن نقول: "كويس". وهم يقولون: "لُوبِى"، والمقصود "الردهة، الدهليز". ونحن نقول:"علشان/ عشان"، وهم يقولون "مشان" بمعنًى واحد هو "من أجل، بسبب". و"المحكومية" عند إخواننا السوريين هى الحكم القضائى الصادر بحق فلان أو علان.

وهناك عدة أسطر كاملة باللهجة السورية: "يا لبنى، حاجة كلام. أنا لازم روح هُون بسوريا ما عم لاقى شغل، ولازم أسس بألمانيا مشان نعيش هُنيك بعد ما تتخرجى. طالت خطبتنا، ووصلت سنتين، ولسا ما عملنا شي.

- قل إنك بدك تشوف هايدى، قل هيك وخلص".

ومن العبارات العامية السورية أيضا قول عبد الجليل لصديقه وليد: "وليد، وِينَك؟ صَرْ لى ساعة عم أتصل فيك"، وهى بالفصحى: "وليد، أين أنت؟ منذ ساعة وأنا أحاول الاتصال بك".

ويدخل فى موضوع اللغة أن الكاتب مغرم بإثبات العبارات الأجنبية القصيرة كأسماء الشوارع وعبارات التحية مثلا: إسبانية كانت أو إنجليزية كما هى بلغتها الأصلية. والطريف أن المؤلف فى الكلمات العربية السورية التى يرى أنها قد لا تكون واضحة للقارئ العادى يشرح معناها بين قوسين بعدها مباشرة. أما

هنا فيترك العبارة الأجنبية دون شرح وكأنه وكأن القراء جميعا يعرفون تلك اللغات، فهم من ثم فى غير حاجة لمن يشرح لهم تلك العبارات. ومن هذا اسم مول غرناطة (Nevada shopping)، الذى التقى عنده فى تلك المدينة بطلا الرواية العاشقان، واسم عطر يدعى: "Eternity Men".

وقد انتهز السارد هنا السانحة التى ألفاها أمامه فذكر خروج المسلمين من الأندلس وعيَّن التاريخ الذى انتهى وجودهم فيه هناك، إذ كان بينه وبين حبيبته ميعاد يتوافق وميعاد ذلك الخروج وضياع الملك الأندلسى. قال: "فى شهر يناير تطاردنا الذكريات، نحن العرب الذين نُقِيم فى إسبانيا، وتحديدًا مَنْ يسكنون غرناطة. ٢ يناير ١٤٩٢ أحد أسوأ الأيام فى تاريخ الأمة، وكأنَّ كل ما نُعانيه حاليًّا يرتبط بهذا اليوم ارتباطًا وثيقًا. فى "جنة العريف" حيث الطرقات اللزبة المرصوفة بأجمل الذكريات منذ القرن الثالث عشر الميلادى كانت تمشى بجوارى لبنى، تُلْقِى بنظرها صوب البساتين المورقة بالأشجار والزهور، وترفع كلتا يديها فى الهواء لتلامس زخات المطر الخجولة فى هذا اليوم الغائم الذى يثير الأحزان.

نمشى بخطوات متثاقلة، وفى طريقنا نجد السياح من جميع الجنسيات شبابًا وشيبًا وأطفالًا تتجاذبنا الأفكار والخواطر، وتترك فى النفس مرارة وذهولًا وحسرة على هذا "المُلْك" الذى ضاع منا! والواقع أنَّ لبنى كانت أسيرة ما يختلجها من ذكريات، بينا أنا لدى تأهبٍ غامض وحنين لخيالات أَعُدُّها ملموسة تُشَكِّل واقعنا. وَلَجْنَا إلى الردهة الطويلة التى تفضى فى انتهاء المقام إلى قصر الحمراء، تخيلتُنى أحد ملوك غرناطة، ولبنى زوجة الملك! جُلْتُ ببصرى فى

أنحاء القصر المهيب: الصحن، والغرف، والفِنَاء الذى يشع بهجة، وتنساب قبالته جداول المياه، انثالت الخواطر العِذَاب، هزت كتفى بيدها هزةً فشعرتُ منها بخفقان قلبها وجسدها المرتجف:

- ماذا حدث؟ لبنى، هل أنتِ بخير؟

- أريد أن نجلس فى مكان بعيد عن الناس. هيَّا نخرج.

سرنا فى أرجاء المدينة على غير هدى، قطع صوتُها الصمتَ الكئيب:

كنتُ فى البكالوريا أو الثانوية العامة، كما تسمونها عندكم فى مصر. فى أول السنة الدراسية كنت من أشطر طالبات المدرسة، وأقول: "طالبات" لأننا وقتها قد بعنا منزلنا فى دمشق، واشترينا منزلًا كبيرًا فى دوما، التى تبعد ١٥ كم عن الشام، وفى ريف دمشق تختلف طبائع البشر، وتختلف الثقافات، وما من مدارس مختلطة كما فى الشام، بل هنا مدارس للذكور ومدارس للإناث، ويجب أن يكونوا بعيدين عن بعضهما كيلا يحصل اختلاطٌ فى الشارع حتى بين الذكور والإناث".

وكنت أحب لو أنه انتهز بدوره هذه الإشارة ودمج ذلك الخروج الذليل المهين بأحداث روايته وربما أيضا بحب ولادة بنت المستكفى والوزير العاشق العبقرى ابن زيدون الذى استشهد ببعض شعره فى بداية أحد فصول روايته المتميزة وأخرج لنا عملا يجمع بين الماضى والحاضر بدلا من هذه الإيماءة العارضة إلى خروج الأجداد من الجنة ثم نسيان الأمر كله كأن لم يكن، وهو ما لا يقبل منه هو بالذات، وهو الشاب الذى يحترق حزنا وكمدا على حال المسلمين اليوم وبالأمس حيث يلقون الهوان والذله ويجللهم العار والشنار أينما

اتجهوا وأنى فعلوا، وهو نموذج لا نجده كثيرا بين كتاب هذه الأيام النحسات، أيام التبلد وموتان القلب وجمود النخوة بين المسلمين، وعلى رأسهم من يُسَمَّوْن بـ"النخبة"، تلك التسمية ذات الدلالة الدقيقة، إذ هم منخوبون ومثقوبون فى كل شبر من أجسادهم وأرواحهم وليس عندهم دم ولا رجولة. أقول ما قلت عن الإيماءة السريعة عن ضياع جنة الأندلس لأن الرواية، كما يعرف أكثر منا عمنا الأستاذ الدكتور حنف الورد، ليست مكانا يلقى فيه الإنسان بكل ما يقابله أو يتذكره أو يتمناه ما دام لا يؤدى وظيفة فنية فيها. وأستاذنا الدكتور بارع فى كتابة القصص، وكان يمكنه ذلك، ولكنه للأسف لم يتنبه للفرصة الجميلة التى أتته إلى باب الدار برجلها، إلا أنه لم يأخذ باله منها وتركها تمضى دون أن يجعل منها عنصرا أصيلا من عناصر روايته التى أَحَبَّها كل من قرأها حسبما سمعت ورأيت ولمست وشممت وعلمت.

والغريب أن الراوى بطل القصة يكرر خلال سرده ووصفه أن لبنى من أنقى من قابل فى حياته من النساء رغم أنها قد حكت له ما يفهم منه أنها مندفعة ترمى نفسها على أى رجل يبتسم لها أو يعجبها شكله حتى لو كان نصرانيا أو نصيريا أو أميا وهى طالبة الطب، ومن أسرة ميسورة. كما أنها تكذب وتبدى شيئا أمام الناس وتخفى عكسه تماما، وتمارس الزواج بشخص وتضحك على الآخر موهمة إياه أنها تعد الأيام والليالى على زواجها به لتتخلص منه. وعلاوة على ذلك فإنها قادرة على أن تحيّد قلبها فى سبيل الفوز بزوج يكبرها كثيرا لا لشىء سوى أنه غنى وسوف يقدم لها مهرا ضخما ويشترى لها كل ما تريد. فأين النقاء والصفاء فيها إذن؟ وأغرب من ذلك أن راوى القصة

قد علم ذلك بنفسه منها وهو يعشقها وينوى الاقتران بها. عجائب! لكن يمكن تفهم هذا الموقف بأنه كان يعشقها عشقا كاسحا لا عقل فيه ولا مكان للتفكير فى تركها مهما يكن ما فعلته قبل لقائهما. وأعجب من ذلك وأغرب أن تكون قد عرفت قبله رجالا متعددين تزوجت اثنين منهم، وكانت على علاقة بآخر بغير زواج، وهو الشاب النصرانى، الذى أراد أن يتزوجها لتكتشف فجأة أنه نصرانى، وحين تسأله يكون رده أنه كان يحسبها تعرف ذلك. المرة الوحيدة الذى اهتاج فيها كانت وهى تقص عليه بطلب منه كيف كانت حياتها مع ابن خالة بنت خالها، الأمى الذى كان متزوجا من ألمانية ثم طلقها وتزوجا رغم أنف الأهلين. وغريب أن يكون هذا الشاب ابن خالة بنت خالتها، وأمه داغستانية، وأبوه شيشانى. فهل كانت أمها داغستانية؟ لا يوجد فى الرواية شىء عن هذه النقطة على أهميتها. وغريب أن تجهل هى هذا عن هذا الشاب "عبد الحميد"، وهو ابن خالة بنت خالها؟ وهنا ملاحظة لا أحب تفويتها، وهى أن عبد الحميد، لما ذهب للكشف على أسنانه فى عيادة د. زياد التى تعمل فيها لبنى مساعدة له، كان معه قط كبير أسود أخذ يتقافز هنا وهناك حتى طرده صاحب العيادة. فهل يعقل أن يصطحب رجل معه إلى العيادة قطا مثيرا للشغب ويتقافز تقافزا من شأنه تحطيم الآلات والأدوات والزجاج وكل ما هو قابل للكسر؟ ولماذا النص على كبر حجمه ولونه؟ وما دلالة هذا ما دام سوف يختفى من المشهد ولن يظهر بعد ذلك أبدا؟

ومن الأشياء الغريبة فى الرواية أيضا أن تحمل البطلة (الطبيبة) من عبد الحميد، الذى تزوجته عرفيا فى فترة الخِطْبة على غير علم أهليهما لحين الانتهاء

من التجهيز للزواج العلنى، ثم تخبر عمر أنها بوغتت بهذا الحمل. ترى كيف فاتها أن تتخذ احتياطاتها حتى لا تحمل من عبد الحميد قبل أن يتم الزواج العلنى بينهما؟ الغريب أنها تخبر عمر بأنها كطبيبة تعرف أن تخلف الدورة الشهرية لشهرين معناه أنها حامل. فما دمت يا ست لبنى تعرفين ذلك فكيف لم تتصرفى بناء عليه تجنبا لوجعِ الدماغ والفضائح؟ ونقطة أخرى: كيف يكون عبد الحميد من الإخوان المطارَدين من النظام السورى، الذى تصادف انهياره وسقوطه أثناء كتابتى هذه الدراسة، والذى نرجو ألا يكون سقوطه بابا إلى ما حدث فيما يسمى: "بلاد الربيع العربى" من انتشار الفوضى أولا ثم ظهور المخلص المستبد المجرم الذى أعده الاستعمار على عينه فى ظلمات المؤامرة الشيطانية ليتولى زمام الأمور برغبة قطاعات هائلة من الشعب يصحبها الرقص والغناء والأناشيد ليفيق الشعب المغيب بعد فوات الأوان على كارثة لا يمكنه تحملها ولا الوقوف فى وجهها فضلا عن الثورة عليها وعلى المجرمين الذين كانوا أدوات فى يد الاستعمار الغربى المجرم فى سبيل تحقيقها وإتعاس الشعوب وإعاشتها طوال الوقت فى معاناة وعذاب بحيث لا تلتفت لمشاكلها وتعمل عقلها فى محاولة حلها ومعرفة من يقفون خلفها ويعملون على ترسيخها، نعم كيف يكون عبد الحميد من الإخوان المطارَدين من النظام السورى والمطلوب القبض عليهم من قِبَل الحكومة الطائفية النصيرية التى لا ترعى فى الشعب إِلًّا ولا ذمة، ويكون آمنا يتمتع بستر الله فى ألمانيا بعيدا بعد المشرقين عن موطن الخطر القاتل، سورية، ثم يعود إلى هناك حيث ينتظر أمثاله الاعتقال الفورى عند الوصول إلى أى مطار أو ميناء سورى والترحيل إلى السجن وما فى السجن من تعذيب

وآلام تفوق طاقة البشر؟ والطريف أنه كان يتنقل بين سوريا وألمانيا طوال الوقت "ويأكل كبدة وكفتة باطمئنان ويقرأ الفاتحة للسلطان" دون أن يتعرض له أحد ولو بشطر كلمة، بيد أنه حين تطلب منه زوجته أن يبقى معها بسوريا يتحجج بحجة الرعب من النظام أن يقبض عليه ويودعه المعتقل ويذيقه ألوان التعذيب الإجرامى الذى لا يعرف هوادة ولا توقفا، فترميه بانعدام الرجولة ولكن بغير أن تناقشه فى هذا التناقض. بالله كيف يمكن التوفيق بين هاتيك المتناقضات؟

والآن مع طريقة السرد. وهى طريقة تبدو لى جديدة. فالطرائق التى نعرفها فى إيراد حوادث الروايات وأشخاصها وأماكنها وأزمانها إما يقوم بها أحد أبطال الرواية وإما يقوم بها الراوى العليم بكل شىء. كذلك هناك السرد من خلال المذكرات التى يسجلها صاحبها تباعا حسبما تتهيأ له ظروف الكتابة أو من خلال يوميات يكتبها كل يوم أو من خلال عدة أشخاص فى القصة يرويها كل منهم كاملة واحدا بعد الآخر من زاويته التى تختلف عن زوايا نظر الآخرين ومن ثم تختلف الرؤية والملاحظات والأحكام والمواقف التى يتخذها تجاه من يتعامل معهم... إلخ. و"ميرامار" نجيب محفوظ هى أشهر رواية سُرِدَتْ بهذه الطريقة الأخيرة، إذ روى كل واحد من أبطالها ما جرى فيها من حوادث ووَصَف شخصياتها من وجهة نظره، فجاء الحكم على كل ذلك مختلفا فى كل حالة عنه فى الحالات الأخرى، وهو ما يسمى بـ"نسبية الحقيقة".

أما مؤلفنا الأستاذ الدكتور ابن الأستاذ الدكتور فقد انتهج نهجا يختلف عن هذا كله. نعم لقد روى قصته على لسان أحد أبطالها، لكنه لم يروها من

عند نفسه بل عبر لبنى حبيبته. وكان يسألها عما يريد أن يعرفه عنها وعن حياتها وتجاربها وأسرارها وأسرتها وأحبائها وأزواجها وصديقتها بنت خالتها التى تشاركها أسرار قلبها ومشاعرها وتشير عليها بما ترى أنه الصواب حين تستشيرها لبنى، فتجيب لبنى عمر عما يريد معرفته بكل أريحية لا تخفى منه شيئا ولا تستحى من ذكر أى شىء بالغا ما بلغت حساسيته. وهذا يذكّرنا بشهرزاد، التى كانت تروى على شهريار فى كل ليلة حلقة من قصصها حتى تشغله عن قتلها. فلبنى هنا تناظر شهرزاد فى "ألف ليلة وليلة"، لكن لا خوف على لبنى من عمر، فهو يحبها ابتداء لا كشهريار، الذى انتهى إلى أن يحب شهرزاد فى خاتمة المطاف.

وهنا أجدنى مستغربا أسئلة عمر للبنى، إذ بدا وكأنه مغرم بمعرفة ما من شأنه أن يؤلمه من أخبار ماضيها وعلاقاتها الغرامية وزيجاتها العجيبة. وأغرب من ذلك أن نلفى لبنى جاهزة للإدلاء بكل ما يريده منها حبيبها الشاب دون تحرج من ذكر أى شىء مهما كان مؤلما لمن يسمع أو مخجلا للمرأة التى تحكيه. وأغرب وأغرب أن عمر لا يبدو عليه الانزعاج من أى شىء تقوله لبنى، وكل ما تقوله عن حبها وزواجها مزعج ويدل على أنها فتاة فامرأة لا يُطْمَأَنُّ إليها، وهو ما كان ينبغى أن يخيف عمر، لكننا نفاجأ به، ويا للأسف، متماسك الأعصاب مطمئن العقل والقلب إلى لبنى بعد سماعه منها كل ما من شأنه إزعاجه وتكدير خاطره وتنفيره منها وصرفه عنها. لكن ماذا نقول فى بعض المحبين، وللحب عليهم سلطان قاهر وسحر وفتنة تبرجل عقولهم وتيسر عليهم قبول ما لا يقبله الآخرون ممن لم تبرجَل لهم عقول؟ ولكنى حين أستحضر ما كان

صديق الراوى يفعله من وضع عشر ملاعق سكر على أى مشروب يتناوله أو كيس ملح كامل على أى طعام يطبخه لا أجد فى موقفه مما تحكيه له لبنى ولا من وصفه لها بأنها من أنقى من عرف وأكثرهم صفاء، لا أجد فى شيء من هذا غرابة! وكانت لبنى إما تجيب حبيبها الشاب شفاها أو كتابة.

وهذا مثال على خلق لبنى، التى يصفها الراوى بأنها من أنقى خلق الله وأصفاهم طبعا وتصف هى نفسها بأنها شديدة التدين والتحرج رغم عدم التزامها بما يسمى: "الحجاب": "إذن هو صديق عبد الجليل، يا نجلى! ماذا سيقول عنى وقد رآنى قد أطلت النظر إليه؟ فاقترب من عبد الجليل، وعلل أسباب غيابه، فقال له عبد الجليل: "تعال عرفك على زوجتى لبنى. الدكتورة لبنى". فمد يده وصافحنى، وقال جملته الشهيرة التى أعيدها فى كل مناسبة: "هو واحد من احتمالين لا ثالث لهما: إما نحن الديرية ارتفع مستوانا جدًّا أو أن الشوام تواضعوا جدًّا".

ضحكت كعادتى ضحكتى الرنانة التى تلفت كل الأنظار، فسلم علىّ وغادر، غادر ولكنه ترك شيئًا فى ذاكرتى وفى روحى لم أفهم معناه إلَّا مع بداية الربيع العربى أواخر عام ٢٠١٠م. كان عبد الجليل، الأقوى ماديًّا وثقافيًّا بين كل أصدقائه، وكان الجميع يتمنَّوْن التواصل معه. كان يملك أربعة بيوت فى مدينة مالقة، وفيلا طابقين فى غرناطة مع مسبح كبير وثلاثمائة شجرة فواكه منوعة. صرت أتردد كثيرًا على غرناطة مع زوجى، ودون شعور أطلب منه أن يعزم صديقه وليدًا على الفيلا ليحضر حفلة الشواء أو الباربكيو. كنتُ أفكر فيه

بصمت، وبصراحة أكثر حلمت به أكثر من مرة، كان يبادلنى النظرات المسروقة، ولكن بصمت. لا شيء سوى الصمت.

وفى يوم من الأيام كنت فى زيارة إلى دمشق، وإذا بى أراه بمقابلة صحفية على قناة فضائية. صرخت بأعلى صوتى: هذا وليد صديق زوجى، أنا أحبه كثيرًا. فأخرستنى خالتى، وقالت: شششش. أخفضى صوتكِ. لا تذكرى اسمه. صَمَتُّ، ولكننى لم أفهم القصة إلَّا بعد أن وصلتُ إسبانيا، وحكى لى عبد الجليل كل شيء. وبعد عدة شهور حُوكِمَ وليد فى إسبانيا بسبب انتمائه لتيار إسلامى متشدد كما قيل وقتها.

غاب عنى سنوات طويلة، ولكنى كنت أرافق عبد الجليل عندما كان يذهب إلى منزله ليطمئن عليه فى الإقامة الجبرية، فلم تكن زوجته معه طوال فترة حكمه، كان وحيدًا ومريضًا يُعَانِى فى السرير بين الجلطة القلبية وبين عملية الديسك فى ظهره. داهمته الشيخوخة المبكرة بفعل هذه القضية، بدت علامات الضعف عليه فى هذه السنوات، لكن نظرته وبريق عينيه لم يتغير قط.

كان يطلب منى أن أصنع لهما القهوة فى منزله، وكنت ألمح بريقًا فى عينيه، كان يحكى لى حكايات منها: قومى يا سيدة هذا المنزل، يا ليتكِ كنتِ أنتِ سيدة هذا المنزل، أريدكِ أن تحضّرى لى القهوة، وأراكِ تتحركين فى أرجاء هذا المكان. لم يكن بيننا إلا البوح الصامت، فقط العيون هى التى كانت تتكلم. ومضت السنون إلى أن جاءت سنة ٢٠١٠، وفى يوم من الأيام قال لى عبد الجليل: هيَّا بنا لنذهب إلى غرناطة، سوف نُلَبِّى دعوة وليد على مطعم للعَشَاء احتفالًا بانتهاء محكوميّته. فى كل مرة يُذْكَر اسم وليد على مسمعى يخفق قلبى.

لبست أجمل فساتينى، وتعطرت بأجمل عطورى، وانتعلت حذاء أحمر بكعب رفيع جعل من خطواتى أشبه بالرقص، ووضعت الروج الأحمر على شفاهى لأبرز انتفاخهم وجمالهم، وجعلتُ شعرى ينسدل على كتفى بشكل فوضوى ليغطى بضعة أجزاء من ظهرى وكتفى العاريتيْن. تعمَّدتُّ أن يكون هذا اليوم يومًا للبوح، سأجعله يخرج عن صمته غصبًا عنه، لن يستطيع أن يقف صامتًا أمام كل هذا الجمال والإغراء من امرأة بات حبُّها له مكشوفًا. كان ينتظرنا فى المطعم عندما دخلت عليه وكُلِّى انتباه لبريق عينيه، الذى كنت أهيم به. شعرتُ بنصر كبير أمام ارتباكه، إذ كاد يسقط عندما تعلقت قدمه فى الكرسى وهو يهم بمصافحتي.أطلقت ضحكة عالية، وتركت عينىّ تخاطبانه. اليوم لن أدعك حتى تعترف بما خبأته عنى سنوات. الليلة جاذبيته تكاد تقتلنى، أشعر بحب كبير يجرفنى، بل أشعر بأكثر من ذلك. أريد أن يلامسني.

تناولنا العشاء، واقترح ألا نعود إلى البيت، بل أن نذهب لنشرب شيئًا باردًا فى مكان آخر. يحاول إفهامى بأنه يشتعل، وأن النار بدأت تحرقه. قصدت أن أسير فى المنتصف بين زوجى وبينه، فكان ما أردت. لامست يده يدى ثم أمسكها، وضغط عليها بقبضته حتى كدت أصرخ، فأغمضت عينى، وسلمت نفسى للتحليق فى عالم الحب والخيال. أنا أحب. أنا أشعر بالحب الحقيقى، وليس بالحب سابق الدفع. عشر سنوات مرت على زواجى، لم ينبض قلبى، ولم يرتعش جسدى حتى هذا اليوم. قبضتُه على يدى جعلت كل جسدى بحالة استنفار. جعلتنى بحالة تحليق روحى وحرارة تكاد تلهب جسدي.

مرَّ الوقت سريعًا، واقترح زوجى أن نعود إلى الفيلا، وبدأ ينظر إلى بعين شبقة، فبعد بضع دقائق سينال فريسته، ويستهلك هذا الجسد مرة أخرى غير عابئ بالمكان الذى تحلق به روحى فى الطرف الآخر من غرناطة. وانتهت عملية الافتراس أحادى الجانب كالعادة، وحصد هو وحده كالعادة الجمال الذى كان يتمناه كل الرجال، وفى كل مرة يشعر بالتفوق أكثر وأكثر، ويظهرنى لأصدقائه كى يكتووا بالنار، ويكون هو وحده قاطف الثمار. انتهت مأساتى بزمن قياسى هذه المرة لأنَّ الإثارة يبدو أنَّها كانت عالية جدًّا. وبكل الأحوال كانت عملية الافتراس لا تتجاوز الدقيقتين. غطيت جسدى العارى، واستدرت للطرف الآخر من السرير كيلا أراه أبدًا، فأنا أريد أن أرى وجه حبيبى فى الظلام وأتخيله معى. فى الصباح التالى كان وليد ينتظرنا لتناول الفَطُور معنا. وهكذا استمرت اللقاءات أيامًا وأيامًا، ثم بدأت الثورة السورية، واقتربنا من بعض أكثر فى المظاهرات التى ننظمها للتنديد بنظام الديكتاتور بشار الأسد، الذى يقتل النساء والأطفال والشيوخ بالبراميل المتفجرة، ويحرق المعتقلين وهم أحياء، وينشرهم بالمناشير، ويثقب أجسادهم بالشنيور، ويقصف الشعب بالسلاح الكيميائى وغاز السارين المحرَّم، وكأنه يستنسخ حرفيًّا جرائم محاكم التفتيش ضد المسلمين فى الأندلس، ولأول مرة أعطانى وليد رقم الإسكايب كى نتفق على أماكن التجمع. الإسكايب، هذا البرنامج السحرى، كان المفتاح الذى وطد العلاقة بينى وبينه، وجعلها تخرج من قلوبنا إلى شفاهنا، واعترف كلٌّ منا للآخر، وكتب لى: أُحبكِ. أربعة أحرف نقلتنى

من عالمى إلى عالم آخر، ولكننى كنت أكثر جرأة منه، فلم أكتبها له كتابة، بل أسمعته إياها بصوتى المتهدج، وقلت له: أحبك.

فى تلك الفترة ازدادت خلافاتى كثيرًا مع عبد الجليل، وبدأت أفكر فى الطلاق، فلم أعد أحتمل التهامه لى يوميًّا مع ضعفه الجنسى ونفورى منه، وأنا أذوب عشقًا فى رجل آخر. وفى إحدى الليالى من عام ٢٠١١ اتصل بى وليد، وقال لى: أشعر برغبة عارمة فى رؤيتكِ. قلت له: الآن؟! نحن فى منتصف الليل. فقال لى الآن. نعم، الآن. شعرتُ برهبة مِنْ نبرة صوته، وركب هذا المجنون سيارته، وجاء إلى بيتنا فى مالقة، وقف أسفل العقار، ولكنه لم يسمح لى بالنزول، رجوته أن يسمح لى أن أنزل لأراه، ولكنه نعتنى بالمتهورة، وقال إنَّ هذا سيجلب علينا السمعة السيئة بين العرب فى إسبانيا، وكان فى حالة شديدة من الغضب والأسى والمشاعر المختلطة. قال لى: أحبكِ. ولكنكِ زوجة صديقى. يا ليتك لم تكونى زوجة أعز صديق لى. أنتِ زوجة مَنْ استقبلنى فى إسبانيا، أنتِ زوجة رفيق الشباب، أنتِ زوجة مَنْ كان يدعمنى ماديًّا ومعنويًّا، أنتِ زوجة مَنْ وقف إلى جانبى فى سجنى، أنتِ زوجة الرجل الوحيد دونًا عن كل مَنْ زعموا أنهم أصدقائى الذى تحدى الشرطة الإسبانية، وتحدى قوانينهم الجائرة، وسافر إلى مدريد سبع ساعات فى السيارة كى يحضر محاكمتى، ويمنحنى الدعم النفسى. أنتِ... وأنتِ... وأنتِ... يحدثنى مِن الشارع أسفل البيت، ويمنعنى أن أنزل لأراه.

- لماذا جئت فى هذا الليل إن كنت لا تريد رؤيتى؟
- جئتُ لِأُوَدِّعكِ!

مع هذه العبارة مرَّ فى خيالى شريط ذكرياتى معه فى هذه السنة التى مضت. جئتَ لِتُوَدِّعنى؟ يا للمفارقة! مَن سيطبخ لك الكوسة المحشية التى كنت تقول لى عنها ممتدحًا: طبخكِ يحتاج إلى طقوس خاصة فى طريقة أكله. كنت تضحك، وتقول لى مع تسخين كل حبة كوسة: كان قلبى يلتهب لأنكِ تمسكينها بيدكِ. لمن سأشكو همى بعد اليوم؟ مع مَنْ سأجوب شوارع غرناطة؟ لمن سألبس أجمل ثيابى؟ جئتَ تودعنى؟ ألن تشتاق لكأس الشاى الذى كنت تشاركنى به، وتتعمد الشرب من المكان الذى لامس شفاهى؟ مِن أى كأس ستشرب بعد اليوم؟ ولمن ستقول بعد كل جرعة: الله! لا أدرى لماذا هذا الشاى هو أطيب شاى تذوقته فى حياتى؟ مَنْ سيهدّئ ارتجاف قدمى تحت الطاولة بعد اليوم؟ أودعك، ولكن كيف لى أن أودع البريق فى عينيك؟

جئت تودعنى؟! حسنًا دعنى أنزل لأراك للمرة الأخيرة، وأودعك بحق. أيها الظالم، أيها المستبد، جئت من مدينة أخرى ليلًا لتودعنى بلا وداع، بلا عناق، بلا قُبَل؟ لم أكن أعلم أن ذاك اليوم كان آخر يوم بيننا، والفصل الأخير من قصتى مع وليد. لم أكن أعلم أن طائرته ستهبط فى الكويت. فى اليوم التالى كنت أشك بأننى لن أسمع صوته بعدها، ولكن صدق عندما قال لى: سيكون وداعًا بلا عودة. صدق عندما قال لى بأنه لن يقوى على زيارة غرناطة بعد اليوم، ولن يحتمل ذكرياتنا فيها. صدق وعده، وغادر بلا عودة".

الله يخرب بيت النقاء إذا كان هذا هو النقاء، ودعنا من غياب عقل الشاب المحب المهووس بتلك النقية المتدينة الصريحة التى لا تخرج من مصيبة من صنع يديها حتى توقع نفسها فى مصيبة أفظع ثم تحاول طمأنتنا بأنها رغم

كل هذا متدينة مستقيمة لا تعرف اللف والدوران ولا تعرف العيبة أبدا. طبعا، والدليل على صدق ما نقول هو هذا الذى حكته لنا عقب النص الماضى مباشرة. قالت:

"١٩ فبراير ٢٠١٩م، اليوم نفسه الذى تعرفنا فيه منذ سنوات، طوال رحلتنا من غرناطة إلى قرطبة ظللنا صامتين على مدار ساعتين، اللهم إلّا بعض العبارات البسيطة،. شىء ما يمنعنا من الحديث هذه المرة، ربما هى كارليتا ابنة لبنى، الطفلة الصغيرة ذات السبع سنوات التى كانت معنا. ليس من اللائق أن تسمعنا نتحدث فى أمور تخصنا، أو تخص والدها.

فى جامع قرطبة، الذى بناه عبد الرحمن الداخل، وتم تحويله إلى كاتدرائية تحت ضغط الإرهاب الصليبى خلال حروب الكاثوليك لاستئصال المسلمين من الأندلس، كانت كارليتا تلهو وتلعب وسط أشجار الليمون التى تتوزع فى حرم الجامع الكبير مترامى الآفاق، وكنا أنا ولبنى نراقبها من مسافة غير بعيدة، قلتُ للبنى: لماذا رغم كراهيتك لعبد الجليل كان إصراركِ على الإنجاب منه بعد ابنتكِ مايا؟ العقل يقول إنَّه كلما زاد عدد الأولاد كان الطلاق أكثر صعوبة.

على حين غرة اغرورقت عيناها بالدموع، قالت بأسى:

- كنت صادقة معك فى كل شىء، وسأجيبك وأكشف لك خبيئة نفسى، فقد كنتُ أبحث عن حمل ثانٍ منذ عام ٢٠٠٦، ولكن بلا جدوى. ذهبت إلى عدة أطباء فى إسبانيا وفى سوريا، وكانت نتيجة جميع تحاليلى تشير إلى أنى سليمة تمامًا، وما من أى عائق يقف أمام الحمل، وعليه فالعائق عند

عبد الجليل الذى كان يرفض، وبشكل قاطع، أن يفحص نفسه عند أى طبيب، ويغلق أى فرصة للكلام فى هذا الموضوع. كانت رغبتى شديدة بالأمومة، بالإضافة إلى أسباب تتعلق بأمور الميراث، فقد كان عبد الجليل له ولدان من زوجته الأولى، والقانون الإسبانى يوزع الميراث بالتساوى بين الأبناء، فكان لا بد أن يكون عندى ولدان كى يكون التقسيم عادلًا. وبعد انتهاء علاقتى العاطفية مع وليد عام ٢٠١١ صرت أشد إصرارًا على الإنجاب مرة ثانية، وفكرت أنى بذلك قد أنسى الألم الذى سببه لى غيابه، وأن الإنجاب هو الطريقة الوحيدة التى ستغير مجرى حياتى لأستطيع مواصلة العيش مع عبد الجليل رغم ابتداء تلاشى العلاقة الحميمية بينى وبينه. أستطيع أن أقول لك إنَّ نهاية عام ٢٠١١ كانت علاقتنا الجنسية شبه مختفية تمامًا، فقد تعرض لجلطتين فى القلب أثرتا كثيرًا على قدرته الجنسية، وكان لا بد من إنجاب طفل جديد يملأ حياتى، ويجعلنى أتغاضى عن الأمور الجنسية. راسلتُ أكبر مركز طبى للإنجاب، وكشفت عنده، وكانت التحاليل كلها طبيعية مائة بالمائة، كنتُ حينها فى الخامسة والثلاثين من عمرى، ولكن المشكلة كانت فى إقناع عبد الجليل أن يجرى التحاليل المطلوبة منه لتحديد السبب فى العقم. وكالعادة كان الرفض القاطع مِنْ قِبَلِهِ، والسبب هو بقايا العقلية الشرقية التى كان يحملها معه، وبأن مثل هذه التحاليل تعرض رجولته للامتهان.

هددته، وكنتُ جادة، بأنه إن لم يقبل بالتحاليل سأرجع إلى سوريا بلا رجعة. اقتنع وعمل الاختبار، وكانت النتيجة مأساوية، فقد فَقَدَ القدرة على الإنجاب بالوسائل الطبيعية، ولا مجال إلَّا الحقْن بالأنابيب. إلّا أنه رفض ذلك

بشدة رغم قراءته نتيجة التحليل، لكن أنانيته كانت تمنعه من الإنجاب بطريقة الحقن، ناهيك عن أنه لم يكن يرغب بطفل رابع، فما كان منى إلَّا أن هددته بأننى سأحقن نطفة من بنك النطاف. وتلك الفكرة كان صاحبها طبيبى المشرف خوسيه، الذى نشب صراع عنيف بينه وبين عبد الجليل فيما بعد. أجل هددته وهو يعلم أننى لن أتوانى عن حقن نطفة من شخص مجهول فى سبيل أن أحصل على طفل ينسينى همومى، وينسينى عجزه الجنسى. وكان لهذا التهديد وقعه عليه فرضخ، وعملنا الحقن، وحملت. لم أكن أعلم أنها أنثى، ولما علمت كنتُ أريد تسمية الطفلة: "سوريا"، فقد جاءت فى الثورة السورية، لكنه رفض بشدة فأسميتها: كارليتا. وجاءت كارليتا إلى الدنيا، وكانت تنام فى سريرنا، سرير الزوجية الذى كُنْتُ أسميه سخرية: سرير الأخوية".

واضح من هذين النصين أن لبنى، كما تصورها لنا الرواية وليست لبنى الواقع، فلسنا عن لبنى هذه نتكلم بل عن لبنى الرواية التى صورها لنا قلم المؤلف، واضح أنها شيطانة رجيمة لئيمة لا تعرف شيئا اسمه الحياء ولا الإنسانية، ناهيك عن التدين التى تدعى كذبا وزورا التمسك به ومراعاة قيمه. والبرهان القاطع على حبها للدين وحرصها على التمسك به هو النص التالى الذى تتحدث فيه عن أخيها المتدين جمال. وأنا، حين أسوق حديثها عن جمال، لا أدافع عنه وعن أسلوبه فى فهم الدين وممارسته بل أريد إلى كشف حقيقة تلك الشيطانة التى لا ترى فى أى عمل تأتيه أى خطإ مهما تكن الكوارث التى نجمت عنه. تقول الشيطانة الكذابة المراوغة التى أوتيت تمرد إبليس وتحجر قلبه وبراعته فى المحاجة دفاعا عن الحرام:

"أكتب لك اليوم عن أخى جمال. حنون جدًّا جدًّا جدًّا، ولكنه سلبى فى مواجهة الأحداث والمشكلات الطارئة. جمال هو الوحيد المتدين فى عائلتنا، ولعل صدامى المستمر معه هو السبب فى ضعف علاقتنا، فاختلاف الآراء واختلاف العقلية وطريقتى المتحررة لم تكن تعجبه قط، ولكن إسماعيل دائمًا ما كان يحجّمه، ويضعه فى مكانه الصحيح، ويمنعه من أن يتدخل فى حياتى، ويقول له: مارس أفكارك على زوجتك فقط، ولكن لبنى لا دخل لأحد فى العالم بها وبحياتها.

تزوج جمال من امرأة محجبة، وخرج من منزلنا ليرتاح فى منزله الذى تمارس فيه كل العبادات فروضًا وسنة. شرفته مغطاة بشادر سميك كيلا يتلصص أحد على عرضه... إلى آخره من قصص المتدينين. وما زال إلى يومنا هذا لا يتوقف عن التحدث معى بأن أغير أفكارى، ويقول لى إن بداخلى بذرة مسلمة مؤمنة، ولكن فوق عينى غشاوة لا أقبل أن أزيحها. وفى كل مرة أجتمع به يقول لى: صلى واقرئى القرآن الكريم، ويُعيد الكلام نفسه بدون ملل.

هو اليوم يعمل فى محل مستأجر يبيع فيه مواد غذائية عربية وكذلك شرقية. لا يشعر بالسعادة، ولكن إيمانه الراسخ يجعله يعتبر الدنيا مرحلة مؤقتة، وليس من المهم أن تكون السعادة فيها، بل المهم هو السعادة فى الآخرة، وأنه يجب على الناس أن يعملوا للآخرة وليس للدنيا. وهو راضٍ جدًّا لا يعترض على حكم الله، ولا يعترض على ما أصابه. يشكر الله باستمرار ممتنًّا حتى

أنه عندما تحول إلى لاجئ يشكر الله لأنه ليس هو وأبناؤه فى عداد الموتى. ويرى أن كل المصائب التى حلت على رأسه ابتلاء".

وواضح مدى التهكم والسخر فى حديثها عن جمال. ولست أقول إن طريقة جمال فى فهم الإسلام وتطبيقه طريقة صحيحة، لكنْ لا يمكن المماراة فى أن لبنى نافرة من الدين كله أصلا وفصلا. إنها شيطانة! والكارثة أن عمو عمر بطل القصة يموت فى غرامها ويراها واحدة من أنقى من عرف! خيبك الله يا سى عمر! واضح أن عشقك لها جعل عقلك ترللى!

وقد تألمت وأنا أقرأ كلامها عن أختها إيمان، التى لم تكمل تعليمها وظلت نقية باعتراف هذه الشيطانة وتزوجت مبكرة من زوج ريفى تعيش معه فى قريته وتصفه الشيطانة بأنه رجعى متخلف. وهذه الرجعية وهذا التخلف هو ما دفع أباها إلى تطليق إيمان منه، فكان أن ظلت تلتقيه من وراء ظهر أسرتها حتى عادت المياه بينهما إلى مجاريها لكن بعقد زواج جديد وتحملت جلافته وقسوته وضربه لها حتى تعيش. لكن ماذا كان موقف الشيطانة من أختها حين كانت تلتقى بمطلقها؟ لقد سارعت فأفشت سرها لأبيهما، فما كان منه إلا أن صفع المسكينة قلما على وجهها ظل نادما بسببه إلى آخر عمره، ولم يكتب عليه الله الموت إلا بعدما تأسف لها على ما حدث، وهو ما أُوشِك أن أبكى بسببه لها الآن. والآن أليست لبنى شيطانة حين أَزَّتْ أباها على صفع أختها التى تقر هى نفسها أنها حنونة مسالمة لا تفكر فى إيذاء نملة، فى الوقت الذى كانت هى تسوى الهوايل وتجترح الكوارث، كل كارثة فى ذيل سابقتها؟

وبعد، فما دمنا فى أمر لبنى وشخصيتها وتصرفاتها ومواقفها وأفكارها نحب أن نتريث قليلا لدن كلامها عن أبيها وشدة تعلقها به، إذ قد يقفز، بل قفز فعلا، بعضنا، جريا وراء تحليلات علماء النفس الغربيين، إلى القول بأن هذا دليل على صدق ما يقولونه من أن لبنى كانت تعشق أباها وأن زيجاتها كانت انعكاسا لهذا التعلق. فهل هذا صحيح؟ أولا هذا ما يسمونه بـ"عقدة إلكترا"، وهى، كما يقال، "انجذاب الفتاة لوالدها والرغبة بامتلاكه إضافة للشعور بالعدائية تجاه والدتها بحيث تنظر إليها على أنها منافسة على حب والدها. وسبب ذلك فى رأى فرويد هو رغبة الفتاة بامتلاك عضو جنسى ذَكَرِىّ كالرجل". وهذا كلام عجيب لا أدرى من أى بئر للهلاوس خرج. فالحقيقة إذا كانت الفتاة تعادى واحدا من والديها فينبغى أن يكون الأب لأنه ينافسها على اهتمامات أمها، التى تعودت على أن تكون هى الرقم الأول فى قائمة الفائزين بنصيب الأسد منها ومن عطفها وحنانها ومص اللبن من صدرها والعناية بنظافتها... إلخ. كما أن رغبة البنات فى أن يكون لهن عضو ذكورة هى خطرفات عقلية لا قيمة لها، إذ لم نسمع من بنت أو امرأة شيئا مثل هذا. وإذا كان الرجال يفتخرون بعضو ذكورتهم فإن النساء بالمقابل يفتخرن بعضو أنوثتهن. بل إن القوارير ليتباهين بأنهن يغلبن بأنوثتهن الرجال ويوقعنهم فى حبائلهن ويستولين على ألبابهن ويجعلنهم ينظمون الأشعار فى حبهن وجمالهن وأناقتهن بل ويصفونهن بما توصف به الآلهة. وكثيرا ما يعبرون عن حبهم لهن بأنهم يعبدونهن. كذلك كيف يتسق هذا وما نسمعه من أن النساء يعانين من

الأبوية والبطرياركية؟ ذلك أن الفتيات لو كن يتعلقن بآبائهن على ذلك النحو الغريب ما شكونا من أنهم يسيطرون على أمورهن حسبما تزعم النزعة النسوية.

ثم إن معظم من تعلقتْ بهم لبنى ووقعتْ فى غرامهم لم يكونوا فى سن أبيها بل كان الفرق العمرى بينها وبينهم هو الفارق الاعتيادى فى مجتمعاتنا. أما عبد الجليل، وكان أكبر منها فى السن كثيرا، فلم تكن تحبه بل كانت تنفر منه ثم ضغطت على مشاعرها جريا وراء المنافع المادية من هذا الزواج الكريه الذى لم تدخر وسعا ولا تركت سانحة إلا وعابته وأبدت اشمئزازها منه إلى أن فكرت فى استحلاب الفرصة التى عَنَّتْ لها واستخلاص أكبر قدر من المال من تلك الزيجة، وإن كان عبد الجليل بدهائه قد قطع الطريق عليها فلم يمكنها من استغلال اقترانها به استغلالا ماديا.

والواقع أننى لا أستطيع مرافأتها على رأيها فى أنها يجب أن تستفيد من القانون الإسبانى، الذى يعطى كل واحد من الزوجين الحق فى الحصول على نصف ثروة الطرف الآخر مقابل أن تكون لعبد الجليل زوجة. إنها، دون الزوج، هى الوحيدة التى سوف تستفيد من هذا القانون لأنها لم يكن لها أية أملاك يمكن أن يحصل زوجها الكبير السن على نصفها بالمقابل. فهى إذن أنانية، كما أن هذا القانون لا يتمشى مع الإسلام. وفى نفس الوقت نراها لا تبدى شيئا من الإنسانية لدن الحديث عن ابنيه اللذين كانا بحاجة إلى من يقوم منهما مقام الأم المطلقة. إنها تريد كل شىء ولا تريد أن تعطى أى شىء. وكلامها فى هذا المجال كله سفسطة تبرر به الأنانية على نحوٍ فجّ. وعلى أية حال فإن تقبلها الزواج من عبد الجليل لا يمكن، كما رأينا، أن يكون مؤشرا إلى ما

يقال فى علم النفس عن عشق البنت لأبيها. وبالمناسبة فلدينا مثل يقول: البنت سر أمها. كما يقول مثل آخر: اقلب القدرة على فمّها تطلع البنت لامّها. وهو يجرى عكس اتجاه كلام علماء النفس المخبوطين فى عقولهم.

وقد قرأت مقالا قصيرا حول هذا الموضوع عند بعض الأمم المختلفة بعنوان "البنت مرآة أمّها. كيف؟" فى ١/ ١/ ٢٠١٧ كتبته سيدة لا رجل هى أمانى أريس بموقع "الشروق" هذا نصه: "يقول المثل الشعبي الشهير: "اقلب الجرة على فمها، البنت تطلع لأمها". هى حقيقة وافقتها الدراسات العلمية، وتعدّت المقارنات بين الأم وابنتها المواصفات الشكلية إلى الطباع والتصرفات، لتؤكد أن البنت غالبا ما تكون مرآة لأمّها. إليكم قراءنا الكرام أهم ما قيل فى الموضوع:

كثيرا ما تميل البنت إلى أمها وتكون أكثر التصاقا بها، فتنشأ بينهما علاقة قوامها الحب والثقة وشدة التأثر. ولعوامل كثيرة تكون البنت أقرب إلى أمها وتتأثر بها فى الطباع والسلوكيات، وأيضا فى الشكل، فتصبح الابنة صورة طبق الأصل من سلوك الأم بل ومقياسا لدرجة صلاحها أو فسادها- محمد رجب

البنت هى مرآة عاكسة لصورة الأم، فهى تأخذ منها تقريبا كل الصفات والطباع والسلوكيات وتكون مشابهة لها فى الشكل والأخلاق، وذلك مَرَدُّه درجة ارتباط البنت بأمها، ما يجعلها تتشابه معها وتكون نسخة مصغرة لأمها- مها معروف أخصائية علاقات اجتماعية وأسرية.

البنت فى غالب الأحيان هى صورة مصغرة من أمها, وحتى لو اختلفت معها فى صفات مكتسبة كالتعليم والاطلاع والثقافة وغيرها تظل انطباعات الأم ويظل غذاؤها الذى غذت الابنة عليه مؤثرا فيها- أميمة الجابر

العلاقة بين الأم وابنتها لا تقتصر على الشكل أو الطباع أو السلوكيات بل إنها تمتد أيضا إلى الحالة النفسية وحتى قابلية الإصابة بالاكتئاب، حيث تجد الكثير من الفتيات، خاصة من تقدم بهن العمر، أنفسهن يتصرفن بطريقة مطابقة تماما للأم حتى وإن كن ينتقدن هذه التصرفات قبل ذلك- دراسة أمريكية

أمثال مختلفة عن علاقة الأم وابنتها:

البنت بغير أمّ، مثل القميص بغير كُمّ- مثل عربي

البنت سرّ أمها- مثل عربى

انظر إلى الأم قبل أن تخطب ابنتها- مثل كوردى

الابن يحمل خنجر أبيه، والبنت تحمل مغزل أمها- مثل كوردى

اختر الفاكهة من الأرض الطيبة، واخطب البنت من الأم الطيبة- مثل صيني

إذا أردت البنت فأقنع أمها- مثل دانماركى".

وبعد كل ما قلناه ترى بِمَ يمكن وصْف تعلقها العنيف بصديق راوى القصة، وهو أصغر منها بعشر سنين؟ أترانا يمكن أن نقول إن عشقها له تعبير عن تعلق البنت بأبيها طبقا لتهجيص علماء النفس الغربيين؟ فهل الأب يكون أصغر من ابنته؟ إذا احتكمنا إلى المنطق والرياضيات وكل علوم الدنيا وتجارب

البشر فالإجابة أن هذا مستحيل، وأما إذا ما تقاضينا إلى العهد القديم كان هذا ممكنا جدا. ألم يقل مؤلفو ذلك الكتاب المقدس فى الإصحاحين ٢١- ٢٢ من "أخبار الأيام الثانى" إن يهورام ملك أورشليم كان أصغر بسنتين من ابنه الأصغر أَخَزْيا، الذى تولى الملك من بعده مباشرة وكان فى الثانية والأربعين بينما كان لأبيه لدن موته أربعون عاما؟ فما بالنا بالفرق العُمْرِىّ بين أكبر أولاد يهورام ويهورام ذاته؟

وإلى جانب "عقدة ألكترا"، وهى العقدة التى تقول بأن البنات يعشقن آباءهن ويعادين أمهاتهن، يقولون إن الأبناء الذكور يقعون فى الغرام بأمهاتهم، وهذه "عقدة أوديب". وهى تستند إلى أسطورة أوديب عند الأغارقة، تلك الأسطورة التى تناقض تلك العقدة المزعومة تمام المناقضة. إن أسطورة أوديب تقول بعظمة لسانها إن أوديب لم يقع يوما فى حب أمه ولا فكر فى قتل أبيه ليفوز بالأم، وإنما فكر أبوه بالتخلص منه عقب أن سمع العرافين يقولون بأنه سوف يُرْزَق قريبا بابن له سيقتله حين يكبر... إلخ هذا الهراء الخرافى الذى لم ينزل الله به من سلطان، لكن كان للأقدار كلام آخر، فلم يمت أوديب بل نشأ عند راع ظل طول عمره يظن أنه أبوه إلى أن كان فى يوم من الأيام راكبا عربته فقابل فى تقاطع طرق موكب أبيه الحقيقى الملك الذى لم يشأ أن يمر الشاب أولا كما يقضى الدور بل اعتدى عليه اعتداء غليظا، فما كان من أوديب سوى أن رد الإهانة، وكلمة منها وسيف من هناك فسقط الأب قتيلا، ثم أتبع أوديب سببا، فمر على المدينة التى قام على مدخلها حيوان خرافى يسأل كل مارٍّ عن فزورة لم يستطع أن يحلها أحد سوى أوديب، وهو ما اقتضى أن

تكرّمه المدينة، فزوَّجوه امرأة الملك الذى قتله، فتزوجها والجميع فرحان زائط، ليكتشف أوديب (بعد شوية حركات نصف كم كالتى نراها فى الأفلام الهندية المتفوقة فى البكش والتهجيص على أفلامنا المصرية) أنه قد تزوج أمه. وهنا شعر أوديب بالعار والشنار وفقأ عينيه وترك مدينته وشعبه وهام على وجهه فى الأرض. فبالله عليكم أين عشقه لأمه وبغضه لأبيه، وهو لم يكن يعلم بهذا ولا بذاك ولا قَبِلَه بل ولا سعى إليه بل وفقأ عينيه؟ ولو كان يعشق أمه لابتهج وشعر بالسعادة وأمسك بتلابيب الفرصة وعام فى بحر الأطايب والملذات. لكن ماذا نقول فى الجنون الأزلى المسيطر على جانب من العقل الأوربى رغم سيطرة العلم والمنطق التجريبى على حياته الواقعية فى كل المجالات؟

وثم شىء آخر، وهو اللامنطق الذى تتسم به بعض وقائع الرواية. فمثلا تدخل لبنى الصغيرة طالبة المرحلة الثانوية الامتحان فى بعض المواد التى كانت رفيف أختها الكبرى الجامعية قد رسبت فيها عدة مرات وتنجح فيها وتنتقل رفيف إلى السنة الأعلى. ماشٍ. لكننا نعرف أنه فى الواقع لا يمكن أن يتم هذا دون أن يستدعى ثورة زميلات رفيف وإخبارهن الكلية أنها ليست هى التى دخلت الامتحان بل فتاة أخرى. لقد قيل لى إن بطلة الرواية كانت تشبه أختها الرّسابة شبها شديدا بحيث لم تثر ريبة أحد. فليكن، وليكن أيضا أن صوتيهما متشابهان بنفس الدرج. لكن من ناحية أخرى ألا يدل هذا على انعدام أخلاق البطلة حتى فى أمر كهذا وجمود قلبها ولامبالاتها بالنتائج وعدم تحرج ضميرها من عمل أى شىء خاطئ؟ ذلك أننا قد رأيناها قبل ذلك وهى تزعم شدة التدين. عجايب!

كذلك نرى رفيف مُحِبَّةً وَلْهَى لحسين، الذى تقدم لها وعقد عليها العقد، وحين تركها لوقوعه فى حب فتاة أخرى لم تستطع نسيانه وعانت آلاما مبرحة... ولكننا بعد صفحة واحدة نجد لبنى تصف رفيف بأنها غير مندفعة، وعواطفها هادئة، ولا تستجيب لأحاسيسها بسهولة. فكيف ذلك؟ ثم إن لبنى قد وصفتها بأنها عنيفة الغيرة منها ومن تفوق زوجها على زوجها هى ماديا تفوقا رهيبا وأن ذلك كان سببا فى زيادة غيرتها منها وحقدها عليها. فكيف يتسق هذا مع تشجيعها لبنى على السفر لإسبانيا واختيارها لها زوجا أغنى كثيرا من زوجها هى، زوجا يوفر لها حياة رخية جدا بالقياس إلى حياة أختها مع زوجها، الذى يبخل عليها فى النفقة ويضربها ويهينها ولا شخصية لها معه على الإطلاق بخلاف ما تتمتع به لبنى من سلطان على زوجها فى كل مناحى الحياة؟

كذلك نُلْفِى لبنى تروى لعمر فى رسالة مكتوبة تشكّل فصلا من فصول الرواية، وإن لم يكن فصلا طويلا، قصة فتاة تركية عثرت عليها الشرطة الألمانية فى غابة مع طفلين لها فى وضع مأساوى ولا تستطيع التكلم بالألمانية بل بالتركية فقط، وهو ما دفع الشرطة للاستعانة برجل من أقارب عبد الجليل زوج لبنى، واتضح أن تلك المرأة وقعت فى قبضة عصابة تهريب ففرت منها حيث وجدت نفسها وولديها فى الغابة الباردة يكادون يموتون بردا، فقام عبد الجليل بدور المترجم وظل يساعدها حتى عادت إلى تركيا فى أمان وسلام. وهنا الغرابة، إذ بعد عودة تلك المرأة وولديها اللذين أنجبتهما من أحد رجال تلك العصابة على نحو غير شرعى أحس الرجل المترجم بأنه يحبها، ويقرر تطليق زوجته مع تنازله لها هى وأولاده منها عن معظم ممتلكاته عن طيب خاطر ليفوز بقلب حبيبته.

سمك لبن تمر هندى! فهذه الحكاية تخرج عن مجرى الرواية العام ولا تتفاعل مع أى شىء فيها. وليس يكفى أن يكون الرجل المنقذ قريبا من أقارب عبد الجليل زوج لبنى حتى ندرجه فى الرواية. وأغلب الظن أن سارد أحداث روايتنا قد ضَمَّنَ تلك الحكاية روايته حبا فى المرأة التى يعشقها ويتلاعب به ويريد أن يفوز بها بعدما تطلّق زوجها. منك لله يا روميو الروميين! إن قلبك مفتوح دوما للحب، حب المطلقات والأيّمات اللاتى يكبرنك فى السن. لا أمل فى بُرْئِك من ذلك. وهل يستطيع الإنسان الهروب من طبيعة شخصيته؟ ومع هذا فإنى أحقد عليك وأحسدك على ما حباك الله من قلب جاهز للحب فى كل وقت وفى أى وقت ما دامت المرأة مطلقة أو مات عنها زوجها. أنت نمس كبير! أما أنا وأمثالى فنمشى جنب الحائط خوفا من الحب بل خوفا من التنفس ذاته. هنيئا لك هذا القلب الذى يعشق على نفسه!

ثم يأتى بعد ذلك فصل يتكلم فيه الراوى كالعادة على لسان لبنى عن عشقها للسفر ويتركها تستعرض الرحلات التى قامت بها هنا وهناك فى بلاد الله، ومن بينها مصر، التى لم تعجبها ما عدا سيد حنفى صاحب واحد من أشهر مطاعم الكشرى فى عاصمة أم الدنيا، ولا أدرى سر صمت الراوى عن العبد لله، الذى يقع أحد مطاعم سيد حنفى الشهيرة قبالة بيته. وأنا أحتكم هنا للقراء وأسألهم: هل يصح أن أقوم بنقد هذه الرواية وتحليلها وتسجيل ملاحظاتى بشأنها ثم الحكم عليها... إلخ، وهو عمل مرهق بكل المقاييس، لأفاجأ بأن الرواى تجاهلنى تماما حين كلامه عن كشرى سيد حنفى؟ وأغلب الظن أنه ينتقم من العبد لله، إذ كنت دعوته هو وصديقا مشتركا لتناول الكشرى عند

جارنا بياع الكشرى، لكن الصديق المشترك أبدى رغبته فى الأكل عند حاتٍ وكبابجى فى روض الفرج، وكنت عائدا عصرا مرهقا من العمل ومن السير، ونجر كلنا أرجلنا جرا، وكانت الدعوة إلى اللحم فى مطعم بروض الفرج على حساب الراوى طبقا لاقتراح الصديق المشترك، منه لله، فأغضبنى هذا الخروج عن النص من شخص يعلن دائما زهده فى الدنيا ومتعها وطعامها وشرابها، فاعتذرت عن الذهاب معهما إلى الحاتى، واعتذرت عن إطعامهما الكشرى أيضا، فلم يفوزا لا بطبق حسن حنفى ولا بلحم صبحى روض الفرج، وكانت النتيجة هى تجاهل الرواى لى ولجيرتى لحسن حنفى، الذى يقوم دكانه قدام بيتى. إخص على كده، وبخاصة أن هذا الفصل الاستعراضى لا يتصل بمجرى الرواية.

ثم فصل آخر تحمل فيه لبنى على حبيبها الذى تقول إنه خانها وتركها وعاد لمصر ولم يصبر حتى تطلق زوجها العنيد المتمسك بها وتتزوج حبيب قلبها. وفى الرسالة اضطراب فى الفكر والمشاعر وتقلب بين إعلان الكراهية لعمر وانتهاء الاهتمام به وبين إعلان الحب الراسخ له والتأكيد بأنها لم تحب أحدا سواه، وأنه أجرم فى حقها لتزوُّجه من فتاة ضغط أهله عليه للتزوج بها بدلا من حياة العزوبة التى يعيشها، مضيفة أنها لاتصدق رواية ضغط الأهل هذه وجازمة بأنه هو الذى قرر الانصراف عنها بإرادته التامة وأنه هو الذى اختار الفتاة بنفسه، وأن هذه خيانة منه لا تغتفر، إذ لم يقابل تضحياتها له بالتضحية من أجلها. أليست تعمل بكل قواها على الحصول على الطلاق من عبد الجليل لتسلم نفسها زوجة لشاب كله حيوية وعنفوان عاطفة وجسد؟ وأخيرا ننتهى

من الرواية بطرق على باب لبنى فى إسبانيا وظهور عمر عندما فتحت الباب واستقبالها إياه بعزف موشحة "لَمَّا بدا يتثنَّى" على البِيَان وغنائها لها بصوتها الجميل. أليس هذا الولد العفريت فلانتينو كبيرا؟ لقد حيرتنى يا عُووومَر! وأخرجتنى من المولد بلا حمص. وأرجو أن تكون قد نجحت هذه المرة فى الاقتران بتلك المطلقة نزولا على طبيعة شخصيتك التى لا تعشق سوى الأرامل والمطلقات اللاتى يكبرنك. يا رب!

وبعد فقد استمتعت بقراءة هذه الرواية والوقوف على طباع شخصياتها وتحليل طبيعة كل منها، وبخاصة شخصية لبنى الغريبة المركبة المعقدة التى تفاجئنا بكل تصرف غريب عجيب غير متوقع يدل على شخصية متهافتة متهاوية بل منهارة لا تبالى بحرام أو حلال ولا يتوقف قلبها عن الوقوع فى الحب مع هذا ومع ذاك حتى لو كانت، كما تدعى وتؤكد، لا تحبه ولا تطيقه بل تنفر منه وتشمئز، لكن سرعان ما تجد شيئا بل أشياء من شأنها أن تحببها فيه، وهى أشياء مادية تكفل لها الحياة الرخية التى تعطيها إحساسا بالتفوق والتعالى السخيف بل اللاإنسانى حتى على أختها. على أن ليست هذه هى طبيعتها الشخصية وحدها بل يَشْرَكها فيه عدد من شخصيات الروايةالأخرى. كذلك استمتعت بشخصية عمر وحِلْمه وتسامحه اللامحدود إزاء ما تفعله وفعلته لبنى مع هذا الرجل أو ذلك غير واجد فى شىء منه أى نكير، منتظرا أن تخلص له لبنى فى نهاية الأمر من زوجها، الذى كانت لا تزال على ذمته وتخبر عمر أنها تسعى بكل طاقتها للتخلص منه بالطلاق مع أنى لا أستبعد ألا يكون ثم سعى من جانبها فى هذا الموضوع على الإطلاق، إذ من الصعب أن تُوَلِّىَ ظهرها

لحياة الترف والانتقال مع عمر لحياة الشظف والقرف. إنها تتلاعب بالاثنين كما يتصرف الشخص بخاتمه الذى يضعه فى إصبعه. كذلك استمتعت بالأسلوب السلس المنطلق بالعربية الفصحوية رغم هناته التى أشرت إليها واستمتعت بتطعيمها بين الحين والحين بلفظ أو تعبير سورى ظريف مما أراد الكاتب من ورائه، حسبما أتصور، تشميمنا رائحة سوريا وعبير لغتها وإضفاء لمسة من الواقعية على روايته الظريفة، وكذلك بوصفه للآثار الإسلامية بإسبانيا ومدنها والانتقال بينها مع أنه لم ير إسبانيا فى حياته ولا رأى شيئا من تلك الآثار قط بل اعتمد على السماع عنها وعلى القراءة حولها فى المواقع والموسوعات المختلفة كما أخبرنى. وأظرف ما فى الأمر أن الراوى يوهمك طوال الوقت أن معه من الأموال ما يكفل له تلك العيشة الفارغة الممتدة التى لا ينفقها فى شىء سوى الحب والاستماع إلى الماضى المهبب لبطلة الرواية فى هدوء أعصاب لا يتكدر أبدا، بينما الحقيقة أنه لم يكن يملك من المال قلا أو كثرا، إذ هو مفلس الجيب واليد مثل العبد لله. أنقول إن البركة فى لبنى ومال زوج لبنى، تلك التى لا تعترف بشىء اسمه الحرام، ومع هذا لا تكف عن مدح نفسها بأنها متدينة، ويصدقها سيادته ويريد لنا أن نصدقها معه؟

رواية "الطوفان الكبير"

لعبد الرحيم درويش

تحكى الرواية قصة أربعة أشخاص فى جامعة كولومبيا الأمريكية يدرسون هناك عندما حدث طوفان الأقصى. وثم أستاذ أمريكى لهم قريب منهم هو هنرى سكوت تهجره امرأته الجميلة التى تحب شابا أسود، ويعانى بسببها أيما عناء. وهذا الأستاذ الشاب قدر له أن يسافر للقدس ويختلط بالعرب عن قرب ويرى الظلم الذى يتعرضون له، ويسلم بعد أن يتعرض للوبى الصهيوني. وهناك طالب فلسطينى اسمه مازن النعيمى، وطالب مصرى هو مصطفى البطنيجى المصرى الأم الفلسطينى الأب، وطالب يهودى اسمه ديفيد لى كاتز يكرههما ويشبه فى طباعه شيلوك اليهودى بطل مسرحية "تاجر البندقية" لشكسبير. وهناك أيضا زميل مصرى للطالب المصرى اسمه يوسف.

وتحاول الرواية أن توضح للعالم كله أساس الصراع العربى اليهودى فى القدس، وأن تسلط بعض الضوء على الظلم الذى يحيق بالفلسطينيين على أيدى اليهود وتبين كيف أن المساعدة الأمريكية والغربية هى التى شجعت إسرائيل على العدوان والتمادى فى قضم حقوق العرب. وبالمثل تؤكد الرواية أن المقاومة هى الخيار الوحيد لا الانبطاح، وأنه لابد من كسر شوكة الصهاينة وعودة الحق لأصحابه والأرض لأهلها الحقيقيين، وأنه من الممكن أن يساعدنا بعض من ينصتون لصوت الحق والخير والعدل من المنصفين.

وفى الرواية تصوير للمعاناة التى يعيشها أهل غزة بشكل خاص وأهل فلسطين بشكل عام وهم يئنون تحت نِير الاحتلال وإبراز بطولاتهم وتسليط النور على آمالهم وأحلامهم، وإيضاح علاقة كل شخصية بطوفان الأقصى فى السابع من أكتوبر ٢٠٢٤. لقد مثل طوفان الأقصى بالنسبة لهنرى سكوت صدمة فتحت عينيه بقوة على الحقيقة التى كان قد شرع يتنبه إليها لما عاش فى غزة وأكدت نظريته السياسية المسماة بـ"الطوفان الكبير" الذى لا يبقى ولا يذر فى عالم السياسة، وخاصة بالنسبة للمظلوم.

وكان مصطفى عبد القادر البطنيجى تلميذه المصرى لا يكف عن مشاكسة اليهودى ديفيد لى كاتز ومناظرته فى المحاضرات. وكان هنرى سكوت فى البداية محايدا، لكن الأمر تبدل بعد طوفان الأقصى، فصار نقطة بداية عنده لإعادة التفكير فى قوة الكيان الإسرائيلي. كما كان نقطة تحول عند الفلسطينى مازن النعيمي، الذى تخلى عما اكتسبه من حياة المعتقلات والتعذيب من التوجس والخوف، وانخرط فى المظاهرات، بما يعنى أن الطوفان كان ضروريا له كى يتغير إلى الأفضل.

وقد كان لكل شخصية طوفانها: فطوفان هنرى سكوت هَجْرُ زوجته له وهروبها مع شاب زنجي، وقد تفاعل مع طوفان الأقصى فتغيرت شخصيته. أما مازن النعيمى الفلسطينى فكان طوفانه رجوعه لحبيبته نرجس بعد استشهاد أخيه، وإنجابه بنتا قتلها الصهاينة مع أمها، وإن كانت النهاية تحلم بطوفان لم يؤكد مقتله. حتى اليهودى ديفيد لى كاتز قد زلزله طوفان الأقصى كما زلزله طوفان

خيانة أمه لأبيه، الذى كان يخون بدوره أمه فى السبت الشبيه بسبت السادس من أكتوبر ١٩٧٣ وسبت السابع من أكتوبر ٢٠٢٤ طوفان الأقصى.

وتقع رواية "الطوفان الكبير" فى مائة وسبعين صفحة. وتتناول، ضمن ما تتناوله، الإشارة إلى "طوفان الأقصى"، الذى انفجر أثناء انخراط أبطالها فى شؤونهم بجامعة كولومبيا بأمريكا. فالرواية لم تبدأ به، وكذلك لم تنته بانتهائه، إذ لا يزال "الطوفان" ماضيا لم يتوقف بعد، وإنْ قطعتْه بعض الهُدَن. ذلك أن نتنياهو ووزراءه، حسبما يعلنون طوال الوقت، لا يريدون أن تتوقف المعارك بينهم وبين المقاومة الفلسطينية حتى يقضو عليها ويضموا ما تبقى من أشلاء فلسطين الحبيبة إلى دولتهم، التى يعلنون أنهم عازمون على توسيعها إلى أن تصل إلى المساحة التى يعتقدون أنها حقهم، وهى من النهر إلى البحر، بما فى ذلك جزء من العراق وجزء من السعودية وجزء من لبنان وجزء من سورية وجزء من الأردن وجزء من مصر. وهذا لو اكتفت دولة الكيان الصهيونى بتلك المساحة ولم تَثُرْ شهيتُها إلى قضم أجزاء أخرى تتوسع بها وتصير إمبراطورية يهودية صهيونية. بل إن الكاتب نفسه، كما نرى فى السطور السابقة، قد كتب لى أن كل شخص فى الرواية كان له طوفانه. وعلى هذا فـ"الطوفان الكبير" هو مجموعة الطوافين التى تعرض لها جميع شخصيات الرواية.

ثم إن كلمة "الطوفان" فى الرواية لم تنتظر حتى يقع طوفان الأقصى بل ظهرت قبل ذلك فى الحديث عن طوفان عاطفى لإحدى شخصياتها، فضلا عن الإشارة إلى أن تحرير فلسطين من دنس اليهود يستلزم طوافين أخرى كل

منها يوهى البنيان الصهيونى بعض الإيهاء حتى يرتجّ ويتفكك ويسقط فى أيدى أصحاب البلاد الفلسطينيين.

أقول هذا ردا على من أسميهم بـ"العنوانيين"، وهم الذين لا بد أن يقيموا مناحة كلما شرعوا فى نقد أى عمل إبداعى، وبخاصة إذا ما كان عملا قصصيا، فنجد الواحد منهم يتمطى ويتطوح ويتشادق معلنا أنه قبل أن يدخل فى صلب موضوعه لا بد له من التوقف عند العتبات، وأولها (باسم الله ما شاء الله، ربنا يحميه من الحاسدين والعائنين) عتبة العنوان، وهو ما يستحضر دائما من قيعان ذاكرتى أغنية "العتبة جزاز، والسلم نايلو ف نايلو. والـ..."، ثم يزحر صاحبنا العنوانى محاولا تعريف العتبة: لغويا أولا ثم مصطلحيا ثانيا، متصايحا بأسماء بعض مدارس النقد الغربى والجامعات والمدن التى يعمل فيها أولئك النقاد... إلخ.

وعنوانيونا يظنون بهذا أنهم قد صاروا حداثيين وما بعد حداثيين وما بعد بعد حداثيين، بينما كل شىء فيهم وفى فكرهم، إن كان عندهم فكر، وفى كراكيب عقولهم، يصرخ بأعلى ما فيه من عزم بأنهم متخلفون عوامٌّ لا يفكرون كما يفكر المتحضرون بل كل ما فيهم مشدود بأمراس غلاظ إلى العقلية العامية الخرافية التى نشأت وتكونت فى بيئة متخلفة تشربوا منها كل ما يحركهم فى الحياة مما يتناقض مع الحداثة التى يدعونها رغم أنها لا تليق بهم ولا يليقون لها، إذ هى ثوب فضفاض جدا جدا عليهم فتراهم يتعثرون فى كل خطوة يخطونها ويفقدون توازنهم ويسقطون كل عدة خطوات.

وبالله عليكم لو وقعت هذه الرواية فى يد قارئ لم يسمع بطوفان الأقصى أكان يربط تلقائيا بينها وبين ذلك الطوفان؟ أليس من الممكن أن يكون ذلك الطوفان المذكور فى عنوانها قد قصد به الطوفان الذى أرسله الله مع الجراد والقُمّل والضفادع والدم على فرعون حين أصم أذنيه وأغلق عقله وفؤاده عن سماع كلمة الحق والتوحيد التى جاء بها موسى من الله إليه حسبما يخبرنا القرآن؟ ألا يمكن أن يكون الكلام عن طوفان نوح، وبخاصة أنه الطوفان الأكبر فى التاريخ؟ ألا يمكن أن يكون هو الطوفان (التسونامى) الرهيب الذى أغرق شواطئ بعض الدول الشرق- آسيوية فى أوائل هذا القرن؟ ألا يمكن أن يكون الطوفان إشارة إلى هزيمة سبع وستين التى اكتسحت كل شىء لدينا فى مصر ولم يعد لنا صلاحٌ جَرَّاءَها منذئذ؟ ألا يمكن أن يكون المقصود به سرد ما وقع بأحد رجال الأعمال الكبار من خسارة لثروته الطائلة وسقوطه بين طيات طوفان الفقر والإفلاس؟ ألا يمكن أن يكون ذلك الطوفان طوفانا عاطفيا مثلا كما هو الحال لدن ذكر الطوفان لأول مرة فى الرواية؟

إن الأمر فى الواقع ليسير بعكس ما يقوله العنوانيون من أن عنوان العمل يلقى ضوءا على مضمونه، إذ الحق أننا لا نستطيع فهم العنوان ومعرفة ما يشير إليه إلا بعد قراءتنا للرواية لا العكس. بل إننا قد ننتهى من قراءة الرواية، ومع هذا لا نفهم معنى عنوانها، مثل رواية "بداية ونهاية" لنجيب محفوظ، إذ العنوان فيها عنوان عام شامل يصدق على أى شىء أو لا يصدق فى الحقيقة على شىء. أليس كل شىء له بداية، وله نهاية؟ إذن فالعنوان هنا يصدق على كل شىء، ومن ثم لا يصدق على شىء بعينه.

على أن الأمر عند عنوانيينا اللواذعة لا يتوقف هنا، بل هناك إعراب العنوان، وعادة ما يكون العنوان فى إعراب عنوانيينا الأشاوس خبرا لمبتدإ محذوف تقديره "هذا" (هكذا: "هذا هو الطوفان الكبير")، غافلين عن أن العنوان هو مجرد اسم علم على العمل الإبداعى مثلما أن كل شخص له اسم علم، وكذلك كل مدينة، وكل دولة، وكل كلب عند من يربون الكلاب، بل هناك سيوف يطلق على الواحد منها اسم علم خاص به. وكان لنا قريبة تقود سيارة صغيرة تسميها: "زغلولة"... وهكذا. ولو جارينا ما يصدّع به العنوانيون أدمغتنا فى إعراب العناوين فما فائدة القول بأن العنوان خبر لمبتدإ محذوف أو حتى غير محذوف؟ لا شىء. هى حذلقة وفذلكة ليس إلا. كما أن بإمكاننا العثور على إعرابات أخرى يصعب استقصاؤها كالقول بأن المراد هو "هذه الرواية تدور حول الطوفان الكبير، أو سأعرض لكم فى هذه الرواية الطوفان الكبير، أو الطوفان الكبير هو محور هذه الرواية، أو الطوفان الكبير أو الضياع، أو الطوفان الكبير أول الغيث، أو كذبة اسمها الطوفان الكبير، أو حقيقة الطوفان الكبير... إلخ". ومع هذا فكل هذه الإعرابات هو كلام فى الهجايص.

وهذه الرواية بتناولها، ولو جانبا واحدا من جوانب القضية الفلسطينية وعلى نحو عارض أو شبه عارض، هذه الرواية بتناولها هذا هى حلقة فى سلسلة من الأدب القصصى الذى يدور حول فلسطين ومأساتها. ولعل أشهر هذه الأعمال رواية إيثيل مانن: "الطريق إلى بئر سبع"، التى قرأتُها عقب النكسة البشعة عام ١٩٦٧، وهى تحكى لنا أحداث النكبة الأولى عام ١٩٤٨، وكانت كل كلمة فيها تخزنى بإبرة مسمومة. إنها عمل سامق (على الأقل من الناحية

الإنسانية): فهذه سيدة بريطانية، أى تنتمى إلى الدولة التى خلقت فلسطين خلقا ومكرت بالعرب والمسلمين وورطتهم بغبائهم وسواد ضمائرهم وقصر نظرهم وخيانة الخائنين منهم، وما أكثرهم حتى الآن، فى كوارث متتابعة ووظفتهم فى ضرب أنفسهم بأنفسهم وتحطيم أوطانهم ومد أعناقهم لسيوف أعدائهم ووضعهم أموالهم فى خدمة مصالح كارهيهم وكارهى دينهم وبلادهم ومحتقرى آمالهم، ومع هذا لم يستطع ضمير السيدة البريطانية النبيلة أن يسكت على تلك الجرائم التى ارتكبتها دولتها بل امتشقت قلمها.

ولعل روايتنا هذه هى أول رواية تصدر عن "طوفان الأقصى". وبالمناسبة فلأحد الأصدقاء من طلابى السابقين والزملاء الحاليين معجم اسمه "طوفان الأقصى" صنعه فى غبار المعارك ودوى القنابل وهدير الطيارات و على وقع ضربات رجال المقاومة المقاديم بصواريخهم لدبابات الميركافاه وتمريغهم سمعة الجيش الصهيونى فى الفضلات القذرة النجسة المنتنة مثلهم. وصاحب المعجم هو د. محمد المنشاوى (المنياوى).

ويتميز كاتبنا ببراعته فى خلق القصص وصبها فى قالب فنى، ويبدو لى أن الأمر لا يأخذ فى يده وقتا طويلا. ويا ليته يصبر على رواياته ويقلبها فى عقله جيدا وطويلا قبل كتابتها حتى تكون مخدومة أفضل، ويصل من أعماقها إلى آماد بعيدة. ومع هذا فقد تميز روايته التى بين أيدينا بعنصر من أهم عناصر القصص، وهو عنصر التشويق. فأنت تقرؤها ولا تحب أن تتركها حتى تعرف إلام انتهت، وماذا وقع لأبطالها، وبخاصة أن حوادثها تدور فى أمريكا راعية الإرهاب الصهيونى وممولته وممدّته بالسلاح والمحاربين والمدافعة عنه بكل قوة

فى المحافل الدولية ومساعدته على احتقار المؤسسات العالمية التى يقال إنها تعمل على إظهار الحقيقة والضرب بشدة على أيدى المعتدين الظالمين الجبارين مما حول تلك المؤسسات إلى خيال مقثأة لا يخيف سوى العصافير الضعيفة الضئيلة مثلنا نحن العرب والمسلمين. وها هى ذى الوقائع المخزية تقع تحت أبصارنا وعلى مسمع منا حيث يسارع العرب إلى إمداد أمريكا بالمال والهدايا التريليونية والترامى على حذائها يقبلونه ويرجونها أن تضربهم به فى وجوههم حتى تنالهم البركة والفخار من هذا الحذاء. ولا شك أن كتابة رواية تدور فى أمريكا حتى لو كان المؤلف قد أمضى فيها عامين كالمؤلف تنبئ عن خيال ناشط.

كما أن لغة الرواية بوجه عام لغة منسابة لا يكاد القارئ يحس بوعورة فى أثناء قراءته لها بل يشعر بأن سيارته تنطلق فوق طريق حسن الرصف إلى حد معقول، فالمعجم الذى يمتح منه الراوى واسع، وتركيب الألفاظ فى جمل والجمل فى فقرات تركيب محكم. وتتراءى فى هذه اللغة قراءات الكاتب، وهى قراءة غنية تتناص مع آيات القرآن وأحاديث الرسول وأشعار الشاعِرِين والأمثال القديمة والحديثة من عربية وأعجمية تناصا طبيعيا لا يبدو معه تصنع بل يتمازج هذا كله فى أسلوب الرواية تمازجا قويا.

ومن تلك التناصات قول مصطفى البطنيجى لأستاذة له فى الجامعة بمصر تلاعبت بالأوراق حتى فازت ابنتها ببعثة علمية إلى أمريكا رغم أن مصطفى كان هو صاحب الحق فيها، إذ استشهد، وهو يحادثها على الهاتف حين اتصلت

به كى يسامحها على ما فعلته معه، بآيتين فى سورة "إبراهيم" ضمن كلامه التالى إليها:

"يا للبجاحة! أنت ظالمة ومتآمرة. لا يصلح أبدا أن تكونى أستاذة. لقد دستِ على كل القيم والمبادئ من أجل ابنتك. لقد عَلَّمْتِ ابنتك كيف تُذْبَح القيم وكيف تُهْرَس المبادئ وتُدَكّ بالأقدام. تآمَرْتِ ضد تعيينى لصالح ابنتك مها. تعلمين أننى الأول. كنت الأول، وسأصير الأول دائما. لن يعوقنى شيء. ربنا ينتقم منك ومن ابنتك. أخذتما حقي. لن أسامحكما أبدا. ولا تحسبَنَّ الله غافلا عما يعمل الظالمون. إنما يؤخرهم ليوم تَشْخَص فيه الأبصار * مُهْطِعين مُقْنِعِى رؤوسِهم لا يرتدّ إليهم طَرْفُهم وأفئدتهم هواء. الله بينى وبينكما. إن شاء الله سأرى انتقام الله بعينى فيكما". ثم مضى هادرا بالغضب قائلا لها ضمن ما قال عندما أخبرته أنها هى التى ساعدته على نيل البعثة التى هو على قوتها الآن فى جامعة كولومبيا: "أنت تقتلين القتيل وتمشين فى جنازته"، وهذا مثل شعبى ورد فى سياقه تماما، إذ كانت جاءت إلى الولايات المتحدة لتزور ابنتها المريضة بالسرطان هناك وتستميحه العفو لعل الله يسامحها هى وابنتها ويشفيها من مرضها ويجنبها المصائب والآلام. وثم مثل آخر هو "الحدأة لا ترمى كتاكيت"، وقد قاله مصطفى حين جاءته بطاقة تهنئة فى مناسبة ما من ديفيد اليهودى، إذ قال له صديقه ما معناه أن الرجل فيه خير. فرد مصطفى عليه مستشهدا بذلك المثل.

وهناك المثل التالى، وهو أوربى. وهذا سياقه من الرواية: "يا مصطفى، نحن لسنا فى بلادنا. تقريبا طُرِدْنا من بلادنا، ولقد خرجنا منها مغضوبا علينا،

ولم يفتح لنا أحدٌ أبوابَ الدخول سوى هذه البلاد الكافرة، ولذلك علينا أن نتأدب معهم. المثل يقول: إذا كنت فى روما فافعل ما يفعله الرومان أهلها. يمسك بخناقى بحركة تمثيلية ويؤكد لى أنه لن يفعل مثل الرومان أو مثل الأمريكيين. سيظل مسلما ولن يقبل أن يكون مثل المشركين الكفار". وهذا نص المثل بالإنجليزية: "When in Rome, do as the Romans do"، وبالفرنسية: "Quand en Rome, fais comme les Romains".

لكن قد يهتز القلم فى يد المؤلف فلا يصيب الكلمة المرجوة، كما هو الحال فى قوله على لسان أحد أبطال الرواية، وهو الأستاذ الجامعى الأمريكى هنرى سكوت، إذ كان قد وقع فى غرام فتاة جميلة تعمل بائعة فى محل أحذية، ولم يكن قد أسلم حتى ذلك الحين: "كنت أحس بأننى غارق لا محالة فى جمال عينيها، بعد أن أتوضأ بنظراتها وهى تبتسم لي، وأستعد لأن أصلى فى قدسية عشقها وأنا أرنو بنظراتى لجمالها الملائكي". فالكلام عن التوضؤ بنظراتها والصلاة فى قدسية عشقها لا يصدر إلا عن مسلم. لكن المؤلف فى غمرة الكتابة سها عن هذه الملاحظة، فكان ما كان.

وقد دار بينى وبين د. درويش محادثة ذات يوم عن لغته الفصيحة ومدى مراعاته لقواعدها فقال إنه رغم معرفته على نحو لا بأس به لهذه القواعد لا يكتفى بذلك بل يعهد بما يكتبه إلى أحد من يُسَمَّوْن هذه الأيام بـ"المدققين اللغويين". ومع هذا فالقارئ لا يعدم ملاحظة نحوية أو صرفية هنا أو هناك من نصب ما حقه الرفع مثلا كما فى قولنا: "إن سعيدا رجلا طيبا"، والصواب هو "إن سعيدا رجلٌ طيبٌ"، أو تذكير الفعل المنسوب إلى امرأة أوامرأتين

كالقول بأن المرأتين الفلانيتين "يلعبان" بدلا من "تلعبان"، أو أن النسوة الفلانيات "يلعبون" عوضا عن "يلعبن"، وإن كان ذلك فيما أذكر يقع فى الفعل المعطوف على الفعل الأصلى الملاصق للفاعل والجارى على قواعد التذكير والتأنيث. فكأن ابتعاده عن الفاعل قد أنساه أنه يتحدث عن نساء لا رجال. ومن تلك الأخطاء الموجودة فعلا فى الرواية: "فعلا الغربة كربة، ولا يعرف عناؤها (الصواب "عناءها" بالنصب لأنه مفعول) إلا مَنْ كابد البعد عن الوطن". ومنها أيضا قول مصطفى البطنيجى لمحاوره الذى أرجع لقب "البطنيجى" إلى "البطن" فى دعابة لتفسير معناه: "قلت فى استظراف: البطنيجي؟ أظن الاسم نابع ("نابعًا" بالنصب لأنه مفعول ثان لـ"أظن") من البطن".

ومن الغريب أن هذا التركيب قد تكرر مرارا فى الرواية دون خطإ: فأحيانا يقال: "أظن أنه قوىٌّ"، أو "أظنه قويا"، إلا هذه المرة. ومن تلك الملاحظات قوله: "كان والدى (الصواب "وَالِدَاىَ") ينعزلان تماما عن العالم كله". وهذا على كل حال قليل نسبيا فى الرواية. ولو خلت منه لكانت أفضل كثيرا. ويا ليته يصحح تلك الأغلاط فى الطبعة القادمة.

وما دمنا فى سياق التعجب من لقب "البطنيجى" فقد أذكر أننا، حين قرأنا فى شبابنا الأول رواية "السراب" لنجيب محفوظ، قد استغربنا أشد الاستغراب لقب بطل الرواية، وهو "كامل رؤبة لاظ"، وأبدينا عجبنا وضَحِكْنا من قدرة محفوظ رحمه الله على التقاط مثل تلك الأسماء الغريبة. ثم اندفن التعجب فى قبر الذاكرة، إلى أن كنت ذات مغرب بعد مرور عقدين من الزمان فى عام ١٩٨٤ تقريبا أجول فى حى السيدة زينب ومشيت فى شارع يقوم على ناصيته

قسم الشرطة، وإذا بى وأنا أتلفت يمينا ويسارا محاولا الاستمتاع بكل شىء فى الشارع الصغير تقع عينى بغتة على لافتة حارة متفرعة من الشارع مكتوب عليها: "حارة رؤبة لاظ"، فقلت فى نفسى وأنا مبتهج أشد الابتهاج: يخرب عقل شيطانك يا نجيب يا محفوظ! أخيرا قابلْنا رؤبة لاظ، منه لله! لقد أتعبنا حقاًأ لم لم تقل لنا هذا من زمان يا عمنا نجيب؟

وعودا إلى لقب "البطنيجى" ومعناه أقول: لقد قرأت أنه لفظ تركى معناه "صاحب البطن الكبير"، وعائلة البطنيجى من العائلات الغزاوية المشهورة، ومنها فنانة تشكيلية متميزة اسمها ريهاف البطنيجى. وكان صديق مصطفى البطنيجى قد داعبه بسؤاله عن معنى هذا اللقب وهل له علاقة بالبطن: "حدثنى كثيرا عن والده الفلسطينى عبد القادر البطنيجي، وأخبرنى أنه يمت بصلة قرابة للمناضل عبد القادر الحسيني. أتذكر أننى ضحكت من اسم عائلته أول مرة سمعته. قلت فى استظراف: البطنيجي؟ أظن الاسم نابع من البطن. لقد أحسست بالجوع. طلب منى أن أحترم اسم عائلته قائلا إن الأسماء لا تعلل. ابتسمت وواصلت استظرافي: ولا يهمك. بطنيجي! بطنيجي! أحسن من الظهريجي. من له بطن لا يُضْرَب على ظهره".

هذا عن اللغة، أما بالنسبة للتصرفات فنجد هنرى سكوت يعطى للفتاة الجميلة التى أحبها، وكانت تعمل بائعة فى محل أحذية، مائة دولار بقشيشا. وأتصور أن الغربيين لا يتصرفون هكذا، وبخاصة أن الباعة يحصلون على مرتب جيد، كما أن البقشيش عندهم لا يصعد إلى هذا الرقم، وبالذات حين يكون الشيء المشتَرى حذاء قد لا يصل ثمنه إلى هذا الحد. كذلك لا إخال صاحب

المحل يدس أنفه فى شؤون هنرى سكوت ويحذره من الفتاة التى أحبها ويريد أن يتزوجها. فحتى لو كانت تمارس الزنا مع صديق لها فإن هذا لا يعد عيبا فى نظرهم بحيث يجد صاحب المحل نفسه مضطرا لمصارحة العاشق الولهان بالأمر. ولدينا أيضا زياد النعيمى المشحون بالهواجس والمخاوف جراء ما وقع له فى المعتقل الصهيونى من تعذيب وآلام حتى ليكره أن يخرج من مسكنه فى أمريكا. فإذا كان الأمر كذلك فكيف بالله قد سافر أصلا إلى الولايات المتحدة المساندة للصهاينة؟ بل لماذا ترك بلده وسافر إلى بلد غريب ما دام يخاف كل ذلك الخوف ولا يطمئن للخروج من المسكن والاختلاط بالناس؟

وقد وفق المؤلف توفيقا لا بأس به فى رسم شخصيات روايته، وهى قليلة، وكل منها تمثل جانبا من جوانب واقعنا العربى الحالى، اللهم إلا الشيخ رمضان الصفدى، الذى لا أجد له دورا هاما فى الرواية ولا علاقة بينه وبين سائر شخصياتها. وسوف أترك المؤلف يقدم لنا هذا الشيخ ثم أُثَنِّى برأيى فى أمره. لقد خصص له المؤلف الفصل الخامس، وعنوانه "الطوفان الكبير"، وجرى الكلام فى الفقرات الأولى من ذلك الفصل على النحو التالى: "يبدو الخوف والقلق والاضطراب على وجه الشيخ رمضان الصفدي، وهو يصعد سلم الطائرة، حاملا حقيبته التى تحتوى أوراقه، وخاصة محاضرته التى جهزها وأعدها بعناية فائقة. إنها أول مرة يزور فيها بلاد الكفرة.

يرفع نظارته السميكة ليرى أرقام المقاعد جيدا. بصعوبة يجد رقم مقعده، ويجلس مكانه فى صمت، وجبينه مقطب يستغفر ويحوقل بصوت عالٍ يجذب إليه أنظار الناس رغما عنهم. ينظر بقرف إلى كل من حوله من النساء شبه

العاريات سافرات الوجه كاشفات الشعر. يتفل عن يمينه وعن شماله مستعيذا بالله من الشيطان الرجيم. سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون. أخذ يتلو دعاء السفر، وصدره الذى يعلو كرشه المنتفخ يعلو ويهبط.

هدأ قليلا. أخرج تذكرته وتأكد للمرة الثانية من رقم مقعده الذى يجلس عليه. وجده مطابقا وحمد الله. لن يزعجه أحد. الكرسى الذى بجواره لايزال خاليا. إنها المرة الأولى التى يركب فيها الطائرة. فتح الحقيبة وأخرج أوراق المحاضرة التى تحمل عنوان: فضل الحضارة الإسلامية على الحضارة الغربية. بدأ يراجعها. إنه يحفظها عن ظهر قلب. لقد تمت دعوته للحديث عن الحضارة الإسلامية فى هذا المؤتمر المهم تحت عنوان "تلاقح الحضارات لا صدام الحضارات".

رفع صوته وكأنه يخطب: إن الإسلام دين التسامح ودين المحبة. إنه يدعو إلى التعاون لا إلى الصراع والقتل. لسنا إرهابيين... صوته نشاز بالفعل. لقد أزعج العديد من الركاب الذين نظروا له بتعجب واستغراب. سكت لما رأى نظراتهم.

خرس وأصابه الذهول تماما أو كاد عندما لمست يده امرأة شقراء فاتنة الحسن. انحنت أمامه فبدا نصف ثدييها من البلوزة السوداء التى كانت تلبسها. ظهر أيضا له نصف بطنها، فالبلوزة تصل إلى ما فوق سرتها بقليل. مالت بشعرها الأصفر على وجهه ولحيته، فأغمض عينيه ظنا أنه فى الجنة. استمتع بملمس أصابعها الناعمة الحريرية. خلعت نظارتها الشمسية السوداء فتبدت له فى فتنتها

بيضاء ناصعة البياض كالقشدة الخالصة، فرآها، وحسبها وكأنها حورية من حوريات الجنة".

واضح من هذا النص أن ذلك الشيخ من الناحية الفنية مقطوع من شجرة فلا صلة له بأى من شخصيات الرواية، وهذا الشيخ الضخم البطن والذى يتفل يمينا ويسارا وهو يتهيأ للجلوس فى مقعده ويبسمل ويحوقل ويقرأ الكلمة التى أعدها لمؤتمر التقارب بين الأديان بصوت عال وكأنه يجلس فى بيتهم يرفع صوته على راحته دون اعتبار للآخرين ولا مراعاة لوجودهم لأنه لا يتمتع بأى حس لياقى، هذا الشيخ ما إن يستقر فى مقعده حتى تفد عليه فتاة شهية مثيرة يتحلب لها ريقه، وبخاصة حين تركت مقعدها وجلست على حجره، وجاءت المضيفة فأكملت الليلة وأمدتهما بملاءة فردتها الفتاة عليهما معها، فكان ما كان مما لست أذكره ومما لا ينبغى أن تظن فيه الخير أبدا، وطيرت كل أبراج عقله وأنسته حتى نفسه، وظلت وراءه فى الفندق الذى نزل فيه حتى اجترح إثم الزنا معها، ثم استمرت تهدده بنشر الفيديو الذى صورته له وهو يمارس معها الجنس إلى أن انهار وسلم سلاحه، وزاد فاعتنق النصرانية.

وهذا الشيخ يذكرنى بمحمد رحومة، الذى هرب من مصر منذ سنوات ولجأ إلى أمريكا يزعم أنه مضطهد فى بلده لتحوله إلى النصرانية، فقبلوه هناك، وزاد فصنع فيديو يزعم فيه أن المسيح تجلى له وخاطبه وتقبله بين المؤمنين بأنه ابن الله. وقد ظللت وقتها أنقب عن حقيقة أمر هذا "الرحومة"، فتبين لى من زملاء له فى الجامعة التى كان يعمل بها فى المنيا أن عليه عدة أحكام قضائية نافذة، وعليه متأخرات نفقة كثيرة لمصلحة زوجته، فلم يجد حلا لتينك

المعضلتين سوى الفرار إلى أمريكا وادعاء وقوع الأذى عليه. وكان رحومة دكتورا فى الدراسات الإسلامية، ولهذا احتفت به الدوائر التبشيرية وهوّلت فى ارتداده عن الإسلام وانتقاله إلى النصرانية. وقد كتبت عنه مقالا طويلا يمكن أن يجده القراء على المشباك (الإنترنت). وها هو ذا الشيخ الصفدى يكرر ما فعله رحومة ولكن على نحو مختلف، إذ غير دينه مثله لكن لا هروبا من أحكام ونفقة زوجية بل خشية من الفضيحة.

ولست أظن أن أى شخص بصفات الصفدى وظروفه يمكن أن يتحول بسرعة على هذا النحو الدرامى العاصف وبهذه السهولة. كما أن هذه أول مرة يتغطى فيها رجل وفتاة بملاءة فى الطيارة ويفعلان ما فعله الشيخ والفتاة وكأنهما فى غرفة نوم مغلقة عليهما. وكله كوم، وجلوس الفتاة الشهية على حجره فى الطائرة دون إِحِمْ أو دستور كوم آخر. لقد سافرنا بالطائرات كثيرا، ولم نر ولم نسمع بشىء كهذا. كذلك فمثل الشيخ الصفدى إنما تختارهم المؤسسات التى يعملون بها اختيارا ولا ترسل إلى مؤتمرات حوار الأديان بأى شخص والسلام. واضح أن المؤلف قد تسرع بإضافة الشيخ إلى أبطال روايته وغالى كثيرا فى وصف تطور علاقته بالفتاة الفاتنة. ومع هذا فلربما أراد المؤلف أن يكون هناك توازن بين تنصر الشيخ الصفدى وتَمَسْلُم هنرى سكوت الأستاذ الجامعى الأمريكى. ولكن هل كان لزاما على المؤلف إقامة هذا التوازن؟ هل كانت الرواية تتطلَّب ذلك؟ وهل هناك من تتطور شخصيته وتتغير ظروفه بهذا الشكل فى ذلك الوقت القصير، ودون أن تقع فيه أحداث شديدة الوطأة من شأنها أن تبرجل مخ الشخص برجلة تامة وتقلب حياته رأسا على عقب؟ ومع

هذا فالفصل المذكور فى حد ذاته فصل ظريف أحسن فيه المؤلف وَصْفَ الشيخ وصفا فكها، وأجاد تصويرَ ضعفه أمام فتنة الفتاة التى جندها الأعداء للإيقاع به وتصييره أداة لحطم الروح المعنوية لدى المسلمين، وإن كان الموضوع قد انتهى نهاية سيئة للغاية حين خرج الصفدى من الملة حتى لا يتعرض للفضيحة. وهأنذا الآن منخرط فى نوبة ضحك لدن كتابتى هذه السطور، وأتخيل د. درويش واقفا أمامى يبادلنى ضحكا بضحك، ونحن نستعرض شخصية الشيخ الصفدى وكيف أوقعت به الشيطانة الجميلة، فسقط من طوله كاللوح عند أول اختبار. أَوَهَكَذَا تشوّه صورة الشيخ يا د. درويش؟ سأشكوك للحكومة التى فى بيتك وأتركها تتصرف معك على النحو الذى تراه، وأخرج أنا منها لا عَلَيَّ ولا لِيَا، كافِيًا خَيْرِى شَرِّى.

وبالمناسبة كنت أوثر أن يُعَدِّيَ د. درويش عن وصف أثداء الفتاة الفاتنة. ولو كنت مكانه ما فعلت هذا. ومع ذلك فهناك مشهد آخر ترك لقلمه العنان يصفه ويدقق فى وصفه تدقيقا أخجلنى رغم أنى تعديت الطفولة والصبا والشباب والرجولة والكهولة منذ زمن طويل. يقول على لسان ديفيد الشاب اليهودى ابن الحاخام "أبو ديل نجس" وابن زوجة الحاخام "أم ديل أنجس". والكلام فى وصف استعداد أمه لملاقاة عشيقها أثناء وجود أبيه فى الكنيس طوال يوم السبت: "وجدتها تستحم وتتزين. عندما انتهت من الحمام فتحتْ جميع حجرات بيتنا وكأنها تبحث عنا. انفرجت أساريرها عندما لم تجد أحدا. دخلتِ الحجرة التى نحتفظ فيها بأشيائنا القديمة، فتحتْ صندوقا خشبيا يعلوه

الغبار، مسحتْه برفق، وأخرجت منه أشياءها التى تحتفظ بها سرا وبعيدا عن أعيننا جميعا.

كنت ألمح هذا من تحت السرير، وأنا أتساءل عن سبب فعل أمى لهذا. لا أدرى لماذا اقشعر جسدي. أخذت تنزع الشعر الزائد فى وجهها، ثم عَرَّتْ نخذيها وبدأت فى نزع الشعر الزائد من ساقيها، وهى تتأوه. شعرتُ بالخجل والقرف. الحمد لله أننى رجل لا امرأة. وجدتها تضع مساحيق الزينة والتجميل على وجهها وتدندن بأحد (الصواب "إحدى") الأغانى الأمريكية. ارتدت باروكة الشعر، ولبست فستانا مكشوفا يظهر عن مساحة كبيرة من صدرها وكتفيها...

فى تمام الساعة العاشرة كانت هناك طرقة واحدة على الباب... لما فتحتِ الباب بحذر التفتَتْ يمينا ويسارا. رأيت حذاء رجل أنيق يدخل بيتنا. كان يرتدى بنطلونا أسود. لم أستطع أن أعرف من هو، ولكنها سألته بهمس: "هل انتبهت؟ هل رآك أحد من الجيران؟". لم يرد عليها، ولكننى رأيته يحملها ويقبِّلها. احتضنها واحتضنته. لم أعرف مَنْ هذا الكلب. أخشى أن أرفع رأسى فيرانى أو ترانى أمى فتضربنى لأنى لم أذهب مع أبى وأخوتى إلى الكنيس. ليتنى ذهبت ولم أرَ ما يحدث الآن.

أخرج زجاجة الشمبانيا وفتحها، فأحدثت دويا بصوت عالٍ. قالت بدلال: "أخشى أن يسمعنا أحد الجيران". احتضنها وقبَّلها من جديد. رأيت ملابسها تسقط على الأرض. لمحت ساقيها عاريتين وكذلك نخذيها.

رماها على السرير، ثم برك فوقها. قالت له بصوت متغنج: "بهدوء يا مستر أندرسون"... الخائنة يجب أن تُقْتَل. إنها زانية ويجب أن تُرْجَم، وكذلك أبي. الرجم فى شريعتنا اليهودية. ورد فى التوراة ما يبين حد الرجم فى حق من فارق الدين أو من اقترف جريمة الزنا وهو مُحْصَن. فلا تستجب له ولا تصغ إليه، ولا يشفق قلبك عليه، ولا تَتَرَأَّفْ به، ولا تتستَّرْ عليه... سأقتلها".

ويزيدنى نفورا هذا الوصف المفصل الصريح أنه بلسان ابنٍ لأمه، وهذا كثير. ويزيده إيلاما معرفتنا من الابن ذاته أن أمه كانت عاطلة من الجمال، فلهذا تأخذنا بها الرأفة ولا نحب أن نراها وقد انهمكت فى محاولة نراها فاشلة، إن لم تكن يائسة، فى تزيين نفسها. وفيم؟ فى محاولة إرضاء رجل آخر غير زوجها. والغريب أن عشيقها لم يصرفه عنها أنها كانت خالية من الجمال بل هجم عليها كأنه يهجم على ملكة جمال. عجيبة! وإذا كان يحيى حقى، فى تناوله النقدى لإحدى الروايات، لم يجد أى مسوّغ لإيراد تعليق بنت صغيرة حين دخلت إحدى حجرات البيت فوجدت أمها تتحدث مع قريب لها فقالت ما معناه: "لم أنتما جالسان هكذا تتسارّان كرجل وزوجته؟"، ويرى أننا لا ينبغى أن نفرح لهذا الذكاء المبكر من تلك البنت التى تستحق، على العكس، أن تُضْرَب على مؤخرتها، فأنا أرى أن لو كان هذا الولد اليهودى أمامى الآن وهو يصف بتلذذ مرضى مشهد ممارسة الزنا بين أمه وعشيقها لصككته على وجهه صكة تلزمه الأدب.

أما ما يقوله هذا الولد عقب ذلك عن أمه: "الخائنة يجب أن تقتل. إنها زانية ويجب أن تُرْجَم، وكذلك أبي. الرجم فى شريعتنا اليهودية. ورد فى التوراة

ما يبين حد الرجم فى حق من فارق الدين أو من اقترف جريمة الزنا وهو محصن. فلا تستجب له ولا تصغ إليه، ولا يشفق قلبك عليه، ولا تترَأف به، ولا تتستر عليه. وفى سفر "التثنية" (الإصحاح ١٣): "ارجمه بالحجارة حتى يموت، لأنه سعى أن يضلك عن الرب إلهك الذى أخرجك من ديار مصر من نير العبودية، فيشيع الخبر بين الإسرائيليين جميعهم ويخافون، ولا يعاودون ارتكاب مثل هذا الأمر الشنيع".

كنت أتألم وأكتم دموعي. سأقتلها. وبالفعل نَفَّذْتُ. وضعتُ لها فى الماء الذى تشربه سما. اشتريته خصيصا لها لتموت بفعلتها. قاتلها الله! جعلتنى أكره كل نساء الدنيا وأستمتع بالتشفى من كل بنات حواء. فلتذهب إلى الجحيم. ما أصعب ما مر بى فى يوم السبت"، فهذا الكلام يثير بعض التساؤلات: هل يطبق اليهود حد الرجم للزانيين؟ وفى عصرنا هذا؟ وفى أمريكا؟ وهل القتل يتم بالسم كما فعل هذا الولد؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل يطبق حد الزنا على المرأة، والرجل لا؟ ذلك أن أباه كان يزنى هو أيضا ويعلم الابن ذلك، ويعلم الأب أن الابن يعلم. وإذا أردنا أن ندقق ونحقق فالسؤال هو: هل رأى الولد فعلا أمه وهى تزنى؟ إنه، حسب كلامه هو، لم ير شيئا فى الفراش بل كل ما سمعه أصوات وتأوهات تناهت إليه وهو رابض تحت السرير، الذى كنت أتمنى لو انهار تحت وطأة الهبد والرزع على أم يافوخه وكتم أنفاسه فمات فطيسا. ولكن الهبد والرزع والتأوهات شيء، والزنا شيء آخر. مجرد تعقيب لم أستطع إمساكه فى حلقى. كما أن عبارة "قاتلها الله" عبارة عربية إسلامية لا إنجليزية ولا أمريكية ولا يهودية ولا حتى صهيونية. ثم متى كان اليهود يهتمون بزنى

نسائهم ويقيمون هذه المندبة بسببه؟ ولقد قرأنا أن الحاخامات فى إسرائيل قد أحلوا لتسيبي ليفنى وزيرة الخارجية الإسرائيلية السابقة ممارسة الزنا من أجل مصلحة الدولة. ومعروف أن اليهود يتخذون من بناتهم ونسائهم مصايد لغير اليهود للحصول منهم على المال والفوائد السياسية وغير السياسية. كما أن ديفيد قاتل أمه كان يعرف بزنا أبيه بامرأة من جيرانهم، ويتحدث معه فى هذا الموضوع بكل صراحة وبلا أى تحرج كما ألمحنا آنفا، بل ويداعبه به بكل أريحية. فأنى له كل هذا التحمس لقتل أمه وترك أبيه الخلبوص دون أن يضع له هو أيضا سم الكلاب فى كوب من العصير؟

وإذا كان اليهود فى عهد النبي قد تركوا الرجم واستبدلوا به، قبل ذلك بزمن بعيد، التجريس على حمار فكيف يُتَصَوَّر أن يفكر ابن فى أمريكا فى أيامنا هذه فى قتل أمه، وبالسم، ودعنا من عدم افتضاح أمره ومرور موتها على السلطات مر الكرام؟ وهناك حديث مشهور يصف هذا التجريس يورده المفسرون فى سياق سبب نزول قوله تعالى فى سورة "المائدة": "إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ".

وهذا هو الحديث الشريف: "عن أبي هريرة قال: زنى رجل من اليهود وامرأة، فقال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى هذا النبي، فإنه نبي بُعِث بتخفيف. فإن أفتانا بفُتْيَا دون الرجم قبِلناها واحتججنا بها عند الله وقلنا: "فُتْيَا نبى من أنبيائك"! قال: فأتوا النبي ﷺ وهو جالس فى المسجد فى أصحابه، فقالوا: يا أبا

القاسم، ما تقول فى رجل وامرأة منهم زنيا؟ فلم يكلمهم كلمة حتى أتى بيت مِدْراسهم، فقام على الباب فقال: أَنْشُدُكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى، ما تجدون فى التوراة على من زنى إذا أُحْصِن؟ قالوا: يُحَمَّم ويُجَبَّه ويجلد (والتجبيه: أن يحمل الزانيان على حمار، تُقَابل أقفيتهما، ويطاف بهما) وسكت شابٌّ منهم، فلما رآه سكت أَلَظَّ به النِّشْدَةَ، فقال: اللهم إذْ نشدتَنا فإنا نجد فى التوراة الرجْمَ! فقال النبي ﷺ: فما أوّل ما ارْتَخَصْتم أمر الله؟ قال: زنى رجل ذو قرابة من ملك من ملوكنا، فأَخَّر عنه الرجم. ثم زنى رجل فى أُسْوة من الناس، فأراد رَجْمَه، فحال قومه دونه وقالوا: لا ترجمْ صاحبنا حتى تجيء بصاحبك فترجمه! فاصطلحوا على هذه العقوبة بينهم. قال النبي ﷺ: فإنى أحكم بما فى التوراة! فأمر بهما فرجما. قال الزهري: فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم: "إنا أنزلنا التوراة فيها هدًى ونورٌ يحكم بها النبيون الذين أسلموا"، فكان النبي منهم".

وتقوم بنية رواية "الطوفان الكبير" على تقسيمها لعدة فصول بعدد أبطالها تقريبا، كل بطل له فصل خاص به. وسبق أن قلنا إن الشخصيات الرئيسية تتداخل وتتشابك فى كتلة روائية محكمة، ما عدا الفصل الخاص بالشيخ الصفدى، الذى هو رغم ذلك فصل ممتع فى حد ذاته كما قلنا. وينقسم كل فصل إلى عدة مفاصل، ولا يتبع السرد زاوية واحدة لا فى الرواية كلها ولا فى كل فصل بل نجد المفصل الأول يبدأ بطريقة سردية معينة لنفجأ بمفصل تال يتبع طريقة أخرى فى السرد قد تتلوها عودة إلى الطريقة الأولى. والمؤلف يبدأ كل فصل بطريقة مختلفة عادة عن سواه من الفصول: ففصل يبدأ بقول

السارد: أنا فلان الفلانى، عمرى كذا، وأعمل بالمكان الفلانى... إلخ. وفصل يضعنا السارد فيه فى قلب الحدث دون تمهيد أو توضيح بل يتركنا فى عماية من أمر المتكلم حتى تنجلى حقيقته شيئا فشيئا تاركا القارئ فى حيرة من أمره طوال ذلك، وإن لم تكن حيرة طويلة ولا مزعجة. وهذه من العوامل التى أثمرت التشويق الذى أشرت إليه آنفا. ولا أذكر أنى قابلت شيئا مثل تلك البنية السردية التى اعتمدها المؤلف. وفى العادة أضع كل طريقة سردية فى الرواية التى أكون بصدد دراستها تحت الفحص والتدقيق لأعرف الفلسفة التى وراءها وهل هى مقنعة للعقل والمنطق أو لا. لكنى لا أجد فى نفسى هذه المرة رغبة فى القيام بمثل ذلك الفحص والتدقيق. المهم أنها، فيما يخيل لى، ضرب من السرد جديد. وهو ما يعد دليلا على أن ألوان البنى القصصية لا تندرج كلها تحت شكل واحد كما يدعى نقاد البنيوية زورا وبهتانا وجرأة خطلاء على الواقع، بل الباب مفتوح لكل من يريد إضافة بنية جديدة.

وقد قرأ المؤلف فى أمور اليهود ودينهم وتشريعاتهم وتاريخهم ورجالهم بتوسع حتى يكتب رواية دقيقة. وهو فى مواضع مختلفة من الرواية يستشهد بنصوص من العهد القديم ومن التلمود، وتكون استشهاداته فى موضعها. انظر مثلا إلى هذا النص، والسارد فيه هو ديفيد اليهودى: إنه السبت. اليوم المقدس. اليوم الذى فيه أركن إلى الراحة ومراجعة مكاسبى من أعمالي، مع مراجعة حساباتى وأرصدتى البنكية من أعمالى المختلفة.

قبل أن أقوم من فراشى قلت: "شِماع يسْرئل، أدوناى ألوهينو، أدوناى أحد أدوناى هوا هألوهيم، أدوناى هوا هألوهيم". تذكرت ما حدث من يوسف

زميلنا فى الفصل عندما سمعنى أرتل هذا الدعاء، وكان معه مصطفى. سألنى يوسف بتعجب: هل هذا إنجليزى يا صديقى الحاخام ديفيد؟ أرد عليه: لا. عبري، ومعناه: اسمع يا إسرائيل، ربى إلهنا، ربى أحد. ربى هو الله. ربى هو الله. حتى أزيد من انتباهه قلت فى خشوع: "باروك شم كبود ملكوتو لعولم وعد. أدوناى ملك، أدوناى ملك، أدوناى يملوك لعولم وعد". لما سألنى عن الترجمة للمرة الثانية، قلت له: مبارك اسم ملكوته المجيد للأبد. ربى الملك، ربى الملك للأبد. ابتسم مصطفى وقال: كلنا نعبد الله الواحد الأحد. إن الدين عند الله الإسلام.

قمت متسللا من فراشى حتى لا أوقظ أبى وأسمع موشحاته بصوته الذى شاخ. سيقول لى بعد أن يغضب ويصيح بى بصوته الأجش: ماذا تفعل يا ولد فى يوم شبات؟ هل تنتهك حرمة يوم السبت؟ نحن لا نفعل شيئا فى هذا اليوم. لا نشغّل حتى الأجهزة الكهربية. هل نسيت ما علمتك يا ولد يا ديفيد. سيتكلم وهو قابع فى جلسته على الكرسى يهتز للأمام وللخلف مرتلا من سفر التكوين بطريقته التى لم يغيرها الزمن، ولم تتغير مع تقدم العمر به: "فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: إِلَى مَتَى تَأْبَوْنَ أَنْ تَحْفَظُوا وَصَايَاى وَشَرَائِعِي؟ اُنْظُرُوا! إِنَّ الرَّبَّ أَعْطَاكُمُ السَّبْتَ. لِذلِكَ هُوَ يُعْطِيكُمْ فِى الْيَوْمِ السَّادِسِ خُبْزَ يَوْمَيْنِ. اجْلِسُوا كُلُّ وَاحِد فِى مَكَانِهِ. لاَ يَخْرُجْ أَحَدٌ مِنْ مَكَانِهِ فِى الْيَوْمِ السَّابعِ". وفى سفر الخروج: " اُذْكُرْ يَوْمَ السَّبْتِ لِتُقَدِّسَهُ. سِتَّةَ أَيَّامٍ تَعْمَلُ وَتَصْنَعُ جَمِيعَ عَمَلِكَ، وَأَمَّا الْيَوْمُ السَّابعُ فَفِيهِ سَبْتٌ لِلرَّبِّ إِلهِكَ. لاَ تَصْنَعْ عَمَلًا مَا أَنْتَ وَابْنُكَ وَابْنَتُكَ وَعَبْدُكَ وَأَمَتُكَ وَبَهِيمَتُكَ وَنَزِيلُكَ الَّذِى دَاخِلَ أَبْوَابِكَ".

أريد أن أصرخ فيه وأقول له: "عيني فى عينك. أليس هذا هو يوم السبت، نفس اليوم الذى ضبطتك فيه وأنت تضاجع مسز جيسيكا فى بيت زوجها؟ لقد كان يوم السبت أيها المنافق". أغمضت عيني حتى لا أتألم أكثر من ذكرياتى الموجعة فى يوم السبت. تذكرت هذا اليوم الغابر. يوم الطوفان الذى ضرب حياتى بعنف وهدها، وأثر فى نفسيتى وجعلنى أكره نفسى ولا أطيقها".

فانظر كيف يورد المؤلف نصوصا عبرية ثم يثنّى بترجمتها. وانظر كيف يشرح على لسان الحاخام والد ديفيد أهمية يوم السبت عند اليهود، وكيف أنه يجب عليهم الامتناع عن فعل أى شيء خلاله. وهو فى أثناء ذلك كله يورد النصوص التى تصدّق ما يقول.

وانظر أيضا هذا النص، وفيه كلام كثير عن الحاخامات وداود ونجمة داود وملابس اليهود والطاقية الصغيرة المسطحة التى يرتديها كثير منهم واسمها بالعبرية، فضلا عن بعض المقارنات بين اليهودية والإسلام فى هذا الجانب أو ذاك: "أول مرة التقيت الزميل مصطفى البطنيجى قبل المحاضرة الأولى بنصف ساعة تقريبا أمام قاعة الدراسة نظر لى باشمئزاز عندما أخبرته باسمي، رفض أن يصافحنى بعد أن مددت له يدي، وقال بصوت خفيض، ولكنى سمعته: "ديفيد يعنى يهودي، وتعنى داوود عندنا". لم يسترح لي، ولم يسترح للطاقية التى كنت أضعها على رأسي. رفض أيضا أن يصافحنى عندما طلب منه هنرى سكوت ذلك إذ احتد الخلاف فى الرأى بيننا بسبب رفضه أن يطلق على إسرائيل لفظ "دولة"، وأصر على أن يطلق عليها الكيان المحتل.

قبل أن ندخل أول محاضرة فى مادة "المدخل إلى العلوم السياسية" سألنى وهو يشير بإصبعه نحو رأسى المزين بالطاقية الصغيرة، "ما هذا الذى تضعه فوق رأسك؟". نظرت له بدون اكتراث، وأنا أتحاشى النظر إلى عينيه الواثقتين وأجبت: "طاقية. نسميها عندنا الكيباة أو الكِبة وتعرف أيضًا باليارمولكه، وهى غطاء رأس صغير ومستدير الشكل يرتديه الرجال اليهود الأرثوذكسيون، وقد تجد بعض اليهوديات يرتدينها، ويعنى هذا أن المتدينين يلبسونها طيلة الوقت تقديسا واحتراما لله حيث لا يجوز ذكر اسم الرب على فم من كان رأسه عاريا كما تأمر أحكام الشريعة اليهودية وكما جاء فى التلمود: قم بتغطية رأسك يمثل رمزا للتقوى ولتواضع الإنسان أمام الرب".

رد هازئا وباستعلاء: "وهذا عندنا أيضا فى الإسلام. تغطية الرأس فى الصلاة تعنى الخشوع والخضوع لله رب العالمين. هل تعرف أنها تشبه الطاقية الشبيكة التى يرتديها معظم المسلمين عند الصلاة؟". وجدتنى أرد عليه وأنا أنفخ: احمد الله أنها ليست طاقية كبيرة أو قبعة كبيرة كالتى كان يرتديها والدى الحاخام لى كاتز.

أغاظته أكثر كلماتى الأخيرة التى أكدت له أننى يهودى وأن جدى ليس إنسانا عاديا، ولكنه حاخام، أى رجل دين يهودي. تركته ينظر لى بسخرية وفى غير اهتمام، وقد كنت أتحدث مع زميلة هندوسية من الهند، وأحدثها عن اسمى وما ورد فى التوراة عن اسمي. تحلق كثيرون حولنا.

قلت: واسم داؤود أو داوود بالعربية يلفظ باللغة العبرية الحديثة ديفيد، وفسره معظم الحاخامات الذين قابلتهم بمعنى كلمة "محبوب"، وهو من الجذر

الكنعاني: "دود"، وقد يكون هذا التفسير سببا فى ذكر البعض أن داوود كان ذا وجه جميل أشقر وحلو العينين. وكان ملكا لا نبيا حسب شريعتنا، وهناك من يظن أن حلاوة تسبيحات داوود جعلت الجبال والطير تسبح معه لله، مما جعلهم يحسبون الجمال فى خلقته وشكله وهيئته. كان ينشد ويترنم لله تقديسًا له وتعظيمًا، ولكن كتبة التوراة أضافوا شيئًا، وهو أن داود كان يضرب بالعود.

واصلت حديثى قائلا: ومما يذكر فى التوراة عندنا كيهود، أو فى العهد القديم عند المسيحيين، عن داوود أنه كان قصير القامة أشقر الشعر متلألئ العينين قوى البنية خفيف الحركة يسابق الإبل، وكانت ذراعاه القويتان تحنيان قوسًا من النحاس، كما كان شاعرًا يعزف آلة العود، وقد قتل جاليات، والذى يعنى "جالوت"، بعد أن رماه بحجر، كما يعرف بأنه كاتب معظم المزامير التى فى الكتاب المقدس، الذى أنزل عليه وكان يحكم به بين الناس.

بدا على مصطفى الاهتمام قليلا وشرع فى الاستماع لي، وأخرج قلما وورقة، وكأنه يريد أن يفند ما أقول. لمحته يكتب، ولكنى واصلت حديثي: وداوود مهم جدا لنا كيهود، ونجمة داوود كرمز لنا أحيانا تُسَمَّى بـ"خاتم سليمان"،وتعنى بالعبرية "ماجين دافيد"، وتعنى "درع داوود". وفى عام ١٩٤٨ لما قامت دولة إسرائيل تم اختيار نجمة داوود لتكون الشعار على العلم الإسرائيلي...

لم يدعنى مصطفى أواصل حديثي. قاطعنى بلغة إنجليزية رصينة، وبدأ ينظر فى الورقة التى كان يكتب فيها وتكلم بصوت كله ثقة شدت معظم

الحاضرين: لقد وقعت يا عزيزى فى ثلاثة أخطاء واسمح لى أن أصحح لك وللزملاء الأعزاء. أولا: داوود كان ملكا نبيا كما عندنا فى القرآن فى ديننا الإسلام الخاتم، وكما يقول الله سبحانه وتعالى: "وآتينا داوود زبورا"، ويقول أيضا: "وقتل داوود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة"، وثانيا: لا يمكن أن يكون داوود هو كاتب المزامير، لأنها وحى من الله لنبيه، ولا يمكن أن يكتبها من نفسه. وهذا على أساس أنها من عند الله لا من عنده، ولم يكن يحكم بالزبور، ولكنه كان يقضى بين بنى إسرائيل وقتها بأحكام التوراة قبل أن يحرفها اليهود، لأن الزبور كتاب به حكم ومواعظ وليس فيه أحكام الحلال والحرام، وثالثا: ليست نجمة داوود أو النجمة السداسية رمزا خاصا باليهود، فهناك دلائل تاريخية تشير إلى استخدام هذه النجمة قبل اليهود على أساس أنها رمز للعلوم الخفية أو التى لا يعرفها أحد، وكانت تضم السحر والشعوذة.

ابتسمت الزميلة الهندوسية وأضافت: كلام مصطفى صحيح. وقد استخدمناه كهندوس من قَبْل اليهود كشكل هندسى ضمن أشكال أخرى من الرموز، وكنا نسميها: "ماندالا" لنعبر عن الكون والأمور التى ما وراء الطبيعة ولا نستطيع أن نفسرها. شكرها مصطفى وواصل حججه قائلا: والمسلمون أيضا استخدموا النجمة السداسية فى فنونهم الإسلامية وعمارتهم ورسموها على المبانى وعلى جدران المساجد. وليس هذا فحسب، بل هناك أكثر من شاهد تاريخى أن المسلمين استخدموها فى إمارة قرمان كعَلَمٍ لهم. وكانت قرمان دولة إسلامية نشأت فى عام ١٢٥٠ جنوب الأناضول، وكان حكامها ينحدرون لأصل أرمني، واعتنق مؤسسها الإسلام. واسمه، على ما أتذكر، نورى الصوفي. وكانت علاقة

القرمان مع مماليك مصر جيدة. وكل هذا قبل نشأة الكيان الإسرائيلى المحتل بما يقرب من ٧٠٠ سنة".

وفى النص التالى أيضا جوانب أخرى من اليهودية يحدثنا عنها ديفيد اليهودى فى أول الفصل الذى خصصه له الكاتب. وهو يورد هذه المعلومات خلال حديثه عن نفسه وعن أبيه وأمه وخلال تحليله لمشاعره ومواقفه وكيف تشكلت تلك المواقف بناء على ما مر به من أوضاع وظروف وما شُحِن به من تعاليم وقيم ومفاهيم وما رآه حوله من تصرفات الأشخاص وسمعه منهم من أفكار وآراء وتحليلات. وهذا النص، وإن كان يركز بالدرجة الأولى على جانب المرأة ورؤية اليهودية وكِتَابها لها، فإنه يتطرق أثناء الحديث عنها إلى مسائل أخرى فى اليهودية: مسائل تاريخية واعتقادية وطائفية وطقوسية وسلوكية وشكلية تتصل بالملابس وغيرها. وواضح أن المؤلف قد قرأ جيدا عن اليهودية والمقارنة بينها وبين الإسلام بما يكفى لنجاحه فى وضع هذه الرواية الكاشفة كى نعرف طبيعة معركتنا حول فلسطين مع الصهيونيين.

يقول ديفيد الطالب اليهودى بجامعة كولومبيا الأمريكية والزميل لبعض الطلاب العرب: "اسمى ديفيد. هذا هو الاسم الذى أطلقه على والدى الحاخام لى كاتز عند ولادتى مباشرة بعد أن سعد بى وفرح بمجيئى إلى هذه الدنيا لدرجة أنه أصر على أن يأخذنى إلى الكنيس ليباركنى هناك، وليخبر جميع رفاقه من المتعبدين بسعادته بي. كنت آخر مولود لوالديَّ، وبالتحديد كنت العاشر بعد تسعة من الإخوة البنين والبنات، ولذلك كانت سعادتهما بى غامرة.

افتخر بى أبى كثيرا أولا لأننى ذكر، فهو بطبعه لا يحب البنات، وثانيا لأننى أتيت فى الترتيب العاشر بين إخوتي، ووُلدت له فى اليوم العاشر من شهر يونيو، وبالنسبة له اعتبر أن هذا اليوم مثل يوم عاشوراء، وهو اليوم الوحيد الذى يحسبه اليهود بالتقويم القمرى ويصومونه كما يصومه المسلمون حيث أنجى الرب نبينا موسى كليمه من الغرق، وأنجاه من فرعون وجنوده، كما غرَّق أعداءه، فصامه موسى شكرا لله. نذر أبى للرب أن يصوم اليوم العاشر من كل شهر احتفاء بي، وكان يؤكد أنه سيكون لى شأن كبير فى الناس.

وأبى يفتخر دائما بأنه يهودى أبا عن أب، وجدا عن جد، ودائما ما كان يعلن أننا ننتمى إلى طائفة اليهود الحريديم، الذين يظنون أنهم أكثر الناس تدينا، ويطلق علينا بعض اليهود كلمة الأصوليين المتدينين، وذلك لأنهم يرون أننا نمارس الطقوس الدينية حرفيا، ونريد أن نعيش حياتنا كل يوم وفقا للتفاصيل الكاملة للديانة اليهودية. وكلمة "حريديم" تُعَدّ الجمع لكلمة "حريدي". وقد عرفتُ عندما كبرتُ أنها تعني: "التقى أو النقي" كما قال لى أحد الحاخامات من أصدقاء أبي. وفى أيام طفولتى عرفت عندما قرأت أن كلمة "الحريديم" جاءت من الفعل "حرد" بمعنى غضب وبخل واعتزل الناس من أجل التعبد لله والبعد عن الناس.

صحيح أننى لا أفخر كثيرا باسم داوود كما كان يظن والدى بأننى سأملأ الدنيا فخرا به. حكت لى أمى الكثير من القصص والأمور المبشرة بالخير فى يوم ولادتي، وعن رؤيا والدى لى بأننى سأصبح ذا شأن كبير، كما حكت

لى عن معاناتها وهى تلدني، فى حين أنها لا تذكر أى معاناة عانتها فى ولادة بقية أخوتى وأخواتي.

وفى الحقيقة التى أواجه بها نفسى دائما: أنا لا أحب والدى ولا أفتخر به أبدا، كما لا أحب أمي. قد يكون من الصعب على الاعتراف بهذا، ولكنها هى الحقيقة المرة المؤلمة التى يمتلئ حلقى بغصتها، ويدمى قلبى بسببها. ما أبشع أن تكره من كانا السبب فى وجودك فى هذه الحياة.

كيف لا أكرههما وقد وُلِدْتُ فى عائلة بها عشرة من الأولاد والبنات الفقراء والجوعى على الدوام. كثيرا ما كنت أعيَّر بأمي، التى شبهها بعض رفاقى بالأرنبة أو بالصينية التى تلد كثيرا. هذه تعاليم دين أبى وأمي. إنهما يريدان الإنجاب بكثرة، وعدم ممارسة تحديد النسل. كان العلمانيون من اليهود يسخرون منا كحريديم، إذ كانوا يحجمون عن الزواج والإنجاب.

أمى لم تكن جميلة، وكان أبى يقلل من شأنها، ويضربها دائما كما يضرب أخواتى البنات، ويعاملهن معاملة الجوارى والعبيد. يرى المرأة فى درجة أدنى من الرجل، بل ويرى أمى أقل النساء جميعا، وأن وظيفتها الوحيدة أن تنجب له الذكور. أكثر من مرة كان يضربها ويهينها ويسبنا بها، كما كان يأمرها أحيانا بحلق رأسها بالموسى لأنها، كشأن باقى النساء فى العالم، هن سبب الإغراء للرجال وسحبهم بعيدا عن الرب. فالمرأة من وجهة نظره تستحق اللعنة الأبدية لأنها أصل الخطيئة الأولى حيث أغوت آدم بالأكل من الشجرة المحرمة، وكانت السبب فى نزولنا إلى الأرض.

المرأة، كما يراها أبي، ليست إنسانا كاملا لأنها نجسة، ولديها مشكلة فى طهارتها لا فى فترة الحيض فقط، وإنما بعدها أيضا بأسبوع، وإذا لمست شيئا نجسته وصار من يلمسه بعدها نجسا. عندما تولد تصير ضمن ممتلكات الرجل الذى من حقه أن يتصرف فيها كيفما يشاء على النحو الذى يشاء، فإذا اعتدى عليها رجل آخر أصبح الأمر اعتداء على ملكه، وليس عليها مباشرة كإنسان يحرم الاعتداء عليه. ليس هذا فحسب، بل يحرم عليها المشاركة فى العبادة أو تعلم التوراة. فمعظم النساء، كما يرى، ليس لديهن نية حقيقية لتعلم التوراة، وإذا حدث هذا فستتحول العبادة إلى مزحة. لا أدرى لماذا تبنيتُ وجهة نظره هذه، ولماذا رسختْ لدى لفترات طويلة.

رأيته يهز رأسه وجسده للأمام وللخلف، ويتمايل يمينا ويسارا وهو يتلو المزامير والأسفار، ويرتل بصوته الأجش ناظرا لأمى ولأخواتى البنات بسخط: يا أيتها المرأة التى فى الإثم وُلِدْتِ، وفى الخطيئة حَبَلْتِ بى. يا أيتها النسوة اللاتى أنتن سبب الفتنة المستمرة. إنك شباك، وقلبك شراك، ويدك قيود. الحية أغرت المرأة بالأكل من تلك الشجرة فأخذت من ثمرها، وأكلت وأعطت رجلها أيضًا معها فأكل، فانفتحت أعينهما، وعلما أنهما عريانان. وقال الرب الإله للحية: "لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم... على بطنك تَسْعَيْن، وترابًا تأكلين كل أيام حياتك. وقال للمرأة: تكثيرًا أكثِّر أتعاب حبلك. بالوضع تلدين أولادًا، وإلى رجلك يكون اشتياقك، وهو يسود عليك. وقال لآدم: لأنك سمعت لقول امرأتك... ملعونة الأرض بسببك. بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك. وقال الرب الإله: هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفًا الخير

والشر، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضًا، ويأكل ويحيا إلى الأبد، فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التى أخذ منها".

أراه بعدها يتوجه لى ويهمس فى أذني: ويقول علماء الكتاب المقدس يا ديفيد فى تعليقهم على بعض ما جاء فى هذه القصة: "المرأة لا تكون شريكة للرجل وتساويه، بل تمسى فتنة الرجل، وهو يستعبدها لتلد له الأولاد". إياك يا ديفيد أن تخضع لامرأة، وإياك أن تقودك امرأة.

سبب آخر جعلنى لا أحب أبى وأمى إضافة إلى أسباب أخرى سأذكرها لاحقا. ملابسهما الغريبة التى تخالف ملابس الناس. كانا يعدان هذا الأمر من قبيل التدين واعتزال الناس، بل والتفرد عنهم تقربا إلى الله.

كان أبى يرتدى ملابس غريبة عجيبة ليست كملابس الناس هنا فى نيويورك. أراه صيفا وشتاء يرتدى المعطف الأسود الطويل، ويلبس فوق رأسه أحيانا قبعة سوداء طويلة، ويضع فوق رأسه وهو يصلى "الطاليت"، وأحيانا يطلق عليه: "الطليس أو الطيلسان"، وهو أشبه بشال كان يرتديه فى حياته اليومية لدرجة أن أحد جيراننا كان يشبه أبى بالمسلمين وهو يرتديه، وأغضب هذا أبى كثيرا كما أغضبنى جدا. كان أبى أيضا يطلق لحيته ولا يحلقها أبدا إلا فيما ندر، كانت لحيته تنزل إلى صدره، كما كان شعره غزيرا طويلا لدرجة أن شعر رأسه كان يتدلى على أذنيه. صورة كنت لا أحبها فى الحقيقة ولم أحبها أبدا.

لم أكن أعلم أننى عندما أكبر سأكون نسخة منه. سألبس مثله تماما وستكون لى لحية طويلة مثله. سأحب طريقة المظهر هذه. لما كبرت صرت

أربى شعرى مثله ليتدلى خلف أذنى كصورة طبق الأصل منه. فعلا من أنجب لم يمت، ومن شابه أباه فما ظلم. لا أدرى لماذا كنت أنتقده إذ كنت صغيرا.

أما أمى فكانت ترتدى ما يشبه البرقع، وهو أقرب فى الصورة إلى نقاب المسلمات حيث يغطى ملبسها كل جسدها كخيمة، وكانت أيضا تغطى مساحة كبيرة من وجهها. بعض جيراننا من الصبيان كانوا يطلقون عليها اسم "الساحرة الشريرة"، فى حين كان بعض أصحابى ونحن صغار يسخرون منها ومن أبى ويظنون أنهما أسلما وتركا الديانة اليهودية. كانوا يتهكمون ويقولون: لماذا لا تتبعون المسيحية؟ أليست المسيحية أفضل من اليهودية والإسلام؟ أنتم فى مجتمع مسيحي، وعليكم أن تكونوا مثل باقى الناس فى هذا المجتمع المسيحي".

ومن السهل على القارئ الآن، فيما يخص المرأة، معرفة أن ما يقوله الغربيون بوجه عام عن وضع المرأة فى الإسلام هو الجهل والتزييف والاتهام الظالم مجسما. فالمرأة فى الإسلام محترمة فى مالها وفى رأيها فيمن يتقدم لخِطْبَتِها وفى مالها ولها نفس الحقوق والواجبات التى للرجل، وترث كما يرث رغم أنها لا يجب عليها شيء فى مصاريف البيت إلا أن تفعل ذلك من تلقاء نفسها. بل إن الرسول ليضعها، بالنسبة للأبناء، فوق الأب، إذ سأله رجل مرة: مَنْ أحقُّ الناس بصحبتى يا رسول الله؟ قال: أمك. وكلما أعاد السؤال أعاد الرسول عليه السلام نفس الجواب، وفى الرابعة والأخيرة قال: أبوك. كما جعل الإسلام تربية الأب لابنته وتعليمها وتزويجها سبيلا مضمونا إلى الجنة. وهناك البرقع، وهو كما لاحظنا موجود فى اليهودية. والإسلام لا ينظر إلى المرأة على أنها شر

ولا أنها هى السبب فى خروج آدم من الجنة بل هما الاثنان مسؤولان عن ذلك. أما إن كان لا بد من إفراد واحد منهما فى ذلك السياق فهو آدم. وفضلا عن ذلك فالمرأة، حتى فى الحيض والنفاس، ليست نجسة ولا يحرم الاقتراب منها ولا من ملابسها أو الأماكن التى تجلس فيها أو تَلْمِسها بحجة اتقاء النجاسة التى كتبتها عليها اليهودية كما هو فى النص الذى فرغنا منه لتونا، بل هى إنسان طاهر طوال الوقت لكن كل ما فى الأمر أنه لا يحل جماعها آنذاك. أما أن حبل المرأة وولادتها عقوبة من الله لها فأمر لا يعرفه ديننا، إذ هو يرى الأولاد نعمة إلهية وزينة من زينات الدنيا، وثواب المرأة على حملها ووضعها لجنينها ثوابا كبيرا. كما أن المرأة الولود مبعث رضا لا مسبة. ولم يلعن الله الأرض بل يمتن بها وبما فيها من طعام وثروات على عباده ويأمرهم بالضرب فى جنباتها للحصول على ما بثه فيها من خيرات.

كذلك لا يعرف الإسلام حكاية اللعن الذى باءت به الحية بالذات. فالرواية الإسلامية لبداية الخلق وهبوط أبوينا من الجنة الأولى إلى الأرض تخلو تماما من خرافة الحية هذه، إذ يذكر القرآن أن الشيطان قد وسوس مباشرة إلى آدم وحواء، فنسيا واستجابا لوسوسته دون وساطة من أى مخلوق. ثم إن الحية لا تأكل التراب ولا الطين. كما أن الإنسان حين يريد التخلص منها حتى لا تؤذيه لا يسحقها عادة بقدمه، وإلا عضته، بل يقتلها من بعيد بطريقة أو بأخرى. ثم إنها ليست الزاحفة الوحيدة أو الحيوان الوحيد الذى يخشاه البشر ويتجنبونه أو يتخلصون منه بل هناك العقرب مثلا والتمساح وسمك القرش، والكلاب والقطط المسعورة والفئران، إلى جانب الحيوانات المتوحشة كالذئب

والثعلب والنمر والأسد والضبع، علاوة على النباتات السامة، وما أكثرها. حتى الماء فى الأنهار والبحار والمحيطات والآبار يصير خطرا رهيبا على من لا يعرف العوم ويغرق فيه فيموت مختنقا. وهذا غير مخاطر السيارات والقطارات التى تدهس من لا يتنبه ويسهو فيقف فى طريقها.

ومع هذا يظل أعداؤنا يشنعون على ديننا وأحكامه فى حين أن الأَوْلَى بهم انشغالهم بدينهم المعيب عيبا شنيعا والشعور بشىء من الخجل. وللأسف نرى بعض المصابين بشعور النقص منا نحن العرب والمسلمين يرددون كالببغاوات ما يقوله أولئك الأعداء فى حق ديننا. لكن أحب أن أزجى ملاحظة سريعة وبسيطة هنا، وهى أننا ونحن نحفظ القرآن فى الكتاب كنا نتمايل يمينا ويسارا كلما وقفنا أمام الفقيه (كما كنا نسميه) عند تسميع اللوح (النص القرآنى المقرر حفظه على كل منا يوميا) أو تسميع الحصة (وهى كل ما حفظناه من القرآن قبلا كيلا ننساه). فهناك شىء من التشابه بين ما كنا نفعله حينذاك ونحن نرتل القرآن أمام الشيخ وما يفعله اليهود حين يرتلون كتابهم، وهو ما نشاهده حين ينقل التلفاز وقوفهم وتلاوتهم نصوصا من ذلك الكتاب أمام حائط المبكى بالمسجد الأقصى.

وقبل مغادرة هذه النقطة أود الإشارة إلى كلمة "الأُخْوة" فى النص السابق، التى وضع المؤلف الهمزة على ألفها لا تحتها. ورغم أنى أرجح أنها سهوة قلمية أو مطبعية فسأحكى القصة التالية لأوضح بها شيئا لغويًّا صَرْفِيًّا يأخذنا فى جولة سريعة فى مبحث من مباحثه تنشيطا لأمخاخنا وتوضيحا لمدى التيسير فى لساننا. ذلك أننى كنت أسمع الرئيس حسنى مبارك دائما ما يقول: "أيها الأُخْوَة

(بضم الهمزة) والأخوات"، فذكرتُ يوما للدكتور رمضان عبد التواب اللغوى المشهور، وكان مكتبانا فى نفس الغرفة بقسمنا بآداب عين شمس، ما لاحظته على هذه العبارة من ضم الرئيس لهمزة "الإخوة" مبديًا ضيقى بانحرافها عن القاعدة الصرفية فى جموع التكسير، إذ منها صيغة "فِعْلَة"، ولكن ليس من بينها صيغة "فُعْلَة"، فرد باقتضاب أن الضم أيضا صحيح. فاستغربت ذلك منه ولكن لم أشأ المضى فى المناقشة، وظننت أنه قد قالها هكذا، والسلام دون أن يقصد تصحيح الضم فعلا، وكتمت الأمر فى نفسى مع المضى فى تخطئة هذا الضم رغم ذلك... إلى أن كنت أنقب عن شىء فى بعض المعاجم القديمة منذ شهور، فقرأت مصادفة أن "الإخوة" قد تضم همزتها أيضا. وهنا تذكرت كلمات تدل على الجمع رغم أنها لا تمثل صيغة جمعية، مثل "عُصْبَة، زُمْرَة، رُفْقَة، صُحْبَة، وُلْدَة، خُلَّة..."، وقد يمكن أن نلحق بها على سبيل التوسع كلمة "جُوقَة" رغم أعجميتها.

وهنا أود أن أقول كلمة فنية عن هذه الرواية من ناحية المعارف والحقائق المتعلقة باليهودية وغيرها، إذ ذكرتنى بما يسمى بـ"الرواية التعليمية"، وهى الرواية التى كانت تضع نصب عينيها تثقيف القارئ تاريخيا وجغرافيا ودينيا وطبيا واجتماعيا...، ومنها رواية "علم الدين" لعلى باشا مبارك، التى طافت بالقارئ مع أبطال الرواية ببعض دول العالم ومدنها وعرّفته بطبيعة تلك الدول واقتصاداتها ودرجة تقدمها الحضارى ونشاطاتها فى ميدان الصناعة وغيرها. كما قرأت عن روايات ألفت خصيصا لتثقيف القراء فى ميدان الوعى الصحى والطبى، أو ميدان الأخلاق والتقاليد الاجتماعية وهلم جرا.

ولاحظت، وأنا أعد رسالة الدكتورية فى جامعة أوكسفورد، أن النقد القصصى فى بداية نهضتنا الحديثة كان يركز على المضمون كثيرا من الزاوية التى أتحدث عنها هنا. ومن ذلك مثلا ما ورد فى مقدمة الطهطاوى لـ"مواقع الأفلاك" حيث يثنى الشيخ رفاعة على هذا العمل بأنه "مشحون بأركان الآداب، ويشتمل على ما به كَسْبُ النفوس الأخلاقَ الملَكية وتدابيرَ السياسات الملِكية".

ويرى كاتب آخر من كتّاب هذه المرحلة المبكرة، وهو حبيب نبوت، أن حوادث القصة ليست إلا وسيلة لتوجيه انتباه القارئ إلى ما يجب أن تمتلئ به الرواية من نصائح وإرشادات. وهو فضلًا عن ذلك يدعو المؤلفين إلى أن يفصحوا عن موقفهم من شخصياتهم بالإطناب فى مدح الأخيار، وتوجيه اللوم والذم إلى الأشرار الآثمين. ومثل نبوت كاتب آخر فى "المقتطف" يصنف القصص على أساس أخلاقى، فهى جيدة إذا حثت على الفضائل، ورديئة إن شجعت على الرذيلة.

ويعد سعيد البستانى هذا الفن وسيلة تربوية قائلا: "أقدمت على إنشاء روايتى لعلمى أننا مفتقرون لتهذيب أخلاقنا وتطهير عاداتنا أكثر من افتقارنا لتثقيف عقولنا، فإن الوصول إلى السعادة من طريق القلب أقرب من الوصول إليها من طريق العقل. وقد تبين بالتجربة والاختبار أن فن الروايات من أعظم وسائل التربية، وذلك بما يتضمنه من التمثيل والحِكَم المصُوغة بصيغة ترتاح إليها النفس وينشغف بها القلب".

ويختلف المضمون القصصى الذى يهتم النقاد بإبرازه من قصة لأخرى: فهذا المضمون قد يكون درسا أخلاقيا وسياسيا كما فى "مواقع الأفلاك" على حسب ما يقرر الطهطاوى كما قرأنا قبل قليل، أما على مبارك فى "عَلَم الدين"، فهو يسعى إلى شىء أكبر، ألا وهو عمل كتاب ضخم يضمنه كثيرًا من الفوائد المتفرقة فى كثير من الكتب العربية والإفرنجية فى العلوم الشرعية والفنون الصناعية وغرائب المخلوقات وعجائب البر والبحر، وذلك فى أسلوب حكاية لطيفة ينشط الناظر فيها إلى مطالعتها كما يقول على مبارك نفسه فى مقدمته لهذه القصة. كذلك قد يكون مضمون القصة قواعد صحية وإرشادات أخلاقية كما فى "ريحانة النفس" لأمين الخورى، التى يقول ناقدها فى مجلة "المقتطف" إن ما فيها من دسم أكثر مما تحوى من فكاهة، مؤكدا أن من الصعب على الجمهور التقاط هذه الفوائد الصحية والطبية من الكتب المتخصصة، وأنه على العكس سيستفيد منها، كما هى معروضة فى هذه القصة، فوائد جمة. وفى قصته: "فتاة إسرائيل" يتناول عبد المسيح أنطاكى موضوعًا مختلفًا تمامًا، فهو يقول إن هذه الرواية "هى الحلقة الأولى من روايات تاريخ النصرانية الأكبر، وفيها البحث الوافى عن الوسط الذى ولد فيه السيد المسيح وعن هذا الميلاد الخلاصى بأجلى بيان، وفيها استدراك إلى تاريخ اليهود وحالة الإمبراطورية الرومانية... إلخ". وهو يؤكد أن غرضه من تأليفها هو بث روح الألفة والاتحاد بين الشعوب العربية فى سوريا ومصر ومحو آثار الشحناء والبغضاء من صدور المسيحيين العرب.

وهذا التركيز من جانب نقاد هذه المرحلة على موضوع القصة قد أدى إلى أن يَعُدّ إبراهيم اليازجى الشروحَ التاريخية التى ذَيَّل بها شكيب أرسلان ترجمته لقصة شاتوبريان "آخر بنى سراج" واستغرقت ما يزيد عن مائتى صفحة إضافةً نفيسة إلى هذه القصة. وفى مقاله الذى تناول فيه بالنقد "ليالى الروح الحائر" لمحمد لطفى جمعه نرى جرجى زيدان، على رغم مناقشته لبعض الجوانب الفنية فى هذا العمل، يركز حديثه على محتواه بل يُقِيم حكمه النهائى عليه، يقول: "وبالجملة فإن هذا الكتاب ينطوى على قواعد اجتماعية وانتقادات فلسفية إصلاحية على أسلوب الأدب العصرى يجدر بالأدباء تحديه، وليس هو مما يلهو به العامة على سبيل الفكاهة بل من أبحاث الخاصة التى تفتقر إلى روية ونظر". ويمضى زيدان مقرراً أنه يختلف مع المؤلف، الذى ينظر إلى الدنيا من وجهها الأسود فلا يرى فيها غير الشقاء والتعب وفساد الطبيعة البشرية، ومشيراً فى تلطف إلى رأيه المتحامل على المرأة حيث لا يرى منها إلا نقائصها.

أقول هذا خشية أن يسرع بعض المتعجلين من القراء، جراء تلك النصوص التى أوردتها آنفا كدليل على أن الكاتب قد تجهز لتأليف روايته جيدا بالقراءات الموسعة فى اليهودية وغيرها، إلى القول بأن رواية "الطوفان الكبير" هى من الروايات التى يسمونها: "الرواية التعليمية". ذلك أن كاتبنا، فى الواقع، لم يضع هذا الهدف نصب عينيه فى المقام الأول بل أورده فى موضعه ضمن كلام كل شخص من أشخاص الرواية عن نفسه وعن قومه وبطريقة تلقائية. فالقارئ يعرف من خلال الرواية أشياء كثيرة وهامة عن اليهود وتاريخهم ودينهم وتقاليدهم وطوائفهم كما هو واضح فى النص الذى اقتبسته من تلك الرواية،

ولكن دون أن يصمم المؤلف عمله لهذا الغرض تصميما بل سرّب هذه المعلومات فى أحاديث المتحاورين تسريبا ماهرا بحيث لا يشعر القارئ أن المؤلف قصد هذا.

وبالمثل يحسب للمؤلف جرأته فى إدانة موقف الحكومات العربية المخزى والخيانى دون جمجمة أو لف ودروان. وبطبيعة الحال لا يمكنه التعبير المباشر عما فى ضميره تجاه هذه الحكومات العميلة، إذ لا ينبغى أن يتدخل المؤلف بشخصه فى الرواية، بل وضع هذه الإدانة على لسان بعض شخصيات الرواية بكلام لا يحتمل تأويلا أو اختلافا فى التفسير مثلما كانت خيانة تلك الحكومات واضحة لا تحتمل تأويلا ولا إنكارا.

لنقرأ، والكلام لمازن النعيمى الطالب الفلسطينى عن زميله المصرى: "لا أدرى لماذا أشفقتُ عليه. يبدو أنى ظلمته. ما ذنبه؟ لا أدرى لماذا أربط بينه وبين السادات. ما ذنبه وهذا موقف دولته وحكومته المتخاذل شأنها مثل شأن باقى الحكومات العربية الضعيفة؟ ما الذى يستطيع المواطن أن يفعله؟

أريده أن يثور مع غيره ليصل صوتهم إلى الحكومة فتتخذ مواقف أكثر تشددا وعدائية من الاحتلال. ولكن ماذا يفعل، وقد صار المواطن العربى غير ذى قيمة لدى صانع القرار؟ لن نقاتل كفلسطينيين وحدنا دونهم. القدس قضيتنا جميعا، ويجب أن نشارك فى تحريرها لا أن نقاتل وحدنا، ويتفرجون علينا ونحن نفنى.

منذ فترة، وأنا أرى العرب أعداء لنا. مثلهم تماما مثل اليهود الصهاينة، بل أراهم صهاينة أكثر من الصهاينة أنفسهم. ألا يرون ما نحن فيه ويسكتون؟

أليس الصمت خيانة؟ يرون أطفالنا يقتلون كل يوم مع شيوخنا ونسائنا وشبابنا دون أن يتحرك منهم أحد. إنهم ضعاف عجزة فى عالم لا يحترم إلا الأقوياء. لماذا لا يتحدون ويكونون معنا. تعاطفهم وحده لا يكفي. ألا ينتفضون لما تنتهكه قوات الاحتلال الإسرائيلية من قتل شبه يومي؟ ألا يؤلمهم قصف البيوت والمدارس والمستشفيات؟

أخذتنى شفقة به وبكل العرب. أليسوا بلا حول ولا قوة ومستضعفين مثلنا؟ لا. لن نجعل الحكومات تفرق بيننا وبين شعوبنا. نظرت إليه وأخذت أبكى لبكائه. وماذا يمكن للضعفاء أن يفعلوا سوى البكاء؟ فلنبكِ ولنصبر، وإلى الله المشتكى، وإليه مصير قطرات دموعنا وأنين قلوبنا الذى يدمى فى كل دعاء له، وهو القوى القادر". نعم إنه سبحانه وتعالى هو القوى القادر، لكنه لا يستجيب لمن يستبدلون الدعاء بالعمل. وقدما سخط على بنى إسرائيل أن قالوا لموسى: "اذهب أنت وربّك فقاتلا. إنا ها هنا قاعدون". وهو الدرس الذى تعلمه المسلمون، إذ حين أراد رسول الله استطلاع رأى الأنصار قبيل بدر فى الوقوف معه ضد جيش المشركين المكيين انبرى أحد رجالاتهم الكرام الشجعان قائلا: لن نقول لك ما قاله اليهود لموسى: اذهب أنت وربك، فقاتلا. إنا ها هنا قاعدون. ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا. إنا معكما مقاتلون. ولهذا نصرهم الله، وفتحوا البلاد، على العكس منا الآن، وقد وصل عددنا إلى نحو مليارين، ولكنهم مليارا نذل جبان، خفقت علينا المذلة والمهانة وسامتنا كل الأمم الخسف والعار، وقبلنا الخسف والعار ورضينا بالهوان واستعذبنا الهزائم وشاهدنا إخواننا فى غزة وسائر فلسطين يقتلهم اليهود ويدمرون عليهم

بيوتهم ومستشفياتهم ومدارسهم ومؤسساتهم ويحاصرونهم ويجوّعونهم ويعطّشونهم، ورغم ذلك لا تتحرك ضمائرنا ولا نشعر بأى عار من موقفنا هذا المتخاذل الخُنُوع. فكيف تظنون أن الله ناصِرُنا؟

رواية "بونابرته"

لنشأت المصرى

"بونابرته" رواية ليست بالطويلة، إذ تقع فى نحو مائة صفحة فقط، وضعها الصديق الأستاذ نشأت المصرى، وتدور حول بونابرت فى قيادته للحملة الفرنسية منذ هاجمت مصر أواخر القرن الثامن عشر حتى رحيله عنها بليّْلٍ لتدارُك ما وقع فى فرنسا من أحداث خطيرة اقتضت أن يترك الحملة تحت قيادة كليبر ويعود أدراجه إلى بلده دون أن يكتب الله على مصر أن ترى وجهه الشيطانى المشؤوم كرة أخرى. وفى الرواية نتابع نزول القوات الفرنسية على شاطئ الإسكندرية والمقاومة التى تلقاها بها الوطنيون آنذاك تحت قيادة السيد محمد كريم والى المدينة وانتصار الفرنسيس عليها واجتياحهم الوطن وتنكيلهم بالمواطنين وانتهازهم كل سانحة لفرض الغرامات الظالمة الباهظة عليهم والاستيلاء على أفخم البيوت لينزلوا فيها والإثخان فى أهالينا قتلا وعسفا كلما قاموا بثورة للتخلص من ذلك البلاء المستطير... إلى أن غادر نابليون مصر عائدا إلى بلاده التى بلتنا به على غير توقع أو انتظار. وقد سماه مؤلفنا: "بونابرته" كما كان يسميه الجبرتى المعاصر لتلك الحملة والمؤرخ لها.

ونبدأ كلامنا عن هذه الرواية بالسرد، وهو يتبع خطا مستقيما مصاحبا لسير الحملة الفرنسية تحت قيادة نابليون فى "لوحات" تشتمل على كبار الحوادث والأشخاص مع قفز السرد أحيانا فوق بعض الأحداث الهامة مكتفية فى هذه الحالة بالإشارة إلى أن هذه الأحداث قد وقعت كما هو الحال فى القصص

القرآنى حيث نجد مثلا فى سورة "مريم" كيف استجاب الله لدعاء زكريا عليه السلام فوهب له يحيى على الكبر لنفاجأ بقفز السرد أعواما عدة ونقرأ قوله تعالى: "يا يحيى خذ الكتاب بقوة، وآتيناه الحكم صبيا * وحنانا من لدنّا وزكاة، وكان تقيا...". لقد استجاب الله لزكريا وحقق له أمله وأعطاه يحيى، لكن لم نعرف شيئا عما وقع ليحيى طوال فترة رضاعته وصباه وشبابه، بل نجد أنفسنا أمامه مباشرة وقد اختاره الله نبيا. وطبعا لا يعنى هذا أن نشأت المصرى كان يقفز بالسنوات فوق الأحداث، إذ إن بقاء الفرنسيين فى مصر أوانذاك لم يزد عن ثلاث سنوات تقريبا، بل أحببت أن أقرر المبدأ المشترك: مبدأ القفز فوق الأحداث أحيانا مع ترك خيال القارئ لكى يملأ تلك الفجوات.

والرواية مسرودة من خلال ضمير الغائب، أى على لسان الرواى المفترض أنه يعلم كل شىء لا على لسان أحد أبطال الرواية. ومع أن السارد هو ذلك الشخص المحيط علما بكل شىء فإن قلم الكاتب قد أفلت منه فى مواضعَ جِدّ قليلةٍ وطار منه تعليق قصير يعلن عن شعور السارد مما لم نتعوده منه. وأحيانا يكون السرد فى أول كل لوحة وكل قسم من تلك اللوحة عاديا، وأحيانا ما يكون من خلال تيار الوعى، وأحيانا ما يكون على هيئة حوار يجد القارئ نفسه واقفا فجأة إزاءه دون تمهيد، وهو فى هذه الحالة يتحول إلى ما يشبه فصلا من مسرحية، وأحيانا تبدأ اللوحة أو قسم منها بوصف المكان أو الغوص فى نفسية هذه الشخصية أو تلك. وفى بعض المواضع نرى نابليون يستنطق البحر أو كتابا لمؤلف قديم، مستخرِجا منه ما يتسق مع الموقف الذى هو فيه. والرواية من هذه الزاوية تمثل مزيجا جذابا من هذا التنوع تطرد الملل عن ذهن القارئ

وتشعره بالغنى الفنى فى سرد الرواية وتصوير شخصياتها ووصف أماكنها وتحركات الجموع فى الشوارع وأفراد المقاومة الوطنية وجماعاتها. وقد جرت العادة أن تقطَّع الروايات إلى أقسام، فنقول فى عنوان كل قسم: "الفصل الأول، الفصل الثانى، الفصل الثالث..."، وفى بعض الأحيان نترك رأس الفصل بدون هذه الإشارة، وأحيانا ما يكتفى المؤلف بترقيم الفصول: "١، ٢، ٣، ٤...". وهناك من يضع لكل فصل فى روايته عنوانا يدل على مضمون هذا الفصل أو أهم وقائعه كما هو الحال فى روايات جورجى زيدان عن تاريخ الإسلام. وفى رواية "الزينى بركات" نجد جمال الغيطانى يسمى الفصول: "سرادقات". وأذكر أن صبرى حافظ قد عنون أحد كتبه المبكرة بـ"سرادقات من ورق". ولا أدرى السر فى تسمية فصول أى كتاب بـ"السرادقات"! أما فى روايتنا فتسمى كل قطعة منها: "لوحة" كما ذكرنا، وتُقَطَّع كل لوحة أجزاءً أصغر لا تجرى كلها فى السرد على وتيرة واحدة بل على وتائر متنوعة فى العادة تضفى عليها مزيدا من الثراء والحيوية.

ولسوف أضرب اللوحة الأولى مثالا على طريقة سياقة السرد والحوار والخواطر وتصوير الشخصيات، تلك الطريقة التى أرجو أن أكون وُفِّقْتُ فى توضيحها ويجد القارئ فى اللوحة المذكورة تطبيقا حيا وعمليا على ما قلته فى ذلك السبيل:

"اللوحة الأولى

المجد للرب ولنا، والوهم لهم.

لست قلقًا. لقد قرأت البحر, والبحر أستاذ الذكريات. أسمعه الآن:

ـ ذات يوم يا بونابرته (بونابرت), كان الفراعنة هم سادتى، وبأمرهم أأتمر، لست منافقًا لكننى دائمًا أخضع للقوى، ولهذا تجدنى ألعب معك ولصالحك الآن، مادمت تملك المدفع الجبار والبندقية الحديثة. هو شاعر واهم من يتصور أننى أضحك له وأبكى، وأصارحك بأنه إذا تفوق عليك الأسطول الإنجليزى الذى يتعقبك فى البحار، سأكون عونًا له عليك أيضًا يا صاحب العينين الرماديتين. أما أقاليم الخلافة (من العرب وغيرهم) فقد نسيتهم ونسونى، فهم دائمًا فى انتظار المدد من الغير أو من السماء، وهم غارقون فى عسل الأمنيات.

ـ صدقت يا صديقى البحر. بالرغم من أننى كنت ضابط مدفعية لكننى أعشق البحر، ولك أن تمنحنى بشارات النصر فى جولتى الجديدة بعد أن انتصرت على إيطاليا، وأخضعتها لفرنسا. والآن مطلوب منك سيدى البحر، وأنا لا أحب أن يكون لى سيد، أن تنسينى شوقى لزوجتى الخائنة جوزفين طاغية الأنوثة والجمال، القصيرة مثلى، صاحبة الفم الجميل، تلك التى أحبها وأخشاها فى آن. يقال إن نساء إقليم مصر أيضًا جميلات.

والآن يا سكرتيرى المخلص فوفليه، أسرع وسجل فى أجندة الأحوال ليقرأ أبناء أوربا، أن فارس أوربا الأول بدأ اليوم وهو فى التاسعة والعشرين من العمر رحلته لاستعمار الشرق، وذكرنى إذا نسيت.

ـ كيف أذكرك، وأنت خبير الماضى وذاكرة المستقبل؟

ـ حتى لو كنت تجاملنى أشعر أننى كذلك وأكثر ولا أحب أن يراجعنى أحد فيما أقول حتى أنت بالرغم من أنك عالم كبير. نابليون لا يرده أو يصده أو يناقشه أحد.

ـ أعرف ذلك جيدًا سيدى القائد، لكننى أتمنى أن أعرف إلى أين وجهتنا بالتحديد؟

ـ نحن ذاهبون إلى الشرق عامة، وإلى مصر خاصة. إنه الشرق الحقير سأفعل به ما أشاء، بالرغم من أننى من أوربا الأكثر حقارة. عيناك تتسعان فى فضول مرضىّ يا فوفليه. لا تخف، سيحمينا جهل المصريين وفقرهم وتخلفهم. قد نتألم بعض الوقت، لكننا سننجح، وسيحفرون أيضًا قناة السويس لصالحنا. سنصنع تاريخًا جديدًا.

ـ ستصنعه بقدمك يا سيدى.

ـ أنت منافق بارع.

ـ لقد قدم نظام الخلافة العثمانى (التركى) أروع هدية لنا، فتحت اسم وحدة المسلمين تم تجميد إقليم مصر وإفقارها على مدى ثلاثة قرون.

ـ صدقت فوفليه. فلو كانت مصر قوية ربما كان أحد الفراعنة يحكم باريس الآن، وربما كنا خدمًا فى بلاطه.

ـ تمامًا. ولهذا بعد اليوم سيتحدث العالم عن نابليون وليس عن رمسيس الثانى.

مرة أخرى تنافق. أنت الوحيد الذى أسمح له بذلك.

ـ من يطرق الباب؟

ـ كازابيانكا، قائد سفينتنا.

ـ هل من أخبار يا كازابيانكا؟

ـ هو سؤال واحد: هل نخبر الجنود باسم البلد الذى نتجه إليه؟ الكل يسأل ويلح.

ـ نعم، نعم. قل لهم نحن باتجاه الرعاع المصريين، وبعد أن تخبرهم إرسل إشارة إلى كل القيادات المائة بأننى سأجتمع بهم بعد ساعتين، هنا على سطح السفينة أدريان.

قهقه نابليون قائلًا: نبه على طيور البحر ألا تقترب من الاجتماع السرى.

ـ بسيطة. نقضى عليها بالرصاص وهى فى الفضاء.

ـ لا، لا. هذه الطلقات نقتل بها المصريين.

***

(بعد ساعتين)

اعذرونى، فدوار البحر يزعجنى الآن. إننى أعرفكم واحدًا واحدًا. مسموح لكم هذه المرة أن تسألوا بعد أن أنتهى من كلمتى. أنتم معى تصنعون التاريخ. وبداية أقول لكم: اطمئنوا، فالعدو المصرى فريسة سهلة. لقد قرأت أنهم منذ مئات السنين يفيقون بعد فوات الأوان. سنستغل صبرهم الأحمق، ونكتم أنفاسهم، ونسوقهم أمامنا كالحمير حتى يكفوا عن أناشيد الوهم. ولأنهم ضعفاء وفقراء على رغم ثراء مواردهم الشديد سيتراجعون أمامكم، وهذه فرصتنا. لن نمنحهم فرصة التجمع، وإذا فروا لن يكروا بحق هذا الصليب المنقوش على يدى. قريبًا جدًا تصبح أراضيهم وخيراتهم ملكًا لنا، وشبابهم عبيدنا، وانقلوا

عنى لجنودكم أننا بعد النصر سنوزع على كل واحد منهم ستة أفدنة بالمجان، ولكم مكافآت أخرى أكبر من المشروعات والمال والمناصب. كل ضابط منكم سيتولى مشروعًا أو قطاعًا مهمًّا يديره كيف يشاء، وينعم بخيراته دون مساءلة. أسمع صوتًا يهمهم. أفصح. ما سؤالك؟

ـ كيف ندير هذه المشروعات ونحن بلا خبرة أو تجربة؟

ـ اعتبروها ملكية خاصة. انهبوها، ولن يسألكم أحد عن الطرق العلمية. املؤوا جيوبكم. المهم أن ندخلهم الجحور أولًا ونرعبهم، أما الذين يرتشون سنرشوهم، والقلة الحرة الواعية الوطنية سنقتلهم أو نقضى عليهم، وسنوهم الشعب بعد ذلك أننا رحماء نعمل بروح الإسلام لنستميلهم ونحولهم إلى عبيد لنا. ولا تضيقوا بقرارى بعدم اصطحاب الزوجات إلى مصر، ومن تلح عليه الرغبة أمامه المصريات. سنحولهن إلى سبايا وعشيقات بالترهيب أو بالترغيب. ومن الآن غنوا، واعزفوا الموسيقى التى تمجد فرنسا. والآن هل من سؤال؟

ـ كلا، كلا. تحيا فرنسا. لنا السماء، ولهم الجحور.

قال آخر: لقد عطشنا.

ـ اشربوا من مائهم ودمائهم.

انصرف القادة، وبعد قليل انطلقت الموسيقى والأغنيات فى فضاء البحر تنبعث من أربعمائة سفينة غايتها مصر".

وتبدأ اللوحة، حسبما شاهدنا، بعبارة قالها بونابرته لنفسه يتطلع فيها إلى المستقبل القريب وما سوف يحققه فى مصر حين يغزوها. وهى عبارة كاشفة رغم قصرها، فهو يمنى نفسه الأمانى، ويتوعد المصريين بالويل مع خداعهم

والضحك عليهم وإطعامهم الأوهام. ثم نراه يتجه إلى البحر منصتا وكأن البحر يتوجه إليه بالحديث بل هو فعلا يحدثه بحكمة القرون بوصفه شاهدا على ما جرى حوله وفوق أثباجه. وخلاصة تلك الحكمة أن القوى هو من ينتصر ويفوز بالطيبات، وأما الضعيف فلِأُمِّه الهَبَلُ كما يقول الشاعر القديم فى سياق مختلف. ثم هو يجيب البحر طالبا منه أن يمنحه شارات النصر وأن ينسيه زوجته التى يعشقها عشقا رغم خيانتها له. ونعرف دون أن يخبرنا السارد (بل من خلال السياق) أن ذلك الحوار وما يليه قد جرى فوق سطح السفينة. وبعد ذلك يلتفت إلى أحد ضباطه ويدور بينهما حوار صاف، وكأننا فى مسرحية لا فى رواية، يبدو فيه نابليون معتدا بنفسه مغرورا لدرجة الإيشاك على الانفجار غير واجد أى حرج فى الثناء على نفسه واتهام من حوله بمنافقته مع الرغبة فى نفس الوقت فى استمرار هذا النفاق الجميل. وفى هذه الأثناء يصدر أوامره العسكرية لهذا الضابط أو ذاك. ثم نرى بين قوسين عبارة "بعد ساعتين" كما لو كان الكاتب يبدع مسرحية، فهو يثبت التوجيهات التى ينبغى للمخرج المسرحى مراعاتها. ثم يوجه القائد الفرنسى كلمة إلى رجاله يشير فيها إلى ما ينتظرهم فى مصر من ثروات ومجد وما ينبغى لهم أن يفعلوه حين يصلون وينتصرون، ويعقب ذلك حوار بينه وبينهم يوصيهم فيه بألا تأخذهم بالمصريين أية شفقة ويصفنا فيها بالحمير والجهلاء وما لذ وطاب من الشتائم المنتقاة. وهو هنا صريح وعار ومباشر على عكس ما سوف نراه منه بعد قليل من كذب ونفاق ولف ودوران وتمسكن يتظاهر فيه بأنه إنما أتى إلى مصر ليأخذ بيدها إلى التحضر والتقدم، وأنه صديق للمسلمين والإسلام... إلى آخر المعزوفة المعروفة عنه التى

كان يحسب المصريين جميعا من البلاهة والغباء بحيث يصدقون ما يقوله بصددها ويتجاهلون ما يرونه بأم أعينهم ويسمعونه بخالة آذانهم!

وتبدو شخصية نابليون واضحة إلى حد كبير منذ الوهلة الأولى من الرواية، فأول عبارة فيها هى قوله لنفسه: "المجد للرب ولنا، والوهم لهم"، ثم يصارحه البحر بأنه يعشق القوة، وأنه يغير موقفه وينحاز للأقوياء، بل سوف ينتقل إلى جانب الإنجليز لو انتصر أسطولهم على أسطوله، والبحر هنا رمز على التاريخ ودول العالم، فالدنيا لمن غلب، والبشر يخضعون راغبين أو راهبين للقوى الذى يسيطر عليهم ويتحكم فيهم ويستطيع نفعهم وضرهم وإعطاءهم وحرمانهم وإرخاء الحبل لهم أو التشديد عليهم، والكلام فى الواقع ليس كلام البحر بل هى خواطر نابليون وأفكاره وتأملاته فى صراع القوى الكبرى على امتلاك مفاتيح سيادة العالم، وبعد ذلك أخذ يفاخر بأنه أخضع إيطاليا من قبل ويطمع فى أن يقف معه فى هذه الحملة فينتصر على مصر. وهنا يتذكر زوجته الجميلة الخائنة التى لم ترض مصاحبته، فيطلب من البحر أن ينسيه إياها، وبخاصة أنه سمع عن جمال نساء مصر. ثم يلتفت إلى كاتم سره فوفليه آمرا إياه أن يسجل فى يومياته أنه هو فارس أوربا الأول، وأنه وهو لا يزال شابا فى التاسعة والعشرين من عمره فى سبيله إلى فتح مصر والاستيلا على الشرق كله، ولن يستطيع أحد الوقوف فى وجهه، وأن الانتصار على المصريين، الرعاع والحمير كما وصفهم، مهمة غاية فى السهولة لجهلهم وفقرهم وتخلفهم فى ظل الحكم العثمانى. وازداد غروره ظهورا كلما وافقه كاتم سره على ما يقول وبالغ فى مدحه إذ كان يرميه بالنفاق مع تذييل تلك التهمة بأن نفاقه رغم ذلك جميل، فهو يستحق هذا

المديح وأكثر منه. ثم يبلغ به الغرور عند طلبه استدعاء كبار الضباط للاجتماع به على سطح السفينة أدريان، فكلفه بمنع طيور البحر ألا تقترب من الاجتماع السرى. وأشد من هذا غرابة أنه عندما اقترح كاتم سره إطلاق النار على الطيور فى الفضاء قبل أن تحط على السفينة رد عليه بأن طلقات الرصاص ليست للطيور بل للمصريين! وحين يمنى رجاله بأنه، بعد دخولهم مصر واستحواذهم على حكمها، سوف يوزع عليهم المناصب والممتلكات والمشروعات والقطاعات. وبمكنتهم أن يصنعوا بها ما يشاؤن، فلن يحاسبهم أحد، وعليهم أن يدخلوا المصريين الجحور، ولا عليهم من بأس إذا كانوا لم يصطحبوا زوجاتهم معهم، ففى المصريات الكفاية والعوض. وردا على قول أحد القادة إنهم قد عطشوا قال نابليون: اشربوا من مائهم ودمائهم. وكان قد رفع شعارا أثناء كلمته هذه هو "لنا السماء، ولهم الجحور"... وهكذا تظهر الرواية نابليون مغرورا غرورا شديدا مع قسوة قلب وعجرفة تجاه المصريين حكاما ومحكومين.

وفى الصفحة الرابعة عشرة، وكتاب"التأملات" الذى ألفه قبل توليه الحكم الإمبراطور الرومانى ماركوس أوريليوس (١٢١- ١٨٠م) فى يد نابليون، نسمع القائد الفرنسى يخاطب هذا الإمبراطور فى خياله، وكأنه جالس أمامه يناقله الحديث، قائلا له فى غرور وزهو وتشامخ وتمدح وعجب بالنفس هائل: "هل كنت تتصور أيها الفيلسوف الإمبراطور أن قائدًا عظيمًا مثلى بعد رحيلك منذ ١٦ قرنًا من الزمان سيقرأ تعليماتك مثل: الحياة السعيدة تحتاج إلى أقل القليل. فهى بداخلك، وتكمن فى طريقة تفكيرك؟ هكذا أنا يا أوريل لا أفعل

شيئًا دون دراسة لكل خطوة كما يقول العلم، وأعرف أننا ننتصر بالعلم قبل القوة العسكرية، أيضًا ما أروع كلمتك: كم هو فارغ ذلك المدح الذى تجده من الآخرين. لقد طبقتها حرفيًا على قائد ظل ينافقنى ولقبنى بكلمة "معالى" السخيفة حتى سجنته أسبوعًا بتهمة النفاق. أما كلمتك التى تلمع فى الأوراق الآن، وتنير عقلى وقلبى فهى أن الفضيلة لا تتجزأ وأن العلم فضيلة. أعاهدك أوريل، لن يتبقى بيننا خائن أو منافق حتى لو قال: "تحيا فرنسا" ألف مرة كل يوم. ها أنذا أعمل بحرية لنهب خيرات مصر وغيرها لصالح فرنسا لتكون سيدة الأرض بلا جهل يدمرها. شكرًا أوريل على نصائحك. المهم أولًا أن أجيد اللعب بتأثير القرآن على الرعية المصريين، فهو الخطر الأول علينا إذا عملوا بما فيه. والشيخ محمد كريم أحد ثمرات هذا القرآن. ترى ماذا يفعل وفدنا الآن مع محمد كريم؟".

يقول نابليون هذا وكأن ماركيليوس جالس فعلا أمامه ونابليون يريد خداعه والظفر منه باطلا بالثناء عليه والرضا عنه. والحقيقة أنه إن كان قد أخذ عنه الاهتمام بالعلم والتخطيط واطراح الكسل والتشاؤم مثلا فقد أنهى كلامه بأنه سوف يعمل بكل طاقته على نهب مصر وأنه سوف يدخل لعقول المصريين وقلوبهم من باب الخداع والخبث ولسوف يعلن، كذبا وتضليلا كى يستولى على عقولهم ويضمن خنوعهم واستسلامهم له دون مقاومة، أنه يؤمن بالقرآن ويعمل بما جاء فيه رغم وعيه التام، فيما بينه وبين نفسه، بأن هذا القرآن هو الخطر الأول والأكبر عليه، وأنه هو الذى أفرز السيد محمد كريم وأمثاله ممن يحبون بلدهم ويفدونه بالنفس والنفيس. وهذا إلى جانب سفالة نابليون

الأخلاقية، فهو كذاب منافق وثعلب يسطو على زوجات رجاله متى حَلَتْ إحداهن فى عينه دون أن يبالى بشرف أو يحترم عرضا، ومستعد دائما لقتل المصريين بالآلاف المؤلفة بلا أدنى خالجة من إحساس أو ضمير إذا ما وقفوا فى طريقه نحو ابتلاع بلادهم واستعبادهم ونهب مواردهم بغير وجه حق. كما كان غضوبا منتقما لا يملك انفعالاته ومشاعره، ويخلو قلبه من الرحمة. ثم إنه كان مغرورا مزهوا بنفسه إلى درجة جد بعيدة. ومن ثم فهو إلى "أمير" مكيافلى (الذى أرجَّح أنه قرأه) أقرب منه إلى "تأملات" أوريليوس، التى قرأها فعلا.

وعلى أية حال هذا بعض ما كتبه أوريليوس فى "تأملاته": "من جَدِّي فيروس Verus تَعَلَّمْتُ الدَّماثة وضبطَ النفس. ومما سمِعتُ عن أبى، وما أَتذكَّره عنه، تعلَّمتُ التواضُع والنَّخوة. ومن والدتى تَعَلَّمتُ التقوى والإحسان والتعفُّف عن فِعلِ السيئات وعن مجرَّد التفكير فيها. وتَعلَّمتُ منها أيضًا بساطةَ العيش بساطةً غير معهودةٍ فى الأثرياء على الإطلاق... من رُسْتيكوس Rusticus تَلَقَّيتُ الانطباعَ بأن شخصيتى بحاجةٍ إلى تحسينٍ وتدريب، وتعلَّمتُ ألا أنجذب إلى الخطابة فأكتب خواطرى أو ألقى خطبي الوعظية الصغيرة، أو آرائى بمظهر المُتنسِّك أو المُحسِن، وأن أبتعد عن البلاغة وقرض الشعر وكتابة الإنشاء، وألا أتجول فى البيت بالملابس الرسمية، أو أفعل فعلًا من هذا القبيل، وإذا كَتبتُ رسائل أن أكتبها بأسلوبٍ بسيطٍ مثل رسالته التى كتبها إلى والدتى من سينوئيسَّا، وأن أكون مُرحِّبًا بالصلح مع من أساءوا إلىَّ بمجرد أن يجنحوا للسَّلْم، وأن أقرأ بتمعُّنٍ ولا أكتفى بأفكارى السطحية أو أسارع بقبول آراء المُتفيهِقِين... من سكستوس Sextus تعلمت الأَرْيَحية، ونمطًا

من العائلة التى تُحكَم بطريقةٍ أبوية، ومفهومَ الحياة التى تُعاش وَفقًا للطبيعة، ووقارًا فى غير تكلُّف، ورعايةً مصالحِ الأصدقاء، والتسامُح تجاه الجُهَّال من الناس وتجاه راكبى رءوسهم، والتلطُّف مع الجميع بحيث كانت متعةُ الحوار معه أعظم من أى تملُّق، وكان مجرد حضوره يجلب إليه الإجلال من جميع جُلسائه" (ترجمة عادل مصطفى ومراجعة أحمد عتمان/ طبعة هنداوى / ٢٠١٩).

ونابليون فى الرواية، كما قلنا، ثعلب خبيث يكذب ويتآمر ويخون عهده كما يتنفس وأشد. لقد أصدر عند نزوله أرض مصر منشورا يتقرب فيه بشيطانية لا تبارَى إلى المصريين يزعم فيه أنه إنما أتى ليخلّصهم من ظلم المماليك، ولم يأت لاقتلاع الإسلام كما ادعى عليه أعداؤه: فهو فى طريقه إلى مصر قد خرب روما عاصمة البابوية، وطردوا من مالطة فرسان القديس يوحنا أولئك الذين يحاربون الإسلام دائما، وهو يحب النبى والقرآن ويعبد الله سبحانه ويقف مع السلطان العثمانى، وسوف يعمل بكل جهده على تقدم البلاد ومساعدتها على حكم نفسها بنفسها بالعدل والشورى بحيث يستطيع أى مصرى شغل أى منصب يصلح له ويرتفع مستوى معيشة البلاد... وحين انتهى من مقابلة محمد كريم والى الإسكندرية، الذى ظل يدافع عنها ضد الأسطول الفرنسى حتى نفدت ذخيرته ومات الكثير من رجاله، وأعاد إليه سيفه الذى كان الفرنسيون قد أخذوه منه بعد الاستسلام وأبقاه فى منصبه فى إدارة المدينة، ما إن انتهى من مقابلته وخرج من لدنه حتى أمسك بالمنشور المذكور ومزقه ورماه. وكان، وهو جالس معه، يبتسم له لكنه كان فى أعماقه يبغضه

وينظر إليه على أنه شيخ لئيم لا يوثق به. وانتهى الأمر بأن شنقه لمساعدته المصريين على مكافحة الاحتلال الفرنسى البغيض، ولم يقبل فيه شفاعة إلا أن يدفع مبلغا من المال هائلا، وهو ما رفض كريم دفع مليم منه إيمانا بأن أجله لا يستأخر ساعة ولا يستقدم. وأرى أن كريم لو كان دفع المبلغ المذكور ما أغناه ذلك عند بونابرت شيئا بل كان هذا الوغد سيختلق ذريعة أخرى لقتله.

اللوحة الثامنة

فى القاهرة، وقد أحكم نابليون قبضته، وانسحبت قوات إنجلترا، وأيضًا هرب حاكما مصر: مراد بك باتجاه الصعيد، وابراهيم بك شيخ البلاد إلى بلبيس شرقى الدلتا، ومعهما كثير من السلاح والزاد المغتصب. اتخذ الجيش الفرنسى من منطقة الخانكة موطن ارتكاز، وهدأت نيران المقاومة عدا موجات عنيفة من تجمعات المواطنين فى القرى المجاورة تفرقها المدافع الفرنسية المتوحشة، فكتب نابليون تقريرًا أرسله للإدارة فى باريس عبر فيه عن تفاؤله، وختمه بهذه العبارة التى كتبها بخط كبير مزدوج: "من الصعب أن يجد الإنسان بلدًا أكثر غنًى، وشعبًا أشد بؤسًا وجهلًا وضراوة من مصر".

واصل نابليون استخدام سلاح الخداع بادعاء الطيبة والسماحة واستمالة رجال الدين بمشاركتهم فى احتفالاتهم الدينية، وحذره فوفليه بابتسامة غبراء من حضور التجمعات العشوائية، مثل الاحتفال بالمولد النبوى الذى انتوى الظهور فيه، وموعده الغد ٢٤ أغسطس ١٧٩٨. وقد أبدى يعقوب "الحقير المرحَّب به دائمًا" القلق من هذا القرار. قال نابليون لفوفليه:

ـ كيف تكون بطلًا دون مغامرة؟ ألم تسمع عن بطلهم خالد بن الوليد، الذى ظل فى مقدمة المحاربين، ومات على فراشه وهو فى الثمانين من العمر؟ إننى أتوقع مكسبًا كبيرًا من هذه المشاركة. جهز لى جلبابًا أبيض على النمط المألوف هنا، وسوف أكون بينهم غدًا فى بيت خليل البكرى نقيب الأشراف، واعتبر الموضوع سريًّا، ولا يجب أن يعرف البكرى أو غيره بهذه الخطة قبل وصولنا إلى باب بيته. ستكون مفاجأة كاملة لهم، وسيكون معى عدد من جنودنا يتخفَّوْن فى الجلاليب البيضاء أيضًا، وخارج البيت يحرسنا عدد كاف من رجالنا من أى اشتباك محتمل. وليكن دينون إلى جوارى، فهو حكيم لبق. والآن دعنى. سوف أدرب نفسى على التمثيلية. هذه هى سورة الفاتحة. سأعيد قراءتها وحفظها: بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين. يكفى هذا الجزء (سيكون الإسلام مطيتى إليكم. ستسعدون بنابليون فرعونكم القادم).

لأول مرة يرتجف نابليون دون أن يحكى لأحد عن حالته. سأل دينون وهم فى الطريق إلى بيت البكرى:

ـ هل تشعر بالاطمئنان؟

دهش دينون للسؤال، ورجح أنه يحدث نفسه. قال هامسًا:

ـ لا أعرف.

ـ هل نفسية هؤلاء تفرز أبطالًا كثيرين وطنيين يصيرون خطرًا علينا؟

ـ معظم المحتفلين يجيدون التمايل فى حلقات الذكر. هذا ما لاحظته من قبل ودونته فى تقاريرى.

ـ عمومًا علينا ألا نخاف، فالمكان تحول إلى ثكنة عسكرية بأزياء مدنية، ومعى ما أدافع به عنى وعنك عند الضرورة.

وسط استغراب المحتفلين الذين يرتدون الجلابيب، وبعضهم يلبسون عمائم على رؤوسهم، ومعظمهم يلفون رقابهم بشريط لامع خفيف يسمونه: "تلفيعة"، والوجوه بين باسمة وساهمة، جلس نابليون إلى جوار الشيخ البكرى، عيناه فى دوار متوتر متلاحق بين عيون الحاضرين، فكل منهم عدو لا يبين. حدث نابليون نفسه: أنا المبادر دائمًا. لابد أن أقول كلمة لأحرك الرياح كما أهوى فى مسارات أقصدها. فور انتهاء قارئ القرآن من ترتيله، رفع نابليون يديه مشيرًا إلى أعلى، وإن ظل قاعدًا حمايةً لنفسه. ضبط عمامته على رأسه وحاول أن يرفع صوته ليبدو واثقًا بنفسه، ودينون يترجم كلمة بكلمة:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. نعم أيها الأحباب، فمن لا يعادينا هو حبيبنا. جئنا إليكم بالمحبة لنخلصكم من جرائم المماليك، وننشر العلوم، ونعمل بروح الإسلام الذى هو قريب جدًّا إلى قلوبنا. وأعدكم لن أضيع قطرة واحدة من النيل فى البحر، وسأقيم لكم أكبر المصانع والمزارع. اعتبرونى مبعوث الثورة الفرنسية التى قامت منذ تسع سنوات إليكم. فمن يحكم مصربإمكانه أن يغير التاريخ. ويمكنكم أن تنادونى من الآن بـ"الشيخ نابليون"، ولى الشرف أن أحظى بهذا اللقب.

ثم حياهم بيده من بعيد، ومد يده مصافحًا الشيخ البكرى، ثم أشار إليهم جميعا ليتحركوا نحوه ويصافحونه، ففعلوا. لكن نابليون لم يفصح عن سبب آخر لوجوده بينهم، وهو إعجابه الشديد بزينب ابنة البكرى، التى أصبحت من خليلاته

لجسدها الرشيق وعينيها الناطقتين. أما الشيخ البكرى فتجمعت فى وجهه غيوم الخوف والقلق معًا. وبالعربية رفع نابليون صوته فى النهاية قائلًا: الله أكبر. أكملوا طقوسكم، وأنا معكم، فقد أحببتكم.

وقف رجل فى نحو الخمسين من العمر، وقال متحاشيًا النظر إلى نابليون: هيا يا أحباب إلى الذكر رحمكم الله. وبدأ يميل برأسه يمينًا وشمالًا متناغمًا مع اهتزاز جسده واقفًا، وقد اصطف إلى جواره كل الحاضرين المتبتلين عدا نابليون، وراحوا يتطوحون، وحروف خشنة تخرج من شفاههم وحناجرهم مبحوحة، ومتماوجة: الله، الله، الله. وشيئًا فشيئًا ازدادت وتيرة التوتر والتطوح. علا صوت النداء كأنهم كورس مدرب: الله، الله، الله...

بدأ نابليون ينطق كلمات "الله، الله" تجاوبًا مع الإيقاع، ثم أمسك بلسانه، وشاهد ما انخرط فيه بعض الذاكرين من غياب عن الوعى. ومع تجليات حلقة الذكر الأخيرة سقط أحد الذاكرين مغشيًّا عليه. وكأنْ قد أصاب الجميع مس من الجن تجمعوا حوله يدلكون أطرافه، وآخرون اندفعوا لاستدعاء عم سالم المداوى، وآخرون رشوا الماء على وجهه الساكن. أثناء ذلك ارتجف نابليون، ففى مثل هذا الزحام ما أيسر أن يبرز خنجر أو تدوى طلقة رصاص على رأسه، وهى أمنية قرأها على وجوه عدد كبيرمن الذاكرين، ومن بينهم أصحاب البسمات الباردة، وما أكثرهم فى هذا الحشد الغريب عليه. وضع نابليون يده على موقع مسدسه فى جلبابه لا تقر عيناه فى مكانهما، وقد تبدل لون وجه دينون إلى الأصفر، وترقب فرصة الرحيل، وهو ما بادر إليه فور إفاقة المغمى عليه. ودع نابليون البكرى بحرارة، وحيا الجميع وكأنه صديقهم من

القدم، وقال بصوت قوى: السلام عليكم، بارك الله فيكم. ومضى محاطًا بجدران بشرية متحركة فاقمت من هلعه إلى أن اعتصم بقصره".

وفى اللوحة الرابعة عشرة (وتحديدا ص١٠٢) نقرأ: "فى الليلة التالية ازدحم قصرالبكرى نقيب الأشراف بالناس والحراس، واستقر نابليون فى الصدارة إلى جوار الشيخ البكرى، وتجمع حول نابليون، وقد ارتدى جلباباً وعمامة، عدد من رفاقه فى ساحة واسعة أمام القصر. تابع نابليون طقوس الاحتفال الذى يتذكر تفاصيله منذ عام فى المكان ذاته، وأعلن المؤذن صلاة العشاء، اصطف الحاضرون فى عدة صفوف تقدمهم الشيخ البكرى، ووقف خلفه فى الصف الأول الشيخ نابليون وسط تعجب الجميع. أكمل نابليون الصلاة، ثم صافح البكرى وقال له بود شديد: إن شاء الله نكون هنا معًا العام القادم.

فى أثناء العودة قال الداهية مونج:

ـ هل توضأت قبل الصلاة يا قائدنا؟

ـ وهل صليت لكى أتوضأ؟

وفى منتصف الليل كانت زينب".

وقرب نهاية الرواية،وكان نابليون على ظهر السفينة التى ستحمله إلى فرنسا سرا بعد أن اتسعت الخروق عليه فى مصر وبلغته أنباء اضطرابات شديدة الإقلاق فى فرنسا يقول السارد: "مد نابليون يده فى جيبه، فاصطدمت أصابعه بالسبحة التى استخدمها فى احتفالات المولد. التصق بالنافذة وطوحها إلى بعيد باتجاه الشاطئ الحزين منذ لوثه حذاء نابليون". وإذا كان الشىء فى الحديث

يجر الشيء فإنى لأذكر الآن ما قرأته منذ وقت طويل من أن طه حسين، حين صعد إلى السفينة التى سوف تقله إلى فرنسا أيضا، قد طوح بعمامته الأزهرية من فوق حاجز سطح السفينة إلى موج البحر وسط ضحكات زملائه تعبيرا رمزيا لا تخطئه العين عن انتقاله من طور إلى طور مخالف.

كل ذلك ونابليون يكره الإسلام ويتمسك بالنصرانية فى الرواية (رغم أن الثورة الفرنسية كانت معادية معاداة شديدة لله وللدين)، إذ يقول فى مفتتح الرواية حسبما رأينا: "المجد للرب ولنا، والوهم لهم"، وحين كان يحدث رجاله على سطح الباخرة قبل وصوله للشاطئ عن المصريين وما يتوقعه منهم عند بدء المعارك بينهم وبين الفرنسيين بعد دخولهم بلادهم: "سيتراجعون أمامكم، وهذه فرصتنا. لن نمنحهم فرصة التجمع، وإذا فروا لن يكروا بحق هذا الصليب المنقوش على يدى". وعندما كان فى بيت البكرى يحتفل زورا ومَيْنا بالمولد النبوى مع المسلمين بوصفه واحدا منهم وسمع دوى انفجار بالخارج لم يملك نفسه من التمتمة وقلبه منخلع: "يا يسوع، كن معى". ولا أظن أيا من هذه النصوص محتاجا إلى التعليق عليه!

ومما تركز الرواية عليه فى شخصية بونابرت كراهيته للمصريين واستهانته بهم واحتقاره لهم واستغرابه الشديد من رد فعلهم السلبى تجاه ما يهدد وجودهم من أحداث: فقد قال لضباطه وجنده وهم لا يزالون فى عُرْض البحر لم ينزلوا إلى الشاطئ بعد: "اطمئنوا، فالعدو المصرى فريسة سهلة. لقد قرأت أنهم منذ مئات السنين يفيقون بعد فوات الأوان. سنستغل صبرهم الأحمق، ونكتم أنفاسهم، ونسوقهم أمامنا كالحمير حتى يكفوا عن أناشيد الوهم. ولأنهم ضعفاء

وفقراء على رغم ثراء مواردهم الشديد سيتراجعون أمامكم، وهذه فرصتنا. لن نمنحهم فرصة التجمع، وإذا فروا لن يكروا بحق هذا الصليب المنقوش على يدى. قريبًا جدًا تصبح أراضيهم وخيراتهم ملكًا لنا، وشبابهم عبيدنا. وانقلوا عنى لجنودكم أننا بعد النصر سنوزع على كل واحد منهم ستة أفدنة بالمجان، ولكم مكافآت أخرى أكبر من المشروعات والمال والمناصب: كل ضابط منكم سيتولى مشروعًا أو قطاعًا مهمًّا يديره كيف يشاء، وينعم بخيراته دون مساءلة. أسمع صوتًا يهمهم. أفصح. ما سؤالك؟

ـ كيف ندير هذه المشروعات ونحن بلا خبرة أو تجربة؟

ـ اعتبروها ملكية خاصة، انهبوها، ولن يسألكم أحد عن الطرق العلمية، املؤوا جيوبكم. المهم أن ندخلهم الجحور أولًا ونرعبهم، أما الذين يرتشون سنرشوهم، والقلة الحرة الواعية الوطنية سنقتلهم أو نقضى عليهم، وسنوهم الشعب بعد ذلك أننا رحماء نعمل بروح الإسلام، لنستميلهم ونحولهم إلى عبيد لنا. ولا تضيقوا بقرارى بعدم اصطحاب الزوجات إلى مصر، ومن تلح عليه الرغبة أمامه المصريات. سنحولهن إلى سبايا وعشيقات بالترهيب أو بالترغيب. ومن الآن غنوا، واعزفوا الموسيقى التى تمجد فرنسا" (ص٨- ٩).

"همس لنفسه: هؤلاء المصريون الرَّعاع لا يتعلمون، فلو أن أهل هذا الشارع والشارع المجاور احتشدوا فى وقت واحد أمامنا لقتلَنا الفزع قبل أن نضغط على الزناد. لكنهم يدمنون التفرق. هنيئا لنا بكم أيها الجهلة. صاح فى أحد العساكر الذى يحمل نسخًا من المنشور الداعى للسلام والاستسلام: فى طريق عودتنا واصلوا توزيع المنشورات. ثم همس لجاره العالم الرسام دينون:

ما رأيك دينون؟ ظهرت أسنانه العلوية المضطربة وهو ينظر إلى أعلى. قال دينون الذى يصفه أصدقاؤه بالأناقة:

ـ لقد تحدثنا طويلًا عن طبائع المصريين يا قائدنا الأعلى. المصريون قابلون للترويض كالحمير تمامًا، ونستثنى العلماء والمتعلمين إلا إذا تمت رشوتهم" (ص٢٣- ٢٤).

وفى النص التالى يخاطب نابليون شيطانه كما تقول الرواية مفصحا عن نظرته للمصريين أيضا: "والآن يا شيطانى الكريم، لماذا توسوس لى بأن مصر انتصرت أيام رمسيس الثانى وتحتمس الثالث وصلاح الدين الأيوبى؟ لا تحبطنى، أرجوك. كان الناس آنذاك على علم ودين، أما المصريون اليوم فيولون أمورهم لصاحب السيف الجاهل لا للعالم العاقل. أتحداك، لن أكون أقل من الإسكندر الأكبر حتى لو تطلب الأمر إبادة الشعب بأكمله. ومن الآن سأمد يدى لليهود، وأمنحهم وطنًا، وسأنفذ خطة حفر قناة السويس بأيدى عبيد مصر، ومعى أنصارك مثل الجاسوس المحتسب يعقوب بن حنا هذا الحقير الذى نحبه، والذى أرسلت فى طلبه منذ قليل" (ص٣٠).

ولدى استقراره بقصر مراد بك بعد انتصار الفرنسيين فى معركة إمبابه نسمعه يقول لدينون القائد المقرب منه: "اقترب نابليون من مقره المؤقت فى قصر مراد بك فى الجيزة عبر دماء وأشلاء متراكمة معظمها لأحفاد خوفو، وشعت إضاءات الفرح فى صدر نابليون، وابتسمت شفتاه الحمراوان للدم الأحمر، والشوارع تعسة خرساء، تتعذب تحت حذاء نابليون وعساكره.

وصل إلى القصر... ومضى يجول فى مساحته الواسعة. قال لدينون الأنيق الذى اصطفاه نابليون رفيقًا له، وقد برز شعر صدره الأحمر وطاف بعينيه فى النقوش البارعة فى سقف القاعة، والرخام الملون يغطى الأرض، وقد نقش بأشكال ورسوم بديعة، ومُوِّه بالذهب، والأعمدة من المرمر، وفى كل زاوية تحفة ثمينة سال لها لعاب بونابرته، وقرر أن يجمعها لتكون ملكًا له، فهو مغرم باقتناء التحف. قال:

ـ كيف ترك الشعب الفقير رجلًا كهذا يعيش فى ذلك البذخ، ويبنى هذا القصر؟

رد دينون الأنيق، وقد برزت أسنانه المضطربة:

ـ شعب لا يحاسب حاكمه على البذخ يستحق الفقر والمذلة.

... واتخذ من قصر محمد بك الألفى مقرًا للقيادة والإقامة بعد ذلك حيث الفسحات مفروشات بالرخام المرمر، ونتوسط القصر نوافير بديعة، ونقل إليه أهم التحف من قصر مراد بيك لتكون تحت بصره.

اختلى بنفسه فى قاعة شاسعة مزدحمة بالنقوش والتحف، شبابيكها الكبيرة من النحاس الأصفر، وبالحوائط زخارف مرصعة بالأحجار الكريمة. قال: ما أكرم وأعبط هذا الشعب! لو أن هجومًا كاسحًا حاصر القصر الآن لعدنا إلى باريس على أجنحة الرعب العظيم. شكرًا أيها الشعب المضياف" (٤٤-٤٥).

وفى تعليق له على احتراب الفرنسيين والإنجليز فى أبى قير بالإسكندرية حول السيطرة على مصر، وفرح المصريين شماتةً فى هزيمة الفرنسيس على يد

أبناء جونبول يقول نابليون مستعجبا فى النص التالى: "فَرِحَ الناس على أرض مصر شماتة فى نابليون، الذى بمكره ودهائه سرب أخبارًا كاذبة عن أعداد هائلة من الجنود بدأت تتوالى من فرنسا. قال لبرتييه: لم كل هذا الفرح؟ إن المصريين فى قبضتنا اليوم وغدًا وإلى ألف عام. دعِّمْ قدرات ديزيه فى الصعيد، لا نريد انتكاسة هناك. ثم صافحت عيناه مياه النيل الداهشة، وقال بصوت ربما سمعه برتييه: ما أعجب المصريين! يحارب الأغراب فى مياههم، وهم يتفرجون رغم أن النهاية كارثية عليهم، وهى استمرار أحد المتقاتلين على أرضهم المستباحة. لك العجب يا مصر!" (ص٥١).

وفى أحضان عشيقته وقد شعشعت الخمر فى رأسه يقول: "ـ تخيلى يا بولين. نحن نمارس الجنس الآن على سرير مصر الكبير، ومصر كلها تحتنا. كُنَّ هنا: حتشبسوت وكليوبترا ونفرتيتى وتاوسرت، كلهن الآن تحتى بعد أن توحد اسمهن فصار بولين.

ـ انا بولين عشيقتك، وهن حولى سبايا وخادمات.

ـ أنت على حق يا بولين. والجميل أننا تخلصنا من العظيم كُرَيِّم. كنت أهتز من داخلى أمامه.

ـ حبيبى لا يهتز.

ـ لو أن من أبناء مصر مائة شخص مثل كريم لرحلنا عن مصر خلال يوم واحد. لا يكفى أن يكون الحاكم بطلا، المهم أن يكون الشعب هو البطل. هيا اقتربى منى أكثر، نحن الآن فى فراش جوزفين الخائنة، هاتى لسانك فى لسانى حتى أسكت.

قهقهها بما تبقى من الشفاه التى تلوذ ببعضها. كأنما أفاقت قالت:

ـ أنا أغار عليك يافرعون مصر، خصوصًا من الجميلة زينب.

ـ لا لا. اعتبريها جاريتك، فأنت خليلتى أمام الجميع، وفى كل الاحتفالات. سأكون سعيدًا إذا طلقك فوريه".

ولنقرأ هذا أيضا: "وفى صباح يوم ٢١ أكتوبر (١٧٩٨م) علت الهتافات فى المساجد، وعلى أسطح البيوت تنادى بالثورة. قال نابليون لبرتييه:

ـ أى ثورة وهُمْ بهذا الجهل؟ إنهم أحبوا العبودية منذ قرون طويلة. إنها مجرد شعارات ستذوب مع قدوم الليل.

وفى الليل تنامت وتمددت النداءات بين الناس تقول: لقد أفقنا. سنريكم الوجه الآخر، فقد فاض الكيل واتسخ، بينما أمر برتييه بالرد بالقوة الغاشمة بالمدافع والقنابل على أى تحرك ثورى، والقبض على من يدعون إلى القتال والتحرر، وحبسهم فى القلعة.

فى الوقت ذاته تمردت شعلة الثورة فى كل مكان، وألهبت المشاعر، فأحرق الثوار بعض مراكز الفرنسيين، وهاجموهم أينما ساروا، وكان أول قتلاهم قومندان (حاكم) القاهرة الجنرال ديبوى حيث قتله أحد الثوار بضربة رمح. اهتز لسان ديبوى بكلمات وهو فى ثوانيه الأخيرة: أهى لعنة حكمى على كريم؟ وكيف أدرك أننا سنلتقى قريبًا جدًّا؟

وفى القلعة انتقى نابليون مكانًا كاشفًا ليرى بنفسه كل شىء ولأمر آخر لم يبح به لأحد، وهو أن تكون حصنًا له إذا تغلبت الثورة. انزعج لهذا الخاطر الذى هز قلبه ودوى فى دمه، فاتسعت عيناه خوفًا وهلعًا، وشابها بريق

كالجنون! كلا يا نابليون، لا أحب أن أموت هنا، لقد تغلبت على أوربا فكيف يغلبنى شباب مصر الجهلة،؟ كلا كلا، جهلهم يحمينىء. معنا النار التى لا ترحم، آااه، وهم معهم الإنسان إذا تحرك وتجمع وأراد أن يثأر لنفسه وأهله ووطنه يصير إعصارًا يدمر كل الحسابات. الأرض أرضهم، والنيل نيلهم، وهم من علموا العالم. ماهذه التخاريف؟ لقد كانوا كانوا كانوا. هم الآن أشباه بشر، والمماليك جبناء... طلب من برتييه أن يظل إلى جواره وأن يفكرا معًا فى كل شىء. قال له مخفيًا قلقه وارتعابه: استخدم ذخيرتك كلها مع هؤلاء الرَّعاع حتى يستبد بهم الخوف فيتم إخضاعهم، ولا تقلق".

وفى اللوحة العاشرة: "قال نابليون للجنرال ديزيه قائد الحملة على الصعيد:

ـ واصل هجومك على أبناء الوجه القبلىء. لا يهم ماذا نخسر من الجنود كل يوم! الأهم ما نكسبه من الأرض ومن ولاء الناس لنا. سعادتنا بحكم مصر الفرعونية لا تدانيها سعادة. لا تقلق ديزيه. المصريون بعد حين سيصدقوننا، ويتركون رقابهم عارية لنا.

قال مونج، الذى شارك فى اللقاء من أوله، بعدانصراف ديزيه:

ـ يؤرقنى خاطر يا قائدنا، سنقدم للمصريين العلم والمعرفة والآلات الحديثة فى الطباعة وغيرها كما وعدتم. ألا تخشى أن يكون العلم سلاحهم القوى ضدنا فيما بعد؟

ـ سؤال خبيث يا مونج، والإجابة أخبث. إننا لن ننقل لهم إلا بقايا علومنا، وسيكون على نطاق ضيق، للدعاية فقط، وأنا أثق بأنهم سيذكرون فى كتب التاريخ أن بونابرته الحانى على الشعب قدم لهم التعليم والبعثات وآلات

الطباعة على طبق من ذهب، وهم أغبياء، فالطبق من دمائهم المقززة، وللأسف مع بعض دمائنا الذكية. سيظل جهلهم جوادنا الرابح يا مونج.

ـ فهمت. أما النخبة منهم فعلينا أن نعلمهم الولاء لنا، ولن ننسى أن الدين هو اللعبة الناجحة مع المتواكلين...

***

قال نابليون وهو يتمشى فى أروقة قصره الذى كان يسكنه محمد بك الألفى، وكأنه يحلم: أعرف كيف أخلد نفسى هنا: أشيد قصرا ومسجدًا عملاقًا، ثم أبنى مدينة من جيوب المصريين وأسميها مدينة بونابرته. حقا لن يستفيد الناس شيئًا، لكن المهم أن أخلد اسمى كما فعل الإسكندر الأكبر.

ـ أعرف أنك لا تهتم بالقصور، فماذا جرى؟

ـ إننى فقط أقلدهم وأريد أن أبدد ثرواتهم وأضعفهم، لا يهتم بالقصور إلا التافهون، ما علينا، تستطيع أن تلحق بالديوان".

وعند تتالى انتصار الفرنسيس فى معاركهم على أرض مصر نقرأ: "تتشعب خريطة الانتصارات كل يوم، وتمتد رقعة البلاد المستسلمة، والدماء لا تتمهل فى النهر والبر، ويتسع ذهول نابليون لهذا الفوز المتدفق فى بلاد الحضارة. يهمس: آه يا مصريين! لابد للحضارة من علم وسلاح يحميها، ها ها ها، تظنون أن مراوغة الغازى انتصارًا؟ كلا. إن فرنسا تعاقب الغازى لفرنسا بقطع قدمه ورقبته وتفجير رأسه. ماذا دهانى؟ لو فعل المصريون ذلك لكنا الآن طعامًا للأسماك فى البحر.

فى قصرالألفى التقى نابليون وبرتييه قائد الأركان والمعلم حسن الجوهرى ناظر الموارد ويعقوب الذى رقى أخيرًا إلى رتبة كولونيل. أشار ليعقوب بالبدء. قال:

ـ اتفقت وعدد من فرسان المماليك أن يعملوا مع جيشكم مقابل راتب كبير، وقطعة من الأرض تضاف إلى أملاكهم.

عندئذٍ، ترك الكلام للجوهرى الذى قال:

ـ ينفذ من الآن مع زيادة الضرائب فى الأيام القادمة.

رد برتييه دون إذن:

ـ فكرة عبقرية، فنحن نعرف أن ولاء المماليك للمال فقط. ولهذا حققنا انتصارات سهلة.

قال الجوهرى:

ـ قلنا للناس أن أحبابنا الفرنسيس جاءوا لتخليصهم من ظلم المماليك، فكيف نستعين بهم؟

قال نابليون وهو يغلق عينا ويفتح الأخرى:

ـ سنقول أننا نستعين بالطيبين منهم، والناس فى مصر نوعان، نوع جاهل، ونوع له ذاكرة السمك،. سننتصر هذه المرة لأن المصريين لم يعرفوا الحياة النيابية، سأحكى لكم بعض ما حيرنى، حين أنشأنا لمصر الديوان والديوان العام والتحق بهما كبار رجال الدولة والشيوخ بدءًا بشيخ الأزهر (على شاكلة مجلس النواب)، وهى أول تجربة فى المنطقة كلها. غامرت بحضور الجلسة الأولى، وتوقعت كلمات تعترض على إرهاب جيشنا للرعايا المصريين وتطالب بالثأر

لدمائهم، وتأهبت للدفاع عن عساكرى، وإذا بالجلسة ترفع دون كلمة واحدة، كأنهم موتى منذ زمان بعيد" (ص٨٦- ٨٧).

وبعد فشل الفرنسيين فى عكا وعودة بونابرت إلى مصر تقول الرواية عنه: "إلى النيل هفا، وقلبه صفا، النيل ينصت له، وفى داخله هواجس نيلية طافية، نعم (النيل يتآمر معى ولصالحى، النيل حمل أسطولى، وسمح له بأن ينتصر، النيل حبيبى، يجرى بصرى مع مائه كأننى ملكت أفريقيا بأسرها، مصر فى قبضة النيل، لو أننى كنت شريرًا كما يدعون لخططت لمنع مياه النيل عن مصر، لكننى لست شيطانًا قذرًا إلى هذا الحد، لأن السماح بمنع مياه النيل ضربة قاضية لمصر، ووقتها لن تستفيد فرنسا من خيرات مصر، ونحن نريد مصر كالبقرة الحلوب. مصر أغنى دولة فى العالم، وكل هذا الغنى سنحوله إلى حبيبتى فرنسا، كم أشتاق إلى نزهة على شاطئ النيل مع حبيبتى الأنثى بولين صاحبة الأنف الرومانى المتعالى والرقبة الطويلة التى إذا مالت أسكرت، ومالت معها القلوب)

ـ مرحبًا بولين. لا أشتاق إلا إليك.

ـ أعرف أنكم خسرتم الكثير فى سوريا وعكا.

ـ وكسبنا الكثير أيضًا، وغدًا نعوض الخسائر. لنبدأ نزهتنا.

ـ ألا تخاف؟ إن الناس فى غضب.

ـ خوف الناس يغلب غضبهم. أتحدث عن الأغلبية، ولهذا قلقى قليل يا جميلة".

هذا رأى نابليون فينا نحن المصريين طبقا لما ألفيتُه فى الرواية. وأترك القراء يفكرون فى هذه المسألة على أقل من مهلهم وراحتهم. لكنى أتساءل: هل فكر حقا نابليون فى حرمان مصر من ماء النيل؟ فكيف؟ وهل يقصد المؤلف إسقاط واقعنا الحالى سياسيا ونفسيا على ذلك الوقت؟ إن كل ما قيل عنا على لسان نابليون الذى فى فمه أو لسان حاله ليذكرنى بأحوالنا اليوم.

ومن سمات شخصية نابليون فى الرواية كذلك فجوره وعهره لا يتحرج من شىء ولا يحجزه عن هذا الفجور أى اعتبار مهما كان. يقول مخاطبا رجاله على سطح السفينة قبل نزولهم إلى البر: "لا تضيقوا بقرارى بعدم اصطحاب الزوجات إلى مصر. ومن تلح عليه الرغبة أمامه المصريات سنحولهن إلى سبايا وعشيقات بالترهيب أو بالترغيب. ومن الآن غنوا واعزفوا الموسيقى التى تمجد فرنسا" (ص٨- ٩).

وبعد النزول إلى الإسكندرية: "رائع هواك يا إسكندرية. حتى النساء هنا جميلات. يبدو أننى أصبت حين طلبت من الجنود ألا يحضروا معهم زوجاتهم ليتفرغوا للقتال.

ـ فوفليه، فوفليه، ادخل. ما أخبار النساء هنا؟

ـ هن جميلات سيدى القائد.

ـ هل ليعقوب أو لحافظ خبرة بهن؟

ـ أتصور ذلك، سأخبر يعقوب. لكن ثمة حل آخر، فمعنا على هذه السفينة امرأة جميلة هى زوجة ملازم يدعى: فوريه، سَرَّبَها معه فى ثياب ذكورية.

ـ أحضرْهما معًا.

فى الليلة ذاتها أرسل يعقوب امرأة فرنسية مقيمة، لتكون أولى محظيات القائد حيث راقته.

وفى الصباح مثل بين يديه الملازم فوريه وزوجته، فأسره جمالها، وحكت له عيناها عن هيامها به. وبينما كان فوريه مشغولًا بالدفاع عن نفسه وتبرير إحضاره لزوجته فاجأه نابليون بالصفح السريع عنه، وعقدت عيناه مع عينى بولين زوجة فوريه رباطًا من الإعجاب. وعند انصرافها ضغط على يدها، وضغطت على يده فى صمت صارخ.

همس لنفسه: يبدو أن مصر هى أرض المجد والحب أيضًا.

دخل نابليون وهو يمتصّ نفسًا طويلًا بعد يوم مشحون بالحركة إلى مخدع الفرنسية الجميلة، تذكر المُوَرِّد يعقوب (واضح أنه كثير المواهب هذا اليعقوب الذى يبدو جادًّا وصارمًا) قال:

ـ تعال يازهرة اللحظة. لنأكل المشويات أولًا. اجلسى هنا على رجلى.

طرقات على الباب. مَنْ هذا الوغد الذى يطرق الباب الآن؟ كيف لم يمنعه الحارس؟".

وخلال الحديث عن اهتمام نابليون بالاحتفال مع الشيخ البكرى وبعض الجماهير المصرية بالمولد النبوى فى بيت الشيخ يقول السارد بعد حكاية ما قاله نابليون فى خطبته تلك الليلة: "حياهم بيده من بعيد، ومد يده مصافحًا الشيخ البكرى، ثم أشار إليهم جميعا ليتحركوا نحوه ويصافحونه، ففعلوا. لكن نابليون لم يفصح عن سبب آخر لوجوده بينهم، وهو إعجابه الشديد بزينب ابنة البكرى، التى أصبحت من خليلاته لجسدها الرشيق وعينيها الناطقتين" (ص٥٨- ٥٩).

ولدن انصراف نابليون بعد انتهاء الحفل المذكور نقرأ: "ودع نابليون البكرى بحرارة، وحيا الجميع، وكأنه صديقهم من القدم، وقال بصوت قوى: السلام عليكم، بارك الله فيكم. ومضى محاطًا بجدران بشرية متحركة فاقَمَتْ من هلعه إلى أن اعتصم بقصره حيث سلمه فوفليه رسالة حية من كليبر تمثل فى الجميلة بولين فوريه بناء على طلبه وترحيبها. استقبلها نابليون بكثير من الرقة والشغف، قال لها: من الآن يأتمر الجميع بأمرك. أنت ملكة القصر وصاحبة بونابرته.

ـ وماذا عن زوجتك جوزفين، التى فى باريس؟

ـ لا أحب أن أذكرها أو أتذكرها، أنت كل النساء يا فاتنة القد والعيون.

ـ كأنك شاعر.

ـ كنت شاعرًا فى صباى الأول، ثم خبأت قلبى ليكون ملكًا لك.

ـ لك الطاعة فى كل أمر فى السر والعلن يا ملكى العظيم.

ـ نبدأ برقصة جديدة تعلمتها اليوم، وهى رقصة الذكر، وبدلًا من "ألله" أردد اسمك، وترددين اسمى. هيا أعلمها لك. لا أحب أن أضيع الوقت. هات يدك, دعينى أحرك رأسك مع نطق الاسم.

ـ ما أروعك سيدى.

ـ الليل بطوله لنا.

ـ وماذا عن الأعداء حول القصر وفى المدينة؟

ـ هاها. حلوة هذه الرقصة.

ـ لنلتصق أكثر، ضمنى بقوة وأنت تهز رأسك. يبدو أننى سأحبك جدًا.

ـ عيونك تسبق لسانك الفصيح.

ـ سيحضر فوريه بعد أيام، وسأعود إلى أحضانه.

ـ لا أظن. سأرسله دائمًا إلى مهمات خارج مصر.

ـ وإن اعترض؟

ـ لا أحد يقول لنابليون: لا. فكلمتى لا ترد. أنت الآن فرعونة مصرية، وأنا فرعون مصر. هيا نشرب ونعيش الحقيقة المذهلة.

ـ هل نقلل الإضاءة؟

ـ أحب أن أراك فى قلب الشمس، وأستمتع بكل خلاياك.

وقضى نابليون ليلة يحبها، هى مزيج من كل شىء وكل رغبة، قائلًا وهو يغادر عيون الشهوة: بولين هى الأفضل. قالت: وللإمبراطور الأمر والطاعة".

وفى موضع آخر: "قال نابليون لعشيقته بولين، التى كانت تعمل بائعة للقبعات: هذه ليلة العمر، فاستعدى بأجمل ما عندك، وأغرقى السرير بالعطر. لقد قتلنا اليوم نصف شعب مصر، لكن ما أغاظنى أنه لم يخبرنا بمكان أمواله، لقد كان ذكيًّا جدًّا وشجاعًا جدًّا.

قالت بولين: ـ لا أفهم.

ـ لو أنه دفع الدية لإنقاذ حياته كنا سنقتله أيضًا، لكن فى اليوم التالى. هكذا كانت الأوامر.

ـ يالك من مخادع يا سيدى! إياك أن تخدعنى أنا أيضًا. طبعًا أنا أداعب حبيبى نابليون.

حدث نفسه بصوت غير مسموع: لقد خدعتنى زوجتى جوزفين الفاتنة، التى سحرتنى بجمالها وشخصيتها. لقد تناسيت أنها تكبرنى باثنى عشر عامًا (لماذا يا

جوزفين تنامين تحت عشيقك الصغير إيبوليت شارل؟). كم هى قاسية! أنا أنتصر كل يوم فى أوربا، وهى تنتصر لشهوتها كل يوم على سريرى فى باريس! ياللمهانة! ألم تتذكر يومًا كلمات رسائلى اليومية إليها (النحيلة ذات الرائحة الحلوة والفم الآسر جوزفين، إنى أحبك أكثر من كل شىء يتصوره العقل. كل لحظة من حياتى فى خدمتك، إننى أقضى كل الساعات فى التفكير فيك، ولم يخطر على بالى أن أفكر فى فتاة غيرك. فقوتى وذراعاى وعقلى كلها لك. إن روحى فى جسدك، والأرض لا تبدو جميلة فى عينى إلا لأنك تسكنينها. ألف قبلة على عينيك، على شفتيك، على لسانك، على...). كدت أستعيد كتابة الشعر من جديد من أجلك، وتحملت عضة الكلب لأننى كنت فى الطريق إليك. كيف يا جوزفين نسيت كل هذا الكلام ونمت مع إيبوليت شارل؟ ما أبشعك يا امرأة! يبدو أن الطلاق هو الحل الوحيد، فأنت تجاهرين بكل شىء، بكل شىء بلا تحفظ، تثقين فى ضعفى بين أحضانك. أفاق من سروحه، قال لبولين:

ـ لا أحد يمكنه أن يخدع امرأة جميلة، فما بالك ببولين الجبارة؟ هيا إلى مزيد من الخمر والسكر والأحضان والعشق والذوبان فى صحة الشيخ كريم. ورفع رأسه إلى أعلى قائلًا: تحيا فرنسا المتعلمة القوية.

بعد قليل وقد لعبت الخمر بحواسه، قال:

ـ تخيلى يا بولين، نحن نمارس الجنس الآن على سرير مصر الكبير، ومصر كلها تحتنا. كُنَّ هنا: حتشبسوت وكليوبترا ونفرتيتى وتاوسرت، كلهن الآن تحتى بعد أن توحد اسمهن فصار بولين.

ـ أنا بولين عشيقتك، وهنّ حولى سبايا وخادمات.

ـ أنتِ على حق يا بولين" (ص٦٧- ٦٩).

وقُرْبَ نهاية الرواية وقبل أن يترك نابليون مصر بقليل: "ـ أشرقتْ بولين الجميلة.

ـ أوحشْتَنى أيها السلطان الكبير. يا إمبراطور العالم، أحبك وأخاف عليك من أهوال الحروب.

ـ إنها عملى المحبوب يا بولين، وهى كالنزهة بالنسبة لى. أرسلت إليك لتكونى نجمة الليلة معنا على مائدة اللعب أنا وأصدقائى. ستعزفين لنا على الفيوليت فى البداية، ثم تشاركيننا لعب الورق فى الجولة الثانية، ولك المكسب، وعلىَّ تكلفة الخسارة.

ـ رائع. هيا ألف حضن فى حضن واحد! كم أوحشتنى، لكنْ أنت لست على ما يرام. هكذا حدثنى جسدك، هل ستعترف لى؟

ـ وما فائدة الاعتراف، وميداننا هو السرير الجميل؟ بعد ساعة نبدأ لعب الورق. استعدى للعزف.

سحب نابليون كراس المذكرات ليكتب على ضوء الفوانيس والشموع الموقدة ما يعنّ له:

قال: ليتنى كنت شاعرًا أذيب القلوب. يحلو لى أن استحلب ذكريات الحب. كتب:

× بدون المرأة لا يكون هناك صحة ولا سعادة.

× شيء مضحك حقًا، لقد كتبت منذ سنوات: كم يكون جميلًا لو تخلصنا من الحب فيرتاح الناس.

× على كل حال لايمكن أن أنسى أول وأقوى حب استولى على قلبى، وهو عشقى الجنونى للفتاة إيما، وكنت آنذاك فى الثامن عشر من عمرى، كنت ضابطًا صغيرًا. أغرقتها بخطابات الغرام، لكنها صدتنى صدودًا قاتلًا جعلنى أفكر فى الانتحار بالرغم من أن عشيقاتى بالعشرات، ومنهن تلك المرأة التى عشقتنى فى بلدى جزيرة كورسيكا (كانت تابعة لإيطاليا). أرادت تلك المرأة أن تستأثر بى، ولم أكن أهواها، فوضعت لى السم فى الشراب، لولا أمى التى أنقذتنى. أما السيدة كاترين أورسولا فقد تناغمت مشاعرى معها، وهى زوجة لأحد الجنرالات الكبار، وبالحب صرت قائدًا لحملة إيطاليا. هكذا يكون الحب مفيدًا، كما أننى أنتوى أن أغدق عليها وعلى زوجها إذا أصبحت إمبراطورًا لفرنسا.

× إننى أعترف أننى أتهور أحيانًا باعتبار أن الحياة مجرد لعبة، ولنا الحق أن نتجاوز أصولها. ففى أغسطس ١٧٩٤، أى منذ خمسة أعوام، قابلت لويز جوتييه فى بلدة كيرو، وهى فى شهر العسل مع زوجها تورو الضابط المهم، كانت مولعة بقصار القامة، جمعها معى عشق خاطف وجاد له آثار مدوية، كنت حينذاك شابًّا فى مقتبل العمر، شعرت بالفخر لتجاوبها الشبق معى، قررت أن أثبت لها قدراتى، وهذا حقى، وإن تم على حساب أرواح الآخرين. كنا معًا فى سياحة بضواحى جبال تند، وومضت فى عقلى فكرة غريبة، وهى أن أشعل لها خصيصًا حربًا صغيرة لتشاهدها من باب التسلية، ودون تباطؤ،

أصدرت أوامرى لإحدى الوحدات المقاتلة بأن تهاجم العدو الأوربى بكافة الأسلحة، فهبت حرب صغيرة، وأنا وهى نصفق معًا، وكالعادة كسبت المعركة المفتعلة، وفقدنا عددًا من جنودنا. المهم أن لويز كانت سعيدة ومبتسمة، وأنا كذلك، وإن كنت لمت نفسى بعد ذلك. واكتملت الصورة بانتحار زوجها تورو. لكننى لا أرى الفارق كبيرا بين ما فعلته وما فعله الفرعون الشهير أمنحتب الذى صنع لزوجته بحيرة كبيرة بطول كيلومترين على الأقل فى الصحراء خلال أسبوعين فقط مات خلالها مئات العمال دون مقابل، لكنه وزوجته استمتعا بمنظرها، وهذا يكفى. أعدك يا بولين إذا عدت إلى مصر أن أصنع لك بحيرة مماثلة نضحك على ضفافها، ولا تشغلى بالك بعدد الضحايا، فهم ميتون فى كل الأحوال، وعبيد لنا. وإذا كان أمنحتب، وهو مصرى مثلهم، لم يرحمهم فهل يتوجب على الأجنبي بونابرته أن يعاملهم كبشر، ويرعى حقوقهم؟

× آه، لم أحدثكم عن الملل الذى يصيبنى مع بعض عشيقاتى، فأضطر إلى استبدالهن، إلا أننى فى كل مرة أغدق عليهن من مال البلاد، وأتمنى ألا أكون قد سئمت من بولين الجميلة، فهى تفهمنى جيدًا. أما زوجتى جوزفين فهى الوحيدة التى تقهرنى حين أدخل إلى خدرها، بل تبدل أفكارى. ولهذا أخشى أن تستخدم سحرها، فأتخلى عن قرار الطلاق. وإن حدث ذلك سأظل أكرهها بعقلى، أما قلبى فحكاية أخرى. يااه، لماذا لا يسأم الإنسان من الحب؟".

ومع كل ما قاله نابليون عن المصريين، وهو رأى سيئ للغاية، إذ هم عنده متبلدون خانعون يَرْضَوْن بالمذلة والخضوع لكل من يحكمهم وينكل بهم ويأكل حقوقهم فى العزة والكرامة والعيش الهنىء، فإنهم لم يستكينوا للغزو الفرنسى رغم الفارق العسكرى والحضارى والعلمى والاقتصادى والثقافى الرهيب بين الطرفين. لقد وقف السيد محمد كريم ورجاله فى وجه الأسطول الإنجليزى الذى سبق وصول الحملة الفرنسية بقليل ولم يوافقوا على إمداده بأى شىء كانوا فى حاجة إليه، فانصرفوا. وحين وصل الأسطول النابليونى بعد ذلك بذل كريم وأهل الإسكندرية كل ما فى استطاعتهم لصده ومنعه من النزول فى مدينتهم إلى أن انتهى ما فى أيديهم من أسلحة وذخائر.

وحتى بعد أن دخل الفرنسيون الإسكندرية وقبضوا على السيد محمد كريم واعتقلوه فترة من الوقت ثم أطلقوه وعهدوا إليه بالاستمرار فى حكم الإسكندرية ظل يساعد الفدائيين فى حربهم ضد الفرنسيين إلى أن اكتشفوا أنه لا يزال على موقفه الأول منهم ثم أعدموه أعدمهم الله. وقد حاول نابليون التظاهر باعتناق الإسلام وارتدى العمامة والجلباب وشهد احتفالات مولد النبي، وقبل ذلك أصدر منشورا طويلا يتقرب فيه إلى المصريين زاعما حبهم وحب بلادهم ورغبته فى إصلاح أمورها وحمايتهم من الأسطول الإنجليزى. لكن ذلك كله لم يأت بالنتيجة المرجوة، إذ انتهى أمر الحملة الفرنسية إلى الخسار والبوار بعد فشلهم فى فتح عكا وارتدادهم عن أسوارها خاسئين مدحورين تاركين خلفهم آلاف الجثث هناك. وخلال الفترة القصيرة التى قضتها الحملة الفرنسية على بلادنا قامت ثورتان ضخمتان، وظلت البلاد مشتعلة

بالمقاومة والرفض رغم شيوع الفساد بين بعض طوائف المصريين بالقاهرة إذ تشبهوا بالفرنسيين فى السلوك والانفلات الخلقى فى الجنس والخمور وما إلى ذلك. ولا ينبغى أن ننسى المساعدة العسكرية التى تلقاها المصريون من دولة الخلافة والأسطول البريطانى ومقتل كليبر الخنزير النجس على يد البطل الشامى سليمان الحلبى قدس الله روحه وتقبله فى الأبرار المؤمنين. ويضاف إلى ذلك مغادرة نابليون لمصر إلى فرنسا هاربا كاللصوص لما بلغه من اضطراب الأوضاع فى فرنسا.

فالرواية تبدأ بنابليون وهو مقبل على غزو مصر كله ثقة وغرور يصل إلى ما يقارب الانفجار، وانتهت بفراره كالكلب الجريح الذى يعوى من الألم. ومع هذا ظلت أحوال الشعب المصرى لم تتغير كثيرا حتى الآن. وواضح موقف المؤلف من تلك الأوضاع، فهو يهدى روايته "إلى الليل الطويل" الذى غلف حياة المصريين قبل وبعد الحملة الفرنسية، التى يرى فيها المنبطحون على بطونهم، ككل شاذ عديم الرجولة والذكورة معا، طاقة تنوير وتحضر بينما هى ويل وعذاب وقسوة لا إنسانية وهلاك الآلاف المؤلفة من أهالينا. وما زلنا حتى الآن، رغم أخذنا بالأنظمة والأدوات والوسائل والمؤسسات الحديثة، نعانى من الضعف السياسى ولا نستطيع ابتكارا أو اختراعا أوتطويرا ذا قيمة تذكر فى أى مجال، إذ نحن بوجه عام شعوب مستهلكة لا منتجة، ولا قيمة لنا فى المعترك الدولى لا سياسيا ولا علميا ولاصناعيا حتى إننا لم نستطع استرداد الجزء الذى اغتصبه الصهاينة من فلسطين ونخشى أن نفقد الجزء القليل الباقى، وكذلك تدفع الدول العربية الثرية الجزية لأمريكا تحت مسميات خادعة، وهى

جزية كان يمكنها لو كانت هناك إرادة وكرامة وقوة ونية طيبة أن تغنى العالم العربى غنى رائعا بديعا.

ومن الملاحظ فى الرواية الاهتمام بالكلام عن الفراعنة، ولا يتلبث هذا الأمر فى الظهور بل هو بارز منذ بدايتها: من سطرها الثالث على وجه التعيين، وذلك حين كان بونابرت راكبا باخرته ضمن حملته على مصر للاستيلاء عليها وعلى الشرق. لقد بدأت الرواية كالتالى: "المجد للرب ولنا، والوهم لهم.

لست قلقًا، لقد قرأت البحر, والبحر أستاذ الذكريات, أسمعه الآن:

ـ ذات يوم يا بونابرته (بونابرت) كان الفراعنة هم سادتى، وبأمرهم أأتمر. لست منافقًا، لكننى دائمًا أخضع للقوى، ولهذا تجدنى ألعب معك ولصالحك الآن ما دمت تملك المدفع الجبار والبندقية الحديثة. هو شاعر واهم من يتصور أننى أضحك له وأبكى، وأصارحك بأنه إذا تفوق عليك الأسطول الإنجليزى الذى يتعقبك فى البحار سأكون عونًا له عليك أيضًا يا صاحب العينين الرماديتين. أما أقاليم الخلافة (من العرب وغيرهم) فقد نَسِيتُهم ونَسُونى، فهم دائمًا فى انتظار المدد من الغير أو من السماء، وهم غارقون فى عسل الأمنيات".

ونابليون فى كلامه هذا يقصد إلى القول بأن المصريين وغيرهم من المسلمين يؤمنون بالجبر والتسيير لا التخيير. وكان الغربيون ولا يزالون يتهمون الإسلام بأنه هو السبب، إذ تتكرر فيه الآيات التى تنسب كل شىء فى الكون إلى مشيئة الله المطلقة التى تسيطر على العالم كله لا يندّ عنها أحد كما فى الآية التالية وأمثالها: "من يَهْدِ اللهُ فلا مضلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هادىَ له". بَيْدَ أنّ

المطلع على كتاب الله يجد، بجانب هذه الآية وما يماثلها، آيات أخرى تعزو للإنسان مشيئة هو أيضا، وعلى أساسها سوف يحاسَب، ولكن لن يكون الحساب مطلقا يتبع منوالا واحدا مع الجميع بل تؤخذ ظروف كل منا فى الاعتبار: "لا يكلف الله نفسا إلا وسعها". نعم نحن خاضعون لمشيئة الله طول الوقت، إذ الله هو خالق الكون بكل ما فيه وخالق قوانينه، التى تدور عليها حياتنا وحياة المخلوقات جميعا، ومن هذه القوانين أنه وهب لنا مشيئة، لكنها مشيئة جزئية، ولن نحاسب على ما يقع خارجها كما أشرت. أى أن مشيئتنا من مشيئة الله. فمشيئة الله اقتضت أن تكون لنا بدورنا مشيئة. وقد تتبعت فى القرآن الآيات التى تتحدث عن المشيئة الإنسانية فألفيتها ترافق الإنسان مذ كان يعيش فى الجنة الأولى إلى أن نزل إلى الأرض وسوف ترافقه فى الدنيا وستكون معه فى الجنة. وعلى ذلك فإذا كانت الآية تتحدث عن مشيئة الله المطلقة فلأن الموضوع فى هذه الحالة يستلزم النظر إلى الأمر من الأفق الإلهى، أما إذا تعلق الموضوع بالبشر ومشيئتهم فالمفهوم أن الكلام عن المشيئة الجزئية. ويمكن ضرب المثل التالى على ما أقول: فلو صورنا مشيئة البشر بنطاق جغرافى مسيّج بسياج لا يمكن القفز فوقه والخروج منه ولكن يمكننا التحرك داخله بحرية كانت مشيئة الله هى المشيئة التى أرادت أن نتمتع بتلك الحرية النسبية، وهى مشيئة تنتظم الكون كله لا ذلك النطاق المحدود فحسب.

أما حكاية إيمان المسلمين بالجبر فلا علاقة له بالإسلام من قريب أو من بعيد، وإنما اتخذه الغربيون أداة يشنعون بها علينا حتى يضعوا فى أذهان المسلمين أن دينهم دين التخلف، وإلا لقد كان ينبغى أن يبتهج نابليون بكفاح الشعب

المصرى لحملته واشتعال الثورات ضده وضد تلك الحملة فى أرجاء القطر بوصف ذلك إيمانا بالحرية وممارسة لها كالغربيين تماما، ولكان يجب إعطاء سليمان الحلبى نوط الشجاعة والشهامة لأنه أثبت أن المسلم ليس جبريا بل حرا، إذ لو كان جبريا لقعد فى كسر بيته واضعا يده على خده كتنابلة السلطان منتظرا أن ينزل عليه من السماء ما يحتاجه من الطعام والشراب وهو نائم فاغر فاه لتلقى رزق السماء الجاهز للأكل والبلع دون حاجة إلى تنظيف أو تقطيع أو إعداد أو غرف فى الصحون أو غسل للأيدى أو جلوس إلى المائدة... إلخ. ولو كانت عقيدة القضاء والقدر سيئة بهذا الشكل لكان أحرى بالكسل والبلادة والهزيمة والفقر والجهل والعجز وانتشار الأمراض المسلمون الأوائل إذ كان إيمانهم بالإسلام وبالقرآن أقوى كثيرا جدا جدا من إيماننا نحن الآن. أليس كذلك؟ لكننا ننظر فنلفيهم يتوثبون حيوية وعزيمة وطموحا ويقبلون فى معاركهم مع أعدائهم على الموت إقبال أولئك الأعداء على الحياة. فهذا يدل على أن كلام الغربيين فى تلك القضية كلامٌ عَرِىٌّ عن الصواب تماما. نعم المسلمون الآن ومنذ قرون متخلفون بالنسبةإلى الغربيين ومتبلدون ساقطو الهمم ويخشون أعداءهم بل يرتعبون منهم. وهم على مدار عامين كاملين يشاهدون ما ينزل بإخوانهم فى غزة من دمار وتقتيل وحصار وتجويع وتعطيش وتشويه للأجساد وإفقار ومحاولات دائبة للتيئيس، ولم يفكروا فى مناصرتهم ولم يحاولوا فك حصارهم ولم يتألم لأحدهم، شعوبا أو حكومات، قلب لما يرونه يقع للأطفال والحرائر والشيوخ الفلسطينيين بل ساعدوا الصهاينة ضدهم. وهذا، كما نعرف جميعا، هو محادّة لما يقوله الله لهم من وجوب الوقوف جنبا إلى

جنب مع إخوانهم المظلومين المضطدين، ومناقضة لما تقتضيه عقيدةالقضاء والقر.

وقد قال نابليون هو نفسه إنه يخشى من تأثر المصريين بالقرآن إذا فهموه على حقيقته لأنه يحضهم على الاستقلال والعزة والكرامة والثورة على الظلم والجهاد ضد المعتدين ويتوعد من يهمل ذلك بالخزى فى الدنيا والآخرة! يقول بونابرت مخاطبا فى الخيال الإمبراطور الرومانى أوريل صاحب كتاب "التأملات": "ها أنذا أعمل بحرية لنهب خيرات مصر وغيرها لصالح فرنسا، لتكون سيدة الأرض بلا جهل يدمرها، شكرًا أوريل على نصائحك، المهم أولًا أن أجيد اللعب بتأثير القرآن على الرعية المصريين، فهو الخطر الأول علينا إذا عملوا بما فيه. والشيخ محمد كريم أحد ثمرات هذا القرآن، ترى ماذا يفعل وفدنا الآن مع محمد كريم؟" (ص١٤- ١٥).

وتكمن المشكلة فى العقل الذى يقرأ القرآن: فالمسلمون فى عز مجدهم وتألقهم العقلى والفكرى كانوا كلهم حيوية وطموحا وثقة بالنفس مستقاة من ثقتهم بالرب وعمل على إعداد كل ما يستطيعون من أجل إحراز التقدم والتحضر والعيش الكريم الراقى، ولكنهم مع انحطاط عقولهم وانحلال عزيمتهم صاروا هامدين كالموتى لا يكادون يتحركون للأمام ولا يفكرون أن يقفوا وقفة رجولية فى وجد من يريدهم بسوء، وتحول الإسلام العظيم على أيديهم وفى نفوسهم إلى معوّق لا محفِّز. وما أكثر ما أضحك وأنا أقرأ ما تستشهد به الفنانات على وجود الاعتقاد فى قدرة العين أو الكلمة فى القرآن حين يمرضن أو يطلقن أو تنقلب سيارة لهن مثلا، إذ ما أسرع أن تعزو الواحدة منهن تلك

المصيبة إلى الحسد (تقصد العين)، و"الحسد مذكور فى القرآن"! وهذه الفنانة لا تصلولا تصوم ولاتحتشم فى ملابسها وتحرص على الظهور فى أحدث صرعات الفساتين وأشدها إثارة للشهوات وتدعو إلى المرافقة قبل الزواج وتعلن عن تفضيلها للعيش "سنجل"، وهى الكلمة الوحيدة التى تعرفها من الإنجليزية، وتصم كل من يتدين بأنه متخلف... ولكنها تنسى هذا كله حين تنسب مثلا انقلاب سيارتها بها إلى عيون الحاقدات عليها وقَرّهِنّ ونَبْرِهِنّ لا إلى رعونتها فى السواقة أو قيادتها للسيارة وهى سكرى أو إلى سوء حال الطرق أو مجاوزتها للحد الأقصى للسرعة... أو أو أو. أبدا لا سبب إلا الحسد (تقصد العين)، والحسد مذكور فى القرآن. وهذا كل ما تعرفه عن القرآن والإسلام. ترى ما ذنب القرآن والإسلام هنا؟ إن المشكلة فى العين التى تقرأ، والمخ الذى يفهم! وأمخاخنا اليوم بوجه عام أمخاخ "عَجّالِى"!

وقد كتب محمد عبده فى هذه القضية كلاما رائعا بديعا، وإن كانت له لغة تختلف عن لغتى، وزاوية من النظر تختلف عن زاويتى. قال رحمه الله: "من ذلك عقيدة القضاء والقدر التى تعد من أصول العقائد فى الديانة الإسلامية الحقة, كثر فيها لغط المغفلين من الإفرنج وظنوا بها الظنون, وزعموا أنها ما تمكنت من نفوس قوم إلا وسلبتهم الهمة والقوة, وحكّمت فيهم الضعف والضعة, ورموا المسلمين بصفات, ونسبوا إليهم أطوارًا, ثم حصروا علتها فى الاعتقاد بالقدر. قالوا: إن المسلمين فى فقر وفاقة وتأخر فى القوى الحربية والسياسية عن سائر الأمم, وقد نشأ فيهم فساد الأخلاق، فكثر الكذب والنفاق والخيانة والتحاقد والتباغض وتفرقت كلمتهم وجهلوا أحوالهم الحاضرة

والمستقبلة, وغفلوا عما يضرهم وما ينفعهم, وقنعوا بحياة يأكلون فيها ويشربون وينامون, ثم لا ينافسون غيرهم فى فضيلة, ولكن متى أمكن لأحدهم أن يضر أخاه لا يقصر فى إلحاق الضرر به, فجعلوا بأسهم بينهم, والأمم من ورائهم تبتلعهم لقمة بعد أخرى. رضُوا بكل عارض, واستعدوا لقبول كل حادث، وركنوا إلى السكون فى كسور بيوتهم يسرحون فى مرعاهم ثم يعودون إلى مأواهم. الأمراءُ فيهم يقطعون أزمنتهم فى اللهو واللعب ومعاطاة الشهوات، وعليهم حقوق وواجبات تستغرق فى أدائها أعمارهم ولا يؤدون شيئًا منها. يصرفون أموالهم فيما يقطعون به زمانهم إسرافًا وتبذيرًا. نفقاتهم واسعة، ولكن لا يدخل فى حسابها شيء يعود على ملتهم بالمنفعة. يتخاذلون ويتنافرون وينيطون المصالح العمومية بمصالحهم الخصوصية, فرب تنافر بين أميرين يضيع أمة كاملة, كل منهما يخذل صاحبه ويستعدى عليه جاره، فيجد الأجنبى فيهما قوة فانية وضعفًا قاتلًا، فينال من بلادهما ما لا يكلفه عددًا ولا عُدّة. شملهم الخوف وعمهم الجبن والخور, يفزعون من الهمس ويألمون من اللمس. قعدوا عن الحركة إلى ما يلحقون به الأمم فى العزة والشوكة, وخالفوا فى ذلك أوامر دينهم مع رؤيتهم لجيرانهم، بل الذين تحت سلطتهم، يتقدمون ويباهونهم بما يكسبون, وإذا أصاب قومًا من إخوانهم مصيبة أو عَدَت عليهم عادية لا يَسْعَوْن فى تخفيف مصابهم, ولا ينبعثون لمناصرتهم, ولا توجد فيهم جمعيات ملية كبيرة لا جهرية ولا سرية يكون من مقاصدها إحياء الغيرة وتنبيه الحميَّة ومساعدة الضعفاء وحفظ الحق من بغى الأقوياء وتسلط الغرباء.

هكذا نسبوا إلى المسلمين هذه الصفات وتلك الأطوار, وزعموا ألا منشأ لها إلا اعتقادهم بالقضاء والقدر وتحويل جميع مهماتهم على القدرة الإلهية, وحكموا بأن المسلمين لو داموا على هذه العقيدة فلن تقوم لهم قائمة ولن ينالوا عزًّا ولن يعيدوا مجدًا, ولا يأخذون حقًّا ولا يدفعون تعديًا, ولا ينهضون بتقوية سلطان أو تأييد ملك, ولا يزال بهم الضعف يفعل فى نفوسهم ويُرْكِس من طباعهم حتى يؤدى بهم إلى الفناء والزوال (والعياذ بالله). يفنى بعضهم بعضًا بالمنازعات الخاصة, وما يسلم من أيدى بعضهم يحصده الأجانب. واعتقد أولئك الإفرنج أنه لا فرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر وبين الاعتقاد بمذهب الجبرية القائلين بأن الإنسان مجبورٌ محضٌ فى جميع أفعاله, وتوهموا أن المسلمين بعقيدة القضاء يرون أنفسهم كالريشة المعلقة فى الهواء تقلبها الرياح كيفما تميل, ومتى رسخ فى نفوس قوم أنه لا اختيار لهم فى قول ولا عمل ولا حركة ولا سكون، وإنما جميع ذلك بقوة جابرة وقدرة قاسرة، فلا ريب تتعطل قواهم, ويفقدون ثمرة ما وهبهم الله من المدارك والقوى, وتَمَّحِى من خواطرهم داعية السعى والكسب, وأجدر بهم بعد ذلك أن يتحولوا من عالم الوجود إلى عالم العدم. هكذا ظنت طائفة من الإفرنج, وذهب مذهبَها كثيرون من ضعفاء العقول فى المشرق. ولست أخشى أن أقول: كذب الظانُّ، وأخطأ الواهم، وأبطل الزاعم، وافتروا على الله والمسلمين كذبًا. لا يوجد مسلم فى هذا الوقت من سنى وشيعى وزيدى ووهابى وخارجى يرى مذهب الجبر المحض, ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة, بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزاءً اختياريًّا فى أعمالهم, ويسمى بـ"الكَسْب"، وهو مناط الثواب والعقاب

عند جميعهم, وأنهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء الاختيارى, ومطالبون بامتثال جميع الأوامر الإلهية والنواهى الربانية الداعية إلى كل خير الهادية إلى كل فلاح, وأن هذا النوع من الاختيار هو مورد التكليف الشرعى, وبه تتم الحكمة والعدل. نعم كان بين المسلمين طائفة تسمى بـ"الجبرية" ذهبت إلى أن الإنسان مضطر فى جميع أفعاله اضطرارًا لا يشوبه اختيار, وزعمت ألا فرق بين أن يحرك الشخص فكه للأكل والمضغ وبين أن يتحرك بقفقفة البرد عند شدته, ومذهب هذه الطائفة يعده المسلمون من منازع السفسطة الفاسدة, وقد انقرض أرباب هذا المذهب فى أواخر القرن الرابع من الهجرة ولم يبق لهم أثر. وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر ولا من مقتضيات ذلك الاعتقاد كما ظنه أولئك الواهمون. الاعتقاد بالقضاء يؤيده الدليل القاطع, بل ترشد إليه الفطرة, ويسهل على كل من له فكر أن يلتفت إلى أن كل حادث له سبب يقارنه فى الزمان, وأنه لا يرى من سلسلة الأسباب إلا ما هو حاضر لديه, ولا يعلم ماضيها إلا مبدع نظامها, وأن لكل منها مدخلًا ظاهرًا فيما بعده بتقدير العزيز العليم. وإرادة الإنسان إنما هى حلقة من حلقات تلك السلسلة, وليست الإرادة إلا أثرًا من آثار الإدراك, والإدراك انفعال النفس بما يعرض على الحواس, وشعورها بما أودع فى الفطرة من الحاجات, فلظواهر الكون من السلطة على الفكر والإرادة ما لا ينكره أبله فضلًا عن عاقل, وأن مبدأ هذه الأسباب التى ترى فى الظاهر مؤثرة إنما هى بيد مدبر الكون الأعظم الذى أبدع الأشياء على وفق حكمته, وجعل كل حادث تابعًا لشبهه كأنه جزء له، خصوصًا فى العالم الإنساني. ولو فرضنا أن جاهلًا ضل عن الاعتراف بوجود

إله صانع للعالم فليس فى إمكانه أن يتملص من الاعتراف بتأثير الفواعل الطبيعية والتأثيرات الدهرية فى الإرادات البشرية, فهل يستطيع إنسان أن يخرج بنفسه عن هذه السنة التى سنها الله فى خلقه؟ هذا أمر يعترف به طلاب الحقائق فضلًا عن الواصلين, وإن بعضًا من حكماء الإفرنج وعلماء سياستهم التجأوا إلى الخضوع لسلطة القضاء وأطالوا البيان فى إثباتها, ولسنا فى حاجة إلى الاستشهاد بآرائهم. إن للتاريخ علمًا فوق الرواية عُنِىَ بالبحث فيه العلماءُ من كل أمة, وهو العلم الباحث عن سير الأمم فى صعودها وهبوطها وطبائع الحوادث العظيمة وخواصها وما ينشأ عنها من التغيير والتبديل فى العادات والأخلاق والأفكار, بل فى خصائص الإحساس الباطن والوجدان, وما يتبع ذلك كله من نشأة الأمم وتكوُّن الدول أو فناء بعضها واندراس أثره. هذا الفن الذى عدوه من أجلِّ الفنون الأدبية وأجزلها فائدة، بناء البحث فيه على الاعتقاد بالقضاء والقدر والإذعان بأن قوى البشر فى قبضة مدبر للكائنات ومصرف للحادثات, ولو استقلت قدرة البشر بالتأثير ما انحط رفيع ولا ضعف قوى, ولا انهدم مجد ولا تقوض سلطان. الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر يتبعه صفات الجراءة والإقدام وخلق الشجاعة والبسالة, ويبعث على اقتحام المهالك التى ترجف لها قلوب الأُسود, وتنشق منها مرائر النمور. هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات واحتمال المكاره ومقارعة الأهوال, ويحليها بحلى الجود والسخاء, ويدعوها إلى الخروج من كل ما يعز عليها, بل يحملها على بذل الأرواح والتخلى عن نضرة الحياة، كل هذا فى سبيل الحق الذى قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة. الذى يعتقد بأن الأجل محدود, والرزق مكفول, والأشياء بيد

الله يصرفها كما يشاء، كيف يرهب الموت فى الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته أو ملته, والقيام بما فرض الله عليه من ذلك؟ وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله فى تعزيز الحق وتشييد المجد على حسب الأوامر الإلهية وأصول الاجتماعات البشرية؟

امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيلته فى قوله الحق: "الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ * فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ" (آل عمران: ١٧٣-١٧٤). اندفع المسلمون فى أوائل نشأتهم إلى الممالك والأقطار يفتحونها ويتسلطون عليها فأدهشوا العقول وحيروا الألباب بما دوخوا الدول وقهروا الأمم, وامتدت سلطتهم من بلاد بيرينى الفاصلة بين أسبانيا وفرنسا إلى جدار الصين مع قلة عددهم وعدم اعتيادهم على الأهوية المختلفة وطبائع الأقطار المتنوعة. أرغموا الملوك وأذلوا القياصرة والأكاسرة فى مدة لا تتجاوز ثمانين سنة. إن هذا لَيُعَدّ من خوارق العادات وعظائم المعجزات. دمروا بلادًا ودكدكوا أطوادًا, ورفعوا فوق الأرض أرضًا ثانية من القسطل وطبقة أخرى من النقع, وسحقوا رؤوس الجبال تحت حوافر جيادهم وأقاموا بدلها جبالًا وتلالًا من رؤوس النابذين لسلطانهم, وأرجفوا كل قلب وأرعدوا كل فريصة, وما كان قائدهم وسائقهم إلى جميع هذا إلا الاعتقاد بالقضاء والقدر. هذا الاعتقاد هو الذى ثبتت به أقدام بعض الأعداد القليلة منهم أمام جيوش يغص بها الفضاء ويضيق بها بسيط الغبراء، فكشفوهم عن مواقعهم وردوهم على أعقابهم. بهذا الاعتقاد لمعت سيوفهم بالمشرق,

وانقضت شهبها على الحيارى فى هبوات الحروب من أهل المغرب, وهو الذى حملهم على بذل أموالهم وجميع ما يملكون من رزق فى سبيل إعلاء كلمتهم لا يخشَوْن فقراً ولا يخافون فاقة. هذا الاعتقاد هو الذى سهل عليهم حمل أولادهم ونسائهم ومن يكون فى حجورهم إلى ساحات القتال فى أقصى بلاد العالم كأنما يسيرون إلى الحدائق والرياض, وكأنهم أخذوا لأنفسهم بالتوكل على الله أماناً من كل غادرة وأحاطوها من الاعتماد عليه بحصن يصونهم من كل طارقة, وكان نساؤهم وأولادهم يتوَلَّوْن سِقَاية جيوشهم وخدمتها فيما تحتاج إليه، لا يفترق النساء والأولاد عن الرجال والكهول إلا بحمل السلاح, ولا تأخذ النساء رهبة أو تغشى الأولاد مهابة. هذا الاعتقاد هو الذى ارتفع بهم إلى حد كان ذكر اسمهم يذيب القلوب, ويبدد أفلاذ الأكباد حتى كانوا يُنْصَرون بالرعب يُقْذَف به فى قلوب أعدائهم فينهزمون بجيش من الرهبة قبل أن يشيموا بروق سيوفهم ولمعان أسنتهم، بل قبل أن تصل إلى تخومهم أطراف جحافلهم" (كتاب "المنار" لمحمد رشيد رضا/ غرة ربيع الأول ١٣١٨هـ تحت عنوان "القضاء والقدر"/ ج٣/ ص٢٦٥).

وفى الصفحتين الثانية والثالثة من نص الرواية (ص٦- ٧ طباعيا) يقول لبونابرت أحدُ ضباطه: "ـ لقد قدّم نظام الخلافة العثمانى (التركى) أروع هدية لنا، فتَحْتَ اسم وحدة المسلمين تَمَّ تجميد إقليم مصر وإفقارها على مدى ثلاثة قرون.

ـ صدقتَ فوفليه، فلو كانت مصر قوية ربما كان أحد الفراعنة يحكم باريس الآن، وربما كنا خدمًا فى بلاطه.

ـ تمامًا، ولهذا، بعد اليوم سيتحدث العالم عن نابليون وليس عن رمسيس الثانى ".

وتعقيبا على اتهام نابليون للخلافة العثمانية نقول: لقدكانت الخلافة العثمانية فى بداءة شأنها قوية مهيبة متقدمة كثيرا جدا على أوربا، وكان ذلك ينعكس عموما على شعوبها، ولكنْ ككل شىء فى الحياة مالت مع الزمن إلى الانحدار والضعف حتى تكالبت عليها أوربا وهيجوا مواطنيها من العرب عليها حتى سقطت. ولو كانت هى السبب الأساسى فى تخلفهم فلماذا لم يستطيعوا النهوض منذ استقلالهم الواقعى عنها على مدى أكثر من قرنين منذ حكم محمد على؟ لقد تلاعب بهم مأبون بريطانى ومنّاهم بالاستقلال وحُكْم أنفسهم بأنفسهم هو لورنس العرب، ولكن حين جد الجد لم يعطهم شيئا من وعوده لهم بل مزقهم الأوربيون بعد الثورة العربية الزائفة شر ممزَّق، وصاروا الآن عشرين دولة ونيفا لا يستطيعون مواجهة عدة ملايين قليلة من الصهاينة رغم أنهم يَضْعُفون الصهاينةَ بضع مئات من المرات. ورغم الجيوش الجبارة التى تحت يد كل حاكم من حكامهم فلم يحدث تقريبا أن وقفت هذه الجيوش، حقيقةً لا زعما وادعاء، فى وجه العدو بل كانت ولا تزال يحارب بعضها بعضا أو يستعملها الحكام "الوطنيون" فى سحق شعوبهم وإخضاعها لجبروتهم وطغيانهم وعسفهم واستبدادهم فى الوقت الذى يخضع هؤلاء الحكام الوطنيون للقوى الغربية خضوعا مذلا مهينا. كما أن الدول العربية دول متخلفة فى الواقع لا تفوّق لها حقيقى فى مجال العلم والإنتاج والابتكار والاكتشاف، ودورها عادة هو دور

المستهلك والمستورد، ولا قيمة لها فى ميدان السياسة والاقتصاد والساحة الدولية، ومعظمها يأتمر بأمر الغربيين لا يستطيعون عن ذلك ملتحدا.

وفى الصفحة الثلاثين يخاطب بونابرت شيطانه، حسب تعبيره، حين خلا بنفسه قائلا: "والآن يا شيطانى الكريم، لماذا توسوس لى بأن مصر انتصرت أيام رمسيس الثانى وتحتمس الثالث وصلاح الدين الأيوبى؟".

وفى الصفحة الرابعة والأربعين يقول: "اقترب نابليون من مقره المؤقت فى قصر مراد بك فى الجيزة عبر دماء وأشلاء متراكمة معظمها لأحفاد خوفو". وفى الصفحة التالية: "ـ دَبِّرْ لقاءً عاجلًا لحكماء الحملة لنرى ماذا سنفعل، أما أنا فأول رحلة لى ستكون إلى الهرم. غدًا صباحًا أكون فى ضيافة الفرعون خوفو". ثم فى الصفحة التى بعد ذلك نقرأ: "طلب نابليون من برتييه إعداد موكب عسكرى يرافقه إلى الهرم يليق بالفراعنة القدامى مصحوبًا بالموسيقى سيُعْزَف فيه المرسيليز على مسمع من خوفو". وبعد ذلك بسطور نرى بونابرت يصعد الهرم الأكبر وينادى "فى صوت مضفور بالغرور: ـ أنا هنا يا خوفو، أبناؤك باعوك، وتركوك تحت أحذيتنا. وإننى أشهد النجوم المختبئة، والشمس السافرة، والرياح الحائرة، والأرض بما حملت، أشهد كل هؤلاء أننى أبصق على الهرم الأكبر (وبصق) ومَنْ رفَعه، وعلى حَفَدة خوفو، والأغنياء الأغبياء، وعلى من يستعد لبيع نفسه فيهون عليه الوطن... وضرب نابليون الحجر بحذائه قائلًا: سنبنى بأحجار الهرم سورًا يحيط بفرنسا، عرضه متر وارتفاعه ثلاثة أمتار". وفى الصفحة السابعة والخمسين كان بونابرت يراجع حفظه لـ"الفاتحة" استعدادا للقاء العلماء فى الغد ليوهمهم أنه مسلم مثلهم، ثم توقف أثناء قراءة آيات السورة

قائلا: "يكفى هذا الجزء. سيكون الإسلام مطيتى إليكم. ستسعدون بنابليون فرعونكم القادم". وفى الصفحة الثامنة والستين يحاور فى الفراش، وهو مخمور، عشيقته بولين (زوجة أحد ضباطه): "ـ تخيلى يا بولين. نحن نمارس الجنس الآن على سرير مصر الكبير، ومصر كلها تحتنا. كُنّ هنا: حتشبسوت وكليوبترا ونفرتيتى وتاوسرت. كلهن الآن تحتى بعد أن توحَّد اسمهن فصار بولين.

ـ أنا بولين عشيقتك، وهن حولى سبايا وخادمات".

وحتى وهو يتكلم عن رغبته فى العمل، من أجل هزيمة المصريين، على تمزيقهم من خلال الوقيعة بينهم وبين النصارى، نجده يقول لأحد قواده: "ـ يمكن أن نلعبها بين الوجهين القبلى والبحرى حيث أن نسبة المسيحيين فى الصعيد أكثر. لكنها تحتاج إلى وقت لأنك ستغير تاريخًا عمره آلاف السنين عندما وحد الفرعون مينا القطرين، وحظى بلقب "موحد القطرين".

ـ دورنا أن نطمس الهوية، ونغير كل شيء لمصلحة أمنا فرنسا. لن تنام هانئًا بعد اليوم يا مينا" (ص٧٤- ٧٥).

وبعد ثلاث صفحات نسمعه، وهو يشاهد عدد القتلى والمعتقلين المصريين الرهيب، يقول لنفسه: "معذرة يا مصريين. اطلبوا رمسيس الثانى ليمد لكم يد العون، وربما تحتمس الثالث أقدر منه. قال الجنرال بون الذى خلف ديبوى، وهو يشير إلى الأزهر:

ـ قائدنا الكبير، بقيت هذه البؤرة الفاسدة، فمنها يتخرج الثوار، وتدار الثورة على يد المشايخ الكبار. بعض ضحايانا قتلوا حول هذا الجامع الأزهر، فربما يكون، وكذلك من جامع السلطان حسن يضربوننا ببنادقهم.

قال نابليون محاولًا استعادة الهالة التى تسربت منه منذ ساعات:

ـ توجَّه المدافع إليهما، خاصة الجامع الأزهر الأكثر عدوانًا علينا والمقلق لنا. دُكُّوه".

وفى الصفحة الثانية والثمانين نقرأ: "قال نابليون للجنرال ديزيه قائد الحملة على الصعيد: ـ واصل هجومك على أبناء الوجه القبلى، لايهم ماذا نخسر من الجنود كل يوم! الأهم ما نكسبه من الأرض ومن ولاء الناس لنا. سعادتنا بحكم مصر الفرعونية لا تدانيها سعادة. لا تقلق ديزيه. المصريون بعد حين سيصدقوننا، ويتركون رقابهم عارية لنا.

قال مونج، الذى شارك فى اللقاء من أوله بعد انصراف ديزيه:

ـ يؤرقنى خاطر يا قائدنا. سنقدم للمصريين العلم والمعرفة والآلات الحديثة فى الطباعة وغيرها كما وعدتم. ألا تخشى أن يكون العلم سلاحهم القوى ضدنا فيما بعد؟

ـ سؤال خبيث يا مونج، والإجابة أخبث. إننا لن ننقل لهم إلا بقايا علومنا، وسيكون على نطاق ضيق، للدعاية فقط. وأنا أثق بأنهم سيذكرون فى كتب التاريخ أن بونابرته الحانى على الشعب قدم لهم التعليم والبعثات وآلات الطباعة على طبق من ذهب، وهم أغبياء. فالطبق من دمائهم المقززة، وللأسف مع بعض دمائنا الذكية (الصواب "الزكيّة" بالزاى، أى الراقية). سيظل جهلهم جوادنا الرابح يا مونج.

ـ فهمت، أما النخبة منهم فعلينا أن نعلمهم الولاء لنا، ولن ننسى أن الدين هو اللعبة الناجحة مع المتواكلين.

ـ أريد معلومات أكثر عن طبائع أهل الصعيد يقدمها لى دينون".

وفى مذكراته يقارن بين الحرب التى أشعلها وهو شاب كى يسلى عشيقة له ليس إلا وبين ما فعله أمنحتب لزوجته: "وومضت فى عقلى فكرة غريبة، وهى أن أشعل لها خصيصًا حربًا صغيرة لتشاهدها من باب التسلية، ودون تباطؤ أصدرت أوامرى لإحدى الوحدات المقاتلة بأن تهاجم العدو الأوربى بكافة الأسلحة، فهبت حرب صغيرة، وأنا وهى نصفق معًا. وكالعادة كسبت المعركة المفتعلة، وفقدنا عددًا من جنودنا، المهم أن لويز كانت سعيدة ومبتسمة، وأنا كذلك، وإن كنت لمت نفسى بعد ذلك. واكتملت الصورة بانتحار زوجها تورو .لكننى لا أرى الفارق كبيرا بين ما فعلته وما فعله الفرعون الشهير أمنحتب، الذى صنع لزوجته بحيرة كبيرة بطول كيلومترين على الأقل فى الصحراء خلال أسبوعين فقط مات خلالها مئات العمال دون مقابل، لكنه وزوجته استمتعا بمنظرها، وهذا يكفى. أعدك يا بولين إذا عدت إلى مصر أن أصنع لك بحيرة مماثلة نضحك على ضفافها، ولا تشغلى بالك بعدد الضحايا، فهم ميتون فى كل الأحوال، وعبيد لنا. وإذا كان أمنحتب، وهو مصرى مثلهم، لم يرحمهم فهل يتوجب على الأجنبى بونابرته أن يعاملهم كبشر ويرعى حقوقهم؟" (ص٩٨).

وقبل أن ندخل فى موضوع الفراعنة والفرعونية أود ألا تفوتنا الإشارة إلى ما وقع بعد ذلك من شح الغرب علينا بأسباب التقدم الحقيقية وقصره ما يقدمه لنا على ما يغذى فينا نزعة التقليد لا الابتكار، والاستهلاك لا الإنتاج، والاعتماد على الذاكرة وحدها مع إهمال العقل والاستقلال الفكرى، وكذلك

ما ابتلينا به من ظهور تلك البثور الفكرية المسماة بـ"المتغربين"، أى المعجبين بالغرب على حساب حبهم لدينهم ووطنهم والمنسحقين أمام كل ما يأتينا من جهته مهما كان عاديا وتافها وسطحيا، بل بالذات متى كان عاديا وتافها وسطحيا. ومن هؤلاء من يرون أن لفرنسا على مصر يدا لا تقدر بثمن تتمثل فى الحملة الفرنسية، التى يرون أنه لم يكن لنا أن نتقدم ونتحضر لولا هى. وهو كلام يحسب من لا يعرف أحوالنا وظروفنا الحالية أننا قد بلغنا الآن، وبسبب تلك الحملة، من التنوير والتحضر شأوا عظيما مع أننا جميعا نعرف البئر وغطاءه. ومؤلف الرواية، فيما هو واضح، ينحاز إلى الوطن والشعب ولا يطيق نابليون ولا رجاله ولا طريقة تعاملهم الإجرامية التى انتهجوها مع المصريين ولا يقف مع المتغربين بل يهاجمهم وينال منهم نيلا شديدا.

ولكن هل كانت مصر الفرعونية لنابليون بهذا الوضوح الذى توحى به هذه النصوص الموجودة فى الرواية؟ إن الولع بل الهوس بالفراعنة وحضاراتهم وآثارهم لم تعرفه فرنسا وأوربا فى ذلك الوقت ولا كان تاريخ الفراعنة معروفا بهذا التفصيل وبأسماء ملوكهم وملكاتهم وإنجازاتهم وحكاياتهم الخاصة كما تقول الرواية. إن هذا لم يحدث إلا بعد فكّ طلاسم حجر رشيد على يد شامبليون الضابط المستشرق المرافق للحملة بعد عودة الجيش الفرنسى مدحورا بسنوات على ما هو معروف سواء قلنا إنه قد اهتدى وحده إلى حل تلك الأحاجى اللغوية أو بمعونة يجحدونها من كتاب "شوق المستهام فى معرفة رموز الأقلام" لابن وحشية النبطى، الذى كان قد تُرْجِم إلى الإنجليزية قبل توصل شامبليون إلى اكتشاف خفايا الهيروغليفية بأعوام.

ومن ثم لا أدرى معنى لكل ما قيل فى هذا الأمر، وبخاصة أن المصريين لم يُظْهِروا آنذاك ما يدل على أنهم أبناء أولئك الملوك أو يربطهم أى شىء بتلك الحضارة. إنهم مسلمون، ويؤمنون بالله ومحمد والقرآن ويجلون الأزهر ومشائخه. بل لقد تظاهر نابليون بذلك حين وصل لمصر ووزع أول منشور على أهلها زاعما أنه صديق للإسلام بل مسلم مثلهم أتى ليعتقهم من نِير الأتراك وربقتهم. ولم يكتف بهذا بل لبس العمامة والجلباب كما يلبسون، وصلى معهم كما يصلون، وتمايل فى صفوفهم فى مولد النبى كما يتمايلون. ووصل الأمر إلى أن مينو أعلن أيضا إسلامه وتزوج من بنت أحد تجار رشيد الأثرياء، بل لقد أخذها معه إلى فرنسا مع ابنها منه حين كتب على الفرنسيين الهزيمة والجلاء عن مصر، وإن كان قد خدعها ونصَّر الطفل بعد العودة إلى فرنسا متغلبا على معارضة زوجته الرشيدية عن طريق أحد المستشرقين الثعالب الذى أوهمها من خلال التفسير الملتوى لبعض الآيات القرآنية بأن الأديان كلها شىء واحد لا فرق بين دين ودين. بل يقال، كما أشار رفاعة فى "تخليص الإبريز فى تلخيص باريز"، إنها قد تنصرت هى أيضا، ولكن هذا شىء آخر.

والمصريون، حين يثورون، إنما يثورون بدافع من عقيدتهم الإسلامية، ولم يصدر عن أى منهم لا من بعيد ولا من قريب ما يومئ مجرد إيماء إلى أية نزعة فرعونية فى كلامهم أو تصرفاتهم أو مواقفهم. والواقع أن المصريين وغير المصريين كانوا، قبل الحملة الفرنسية، ينظرون إلى خضوعهم للخلافة التركية على أنها هى الوضع الطبيعى ولم يصدر عنهم ما يشير إلى أنهم يرون لهم قبلة سياسية أخرى غير قبلتها. ولم ينتظروا من أحد عونا ضد الفرنسيين إلا من

العثمانيين. وحين انتهت الحملة الفرنسيسية وانكسحت من مصر وحاول الإنجليز الحلول محل الفرنسيين تصدى المصريون لهم فى كفر الدوار ولقنوهم شر هزيمة جعلتهم يلحسون جراحهم ويولون الأدبار رغم أن الإنجليز قد اشتركوا فى محاربة الفرنسيين وإخراجهم من مصر. وكان مصطفى كامل يدعو إلى استقلال مصر فى ظل الخلافة العثمانية، ولم نسمع بالنزعات الوطنية المحلية إلا لاحقا على يد أحمد لطفى السيد، ثم تكاثفت بعد الحرب العالمية الأولى على يد محمد حسين هيكل وطه حسين وسلامة موسى ومحمود عزمى... والدليل على ما نقول هو أنه قد عم العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه حزن جارف عميق عندما ألغى أتاتورك اليهودى المتخفى تحت اسم إسلامى الخلافة العثمانية، فانقلب على أتاتورك معظم من احْتَفَوْا بأتاتورك سابقا انخداعا فيه حين حسبوه فى بداءة أمره بطلا عسكريا إسلاميا. لقد كان المسلمون لا العرب وحدهم ينظرون إلى الخلافة العثمانية على أنها امتداد للخلافات الإسلامية السابقة، وكانوا يرون رأى العين أنها قد حمتهم من القوى الغربية وأنها ألقت الرعب فى قلب هذه القوى وأبقت أطماعهم بعيدا عن بلاد المسلمين عدة قرون.

وهنا نتساءل: هل يصح القول بأن من حق المبدع الأدبى تغيير وقائع التاريخ واستبدال المخترَع منها مكان الحقيقى الصحيح لخدمة غاياته من الكتابة كما يقول بعض الأدباء والنقاد؟ أم إن ما قيل عن الفراعنة فى الرواية هو تغيير جذرى جوهرى يبلبل التاريخ بلبلة شنيعة تربك كل شىء؟ فيا ليت الصديق مبدع الرواية (يا ليته) يعيد النظر فى هذه النقطة على ضوء ما كتبته هنا رغم وضوح حسن مقصده فيما كتب وألف.

أما عبارة بونابرت فى أول الرواية مباشرة: "المجد للرب ولنا، والوهم لهم" فحتى لو قلنا إنه لم يكن يؤمن بالله بل كان سياسيا بهلوانيا كل همه هو سحق الشعوب الأخرى وبناء مجد فرنسا ومجده الشخصى كما هو واضح من تصرفاته وأحاديثه وتعليقاته على مدار الرواية، فكيف ينطق بمثل تلك العبارة التى تشير إلى إيمانه بالله؟ يمكن الرد بأننا كثيرا ما ننطق بكلام لا يعبر عما فى أذهاننا واعتقاداتنا بل على نحو آلى كجواب الملحد عليك إذا سألته عن صحته وأحواله بـ"الحمد لله"، وإن كان من الممكن المجادلة لمن يشاء بأن بونابرت لم يكن يحاور أحدا بل كان يكلم نفسه. وفى مثل ذلك الوضع لا تجرى الإجابات الميكانيكية على اللسان. على كل حال يرى القارئ أن الموضوعات أحيانا ما يصعب بل قد يستحيل الوصول إلى حكم حاسم بشأنها.

ثم لدينا بعدها مباشرة ما يتخيل نابليون أن البحر المتوسط يناجيه به، وأهمّه أن البحر يخضع لصاحب القوة وأنه قد خضع قديما للفراعنة، وأنه على استعداد للخضوع له ولفرنسا ما دام يملك المدفع والبندقية: "ذات يوم يا بونابرته (بونابرت) كان الفراعنة هم سادتى، وبأمرهم أأتمر. لست منافقًا لكننى دائمًا أخضع للقوى، ولهذا تجدنى ألعب معك ولصالحك الآن ما دمت تملك المدفع الجبار والبندقية الحديثة. هو شاعر واهم من يتصور أننى أضحك له وأبكى، وأصارحك بأنه إذا تفوق عليك الأسطول الإنجليزى، الذى يتعقبك فى البحار، سأكون عونًا له عليك أيضًا يا صاحب العينين الرماديتين. أما أقاليم الخلافة (من العرب وغيرهم) فقد نَسِيتُهم ونَسُونِى، فهم دائمًا فى انتظار المدد من الغير أو من السماء، وهم غارقون فى عسل الأمنيات".

وهذه المقدمة هى خير مقدمة للرواية لأنها تقوم على محاولة استفزاز المؤلف للعرب والمسلمين على التحرك والنهوض مما هم فيه من ضعف وتخلف وهوان ورفع شعار "اذهب أنت وربك فقاتلا. إنا ها هنا قاعدون" والعمل على تعويض التخلف العلمى والصناعى الذى طال وصار سمجا وخزيا وعارا وشنارا، فلعلهم يقفون فى وجه أعدائهم، الذين يريدون سحقهم ومحقهم والاستيلاء على خيرات بلادهم وتجويعهم وإفقارهم واستعبادهم. لكن لا أدرى لم قفزت الرواية من الفراعنة إلى نابليون مرة واحدة وأهملت سيادة العرب على البحر المتوسط طوال قرون، وهذه السيادة أقرب زمنيا من الفراعنة، فضلا عن أن الفراعنة لم يشتهروا بالتفوق البحرى والتمدد فى الشمال بل العرب. وعلى هذا فالحوار التالى بين فوفليه أحد قادة الحملة وبين نابليون: "ـ لقد قدم نظام الخلافة العثمانى (التركى) أروع هدية لنا، فتحت اسم وحدة المسلمين تم تجميد إقليم مصر وإفقارها على مدى ثلاثة قرون.

ـ صدقت فوفليه، فلو كانت مصر قوية ربما كان أحد الفراعنة يحكم باريس الآن، وربما كنا خدمًا فى بلاطه.

ـ تمامًا. ولهذا بعد اليوم سيتحدث العالم عن نابليون وليس عن رمسيس الثانى ".

ففضلا عن أن رمسيس الثانى أو غيره من ملوك مصر القديمة لم تكن له بعدُ هذه الشهرة بحيث يكون محور المقارنة بين مصر الفرعونية وفرنسا الحديثة فإن المصريين القدماء لم يهددوا يوما أوربا ولم يحدث أن حكم أحد ملوكهم فرنسا أو غيرها من البلاد الأوربية بل المسلمون هم من فعلوا ذلك. وذلك أمر

معروف، فقد فتحوا الأندلس وأقاموا هناك حضارة عربية إسلامية لقرون ثمانية إلى جانب بعض المناطق فى جنوب أوربا، ومنها جزء من فرنسا، التى كاد المسلمون يفتحونها بعد الأندلس لولا وقوف شارل مارتل فى وجههم. أما فى ظل الخلافة العثمانية فقد فتح الإسلام جزءا كبيرا من شرق أوربا، وبقى هناك حتى الآن ولم يُقْتَلَع كما وقع فى شبه الجزيرة الأيبيرية. فالمفهوم والمنطقى أن يشغل الإسلام وتاريخه دماغ نابليون لا الفراعنة. وعلى كل فالمصريون بوجه عام لم يكن فى ذهنهم أى اهتمام بتاريخهم القديم قبل الإسلام لأن الأغلبية الساحقة مسلمة. وكانوا ينظرون إلى بونابرت على أنه نصرانى ابن نصرانى لا فرنسى ابن فرنسى مثلا، ويَعُدُّ الواعون منهم كل ما يقوله لهم عن حبه للنبى محمد وجريه على منواله فى الغزو والفتوح وعن اعتناقه الإسلام ونيته فى بناء مسجد كبير باسمه وما إلى ذلك، كانوا يعدون هذا كله خداعا فى خداع ولا يصدقون النشرات التى كان يلصقها فى كل مكان يعبر فيها عن حبه إياهم ورغبته فى تقديم الخير لهم. وهذا يصدق على اعتناق كثير جدا من الفرنسيين الإسلام ولو ظاهرا وتزوُّجهم من بنات المسلمين وإقبالهم على تعلم اللغة العربية وقراءة القرآن. بل إن نابليون ذاته زعم أنه يحب الإسلام ويعمل على نصرته، وأنه ما أتى بجيشه إلا لمعاونة الخليفة العثمانى ضد المماليك. وأنا أنقل هذا أولا عن نقولا الترك اللبنانى النصرانى المحب للفرنسيين واللصيق بهم وبكبارهم، وعن الجبرتى ثانيا.

أَجَلْ أنا أعرف أن مبدع الرواية التى بين يدينا قصد التفخيم من شأن المصريين وتاريخهم وإبراز عراقتهم فى مضمار الحضارة، وأعرف أن من النقاد

والأدباء من يرون أن من حق القصاصين والمسرحيين التصرف فى أحداث التاريخ وسيرة أبطاله بما يخدم غرضهم من تأليف ما يؤلفون، لكن هذا فى موضوعنا الحالى سوف يجور على تاريخنا الإسلامى القريب الذى لا يشغلنا غيره لحساب تاريخ موغل فى القدم لم يعد يشغلنا الآن لتغير اتجاه حياتنا تغيرا جذريا منذ زمن طويل. ولقد كان المصريون فى ذلك الوقت يتطلعون دائما إلى الخليفة العثمانى وينتظرون العون العسكرى على الفرنسيين منه.

وبالنسبة لتصوير شخصية السيد محمد كريم فى الرواية فقد شعرت بالابتهاج حين قرأت أنه كان ينظم مقاومة الفرنسيين الخنازير سرا فى الإسكندرية (حيث كان واليًا عليها) وخارج الإسكندرية رغم أن نابليون لم يشأ فى البداية إنزال أى أذى به لمقاومته لجيشه ومنعه من النزول بالثغر حتى آخر لحظة، وأبقاه على عمله فى إدارة أمور الثغر، لكن لما اكتشف الفرنسيون أنه ظل باقيا على عهده فى الإشراف على المقاومة الوطنية رغم مركزه الإدارى قبضوا عليه، وقبل إعدامه عرضوا أن يطلقوا سراحه لقاء مبلغ من المال رفض أن يدفعه رغم استحثاث من حوله له على دفعه والنجاة برقبته، بيد أنه ظل مصرا على مواجهة الموت إيمانا منه أن العمر واحد، والرب واحد، ومضى إلى مصيره ثابت الجنان رابط الجأش مؤمنا بربه ووطنه لا يتزعزع ولا يساوم.

وسر ابتهاجى هو ما أذكر أنى قرأته فى تاريخ الجبرتى من رواية مختلفة عن مقتل محمد كريم تقول: "ومات الوجيه الأجل الأمثل السيد محمد كريم. وخبرُه أنه كان فى أول أمره قَبَّانِيًّا يَزِن البضائع فى حانوت بالثغر، وعنده خفة فى الحركة وتودد فى المعاشرة، فلم يزل يتقرب إلى الناس بحسن التودد ويستجلب

خواطر حواشى الدولة وغيرهم من تجار المسلمين والنصارى ومن له وجاهة وشهرة فى أبناء جنسه حتى أحبه الناس واشتهر ذكره فى ثغر الأسكندرية ورشيد ومصر واتصل بصالح بك حتى كان وكيلا بدار السعادة، وله الكلمة النافذة فى ثغر رشيد وتملّكها وضواحيها واسترقَّ أهلها، وقلّد أمرها لعثمان نجا فاتحد بمخدومه السيد محمد المذكور، واتصل بمراد بك بعد صالح أغا فتقرب إليه ووافق منه الغرض ورفع شأنه على أقرانه وقلده أمر الديوان والجمارك بالثغر ونفذت كلمته وأحكامه وتصدر لغالب الأمور وزاد فى المكوسات والجمارك ومصادرات التجار خصوصا من الإفرنج، ووقع بينه وبين السيد شهبة الحادثة التى أوجبت له الاختفاء بالصهريج وموته فيه. فلما حضر الفرنسيس ونزلوا الإسكندرية قبضوا على السيد محمد المذكور وطالبوه بالمال وضيقوا عليه وحبسوه فى مركب، ولما حضروا إلى مصر وطلعوا إلى قصر مراد بك، وفيها مطالعته بأخبارهم وبالحث والاجتهاد على حربهم وتهوين أمرهم وتنقيصهم، فاشتد غيظهم عليه فأرسلوا وأحضروه إلى مصر وحبسوه، فتشفع فيه أرباب الديوان عدة مرار، فلم يمكن إلى أن كانت ليلة الخميس فحضر إليه مجلون وقال له: المطلوب منك كذا وكذا من المال. وذكر له قدرا يعجز عنه وأجله اثنتى عشرة ساعة وأن يحضر ذلك القدر، وإلا يقتل بعد مضيها. فلما أصبح أرسل إلى المشايخ وإلى السيد أحمد المحروقى فحضر إليه بعضهم، فترجاهم وتداخل عليهم واستغاث وصار يقول لهم: "اشترونى يا مسلمون"، وليس بيدهم ما يفتدونه به، وكل إنسان مشغول بنفسه ومتوقع لشىء يصيبه. وذلك فى مبادئ أمرهم. فلما كان قريب الظهر، وقد انقضى الأجل، أركبوه حمارا واحتاط به عدة من

العسكر وبأيديهم السيوف المسلولة، ويَقْدُمهم طبل يضربون عليه وشقّوا به الصليبة إلى أن ذهبوا إلى الرميلة وكتفوه وربطوه مشبوحا وضربوا عليه بالبنادق كعادتهم فيمن يقتلونه، ثم قطعوا رأسه ورفعوها على نبوت وطافوا بها بجهات الرميلة، والمنادى يقول: هذا جزاء من يخالف الفرنسيس. ثم إن اتباعه أخذوا رأسه ودفنوها مع جثته وانقضى أمره، وذلك يوم الخميس خامس عشرى ربيع الأول".

وقد استغرق الوصول إلى ذلك النص بعض الوقت حتى عثرت عليه عند الجبرتى من خلال بعض المناوشات البحثية وجدت أثناءها رواية أخرى تتسق مع ما جاء فى رواية أ. نشأت المصرى وتتكرر هنا وهناك بنصها أو بنص قريب منه. وهذا مثال على ذلك، وهو مأخوذ من المادة الخاصة بالزعيم الوطنى الكبير فى "الموسوعة العربية العالمية":

"محمد كُرَيِّم (ت١٢١٣هـ- ١٧٩٨م) من مناضلى مصر فى عهد الاحتلال الفرنسى. ولد ونشأ بالإسكندرية. كان فى أول أمره قبانيًّا (وزّانًا). ترقى إلى أن تقلد أمر الديوان والجمارك بثغر الإسكندرية. قاد المقاومة الشعبية المصرية ضد الفرنسيين عندما نزلوا الإسكندرية بقيادة نابليون. كان المصرىَّ الأول الذى التقى بالأسطول الفرنسى عند وصوله الإسكندرية، فقد بدأ فورًا فى العمل مع الصيادين والعمال فوق حصون الإسكندرية ليرد الفرنسيين عن وطنه، وظل يتلقى مع رجاله نيران مدافع الإفرنج. لم يستسلم عندما دكت المدافع حصون الإسكندرية، فبدأ معركة أخرى فى مداخل الإسكندرية لمقاومة زحف الفرنسيين إلى الداخل. اعتُقِل وحُمِل إلى نابليون، الذى حاول

إغراءه وكسبه إلى جانبه، وذلك بأن أطلق سراحه ورد إليه سيفه. فعاد إلى تغذية حركات المقاومة بكل قوة. لجأ إلى الصحراء لإعداد المجاهدين وإرسالهم إلى صفوف المقاومة. وتزعم حركة واسعة فى سبيل المقاومة السلمية حين حاول الجنرال كليبر، نائب نابليون، احتلال دمنهور. قبض عليه كليبر وحبسه فى إحدى البوارج الراسية فى أبو قير، ثم أرسله إلى نابليون بالقاهرة ليرى فيه رأيه فحوكم محاكمة صورية، وقُضِى بإعدامه".

وبطبيعة الحال فإن هذه الرواية الثانية هى التى تهش لها النفس وتتمنى أن يكون هذا هو الذى وقع، إذ تظل صورة بطلنا المغوار فى نقائها وسموقها مما يليق بتاريخ أبطالنا، الذين نحب أن يكونوا فوق الضعف والتهافت وأن يظل ثوب بطولتهم ناصعا بلا أية بقعة حتى لو لم تكن داكنة. وتذكرت على الفور ما أحسست به حين كنت أشاهد فلم "زينب" على التلفاز فى ثمانينات القرن الماضى أيام كنت أشاهد التلفاز، وفوجئت بأن زينب فى هذا الفلم لم تمت بل عالجها أهلها ونهضت من مرضها واستأنفت حياتها وتزوجت ممن تحب وعاشت حياة موفقة سعيدة. لقد شعرت ليلتئذ أن زينب هذه هى بنت جيراننا، ولا تسل عن مدى فرحتى حين كنت أنتظر موتها بمرض عضال فى آخر الفلم، فإذا بها تنجو من هادم اللذات ومفرق الجماعات ومشتت المحبين عن الحبيبات، وتعيش. الله أكبر. أقول هذا وأنا أزعم أنى أشتغل بالنقد، وكان ينبغى ما دمت قد وضعت فى أم رأسى ألا أعبأ بالنهاية ما دام مؤلفها د. هيكل قد أحسن التمهيد لها. لكن ماذا نقول فى الضعف البشرى وكراهيتنا لقتامة الحياة وعشقنا لتحقيق الأمل؟ وبالمناسبة فقد أعيد قراءة بعض

الروايات التى تنتهى نهاية لا أحبها ولا أتوقعها وأرى أنها كان يمكن من الناحية الفنية والواقعية أن تنتهى نهاية أفضل، فحين أعيد قراءتها أتصور أنها سوف تنتهى النهاية التى أحبها رغم علمى بطبيعة الحال أن الرواية لن تغير ما انكتب فى أوراقها قبلا.

ولست أود، الآن على الأقل، تحقيق الروايتين لمعرفة أيتهما هى الصواب. ولكنى أؤكد أن انتهاء حياة محمد كريم على الوضع الذى أوردته رواية "بونابرتة" هو النهاية المريحة لى: وطنيا ودينيا وعلى المستوى النفسى الشخصى. ولا أظن إلا أن هذا هو شعور القراء الآخرين. ولا ينبغى أن ننسى موقف النقاد والأدباء من أن للكاتب القصصى والمسرحى الحق فى التصرف بالتاريخ تبعا لما يراه من اعتبارات قومية أو إنسانية أو غير ذلك. ونشأت المصرى قد استعمل هذا الحق، وهو ما كان يستحق من أجله أن أرفع له القبعة لولا أنْ ليس لى قبعة ولا كَسْكِتّة ولا طربوش ولا عمامة ولا غترة ولا حتى طاقية أو زعبوط، فليس أمامى إلا أن أترك رأسى كما هى وأرفع عينى ناحية السماء وأدعو له دعوة "وِلِيَّة" ساعة مغربية أن يقيه الله شر حسد النقاد من أمثالى ممن ينتظرون له هفوة، فإن لم يجدوها اختلقوها وحاسبوه حساب منكر ونكير، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها، فأنا لا أملك سوى هذه الدعوة، فلْيكتف مؤلفنا بها ولْيشكر الله عليها.

وكنا تهاتفنا ظهيرة اليوم (ثانى أيام عيد الأضحى ١٤٤٦هـ) فى هذا الموضوع، وقلت له إنى قرأت، حسبما تحدثنى ذاكرتى، رواية أخرى عن إعدام السيد محمد كريم تصوره فى لحظات حياته الأخيرة هيابا للموت يستحث

المصريين على مساعدته فى جمع الفدية المطلوبة لإنقاذ رقبته من القتل، فأنبأنى أنه هو أيضا قد قرأ هذه الرواية، لكنه أخذ بالرواية التى أصفها بـ"المبهجة". كذلك لا يفوتنى التنبيه إلى أن صورة السيد محمد كريم والى الإسكندرية فى تعامله مع التجار وأمثالهم، طبقا لما نقرؤه فى الجبرتى، ليست بالصفاء الموجود فى ترجمته بـ"الموسوعة العربية العالمية".

ومما قرأته كذلك فى الرواية، وله علاقة بالتاريخ، ما جاء فيها عن زينب ابنة الشيخ خليل البكرى نقيب الأشراف فى مصر من أنها كانت خليلة لنابليون، وهو ما لا أتذكر أنى قرأته من قبل، وبخاصة لدى الجبرتى. وقد حفزنى هذا إلى دراسة هذا الموضوع. وإلى القارئ أولا ما كتبه نشأت المصرى عن البكرى وبنته، إذ نوى نابليون فى أغسطس ١٧٩٨، بعد استتباب الأمر الأَوَّلِىّ له فى مصر، الاحتفال بالمولد النبوى فى بيت الشيخ البكرى بوصفه مسلما ولبس عمامته وأحكم وضعها على رأسه. وقبل بدء الاحتفال وجه كلمة بالفرنسية إلى الجمهور الحاضر ترجمها أحد رجال الحملة.

يقول الأستاذ المؤلف (ص٥٦ وما بعدها): "واصل نابليون استخدام سلاح الخداع بادعاء الطيبة والسماحة واستمالة رجال الدين بمشاركتهم فى احتفالاتهم الدينية... قال نابليون لفوفليه: ... إننى أتوقع مكسباً كبيرًا من هذه المشاركة، جهز لى جلبابًا أبيض على النمط المألوف هنا، وسوف أكون بينهم غدًا فى بيت خليل البكرى نقيب الأشراف، واعتبر الموضوع سريًّا، ولا يجب أن يعرف البكرى أو غيره بهذه الخطة قبل وصولنا إلى باب بيته. ستكون مفاجأة كاملة لهم، وسيكون معى عدد من جنودنا يتخفون فى الجلاليب البيضاء

أيضًا، وخارج البيت يحرسنا عدد كاف من رجالنا من أى اشتباك محتمل، وليكن دينون إلى جوارى، فهو حكيم لبق. والآن دعنى. سوف أدرب نفسى على التمثيلية. هذه هى سورة "الفاتحة". سأعيد قراءتها وحفظها: "بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين". يكفى هذا الجزء (سيكون الإسلام مطيتى إليكم. ستسعدون بنابليون فرعونكم القادم).

...

وسط استغراب المحتفلين الذين يرتدون الجلابيب، وبعضهم يلبسون عمائم على رؤوسهم... والوجوه بين باسمة وساهمة، جلس نابليون إلى جوار الشيخ البكرى، عيناه فى دوار متوتر متلاحق بين عيون الحاضرين، فكل منهم عدو لا يبين، حدث نابليون نفسه: أنا المبادر دائمًا، لا بد أن أقول كلمة لأحرك الرياح كما أهوى فى مسارات أقصدها. فور انتهاء قارئ القرآن من ترتيله، رفع نابليون يديه مشيرًا إلى أعلى، وإن ظل قاعدًا حمايةً لنفسه. ضبط عمامته على رأسه وحاول أن يرفع صوته ليبدو واثقًا بنفسه، ودينون يترجم كلمة بكلمة:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. نعم أيها الأحباب، فمن لا يعادينا هو حبيبنا، جئنا إليكم بالمحبة لنخلصكم من جرائم المماليك، وننشر العلوم، ونعمل بروح الإسلام الذى هو قريب جدًّا إلى قلوبنا، وأعدكم لن أضيع قطرة واحدة من النيل فى البحر، وسأقيم لكم أكبر المصانع والمزارع. اعتبرونى مبعوث الثورة الفرنسية، التى قامت منذ تسع سنوات إليكم. فمن يحكم مصر بإمكانه أن يغير التاريخ. ويمكنكم أن تنادونى من الآن بـ"الشيخ نابليون"، ولى الشرف أن أحظى بهذا اللقب.

ثم حياهم بيده من بعيد، ومد يده مصافحًا الشيخ البكرى، ثم أشار إليهم جميعا ليتحركوا نحوه ويصافحونه، ففعلوا. لكن نابليون لم يفصح عن سبب آخر لوجوده بينهم، وهو إعجابه الشديد بزينب ابنة البكرى، التى أصبحت من خليلاته لجسدها الرشيق وعينيها الناطقتين.

أما الشيخ البكرى فتجمعت فى وجهه غيوم الخوف والقلق معًا، وبالعربية رفع نابليون صوته فى النهاية قائلًا: الله أكبر! أكملوا طقوسكم، وأنا معكم، فقد أحببتكم.

... وراحوا يتطوحون، وحروف خشنة تخرج من شفاههم وحناجرهم مبحوحة، ومتماوجة: الله، الله، الله...

بدأ نابليون ينطق كلمات "الله، الله" تجاوبًا مع الإيقاع، ثم أمسك بلسانه، وشاهد ما انخرط فيه بعض الذاكرين من غياب عن الوعى. ومع تجليات حلقة الذكر الأخيرة،سقط أحد الذاكرين مغشيًا عليه... فور إفاقة المغمى عليه ودع نابليون البكرى بحرارة، وحيا الجميع وكأنه صديقهم من القدم، وقال بصوت قوى: السلام عليكم، بارك الله فيكم. ومضى... (إلى) قصره حيث سلمه فوفليه رسالة حية من كليبر تتمثل فى الجميلة بولين فوريه، بناء على طلبه، وترحيبها، استقبلها نابليون بكثير من الرقة والشغف. قال لها: من الآن يأتمر الجميع بأمرك، أنت ملكة القصر وصاحبة بونابرته.

ـ وماذا عن زوجتك جوزفين، التى فى باريس؟

ـ لا أحب أن أذكرها أو أتذكرها. أنت كل النساء يا فاتنة القد والعيون".

هذا ما يقوله الأستاذ نشأت المصرى فى روايته، وقد أثارت العبارة العارضة فى النص الحالى عن زينب البكرية استغرابى. ترى هل وصلت الأمور فعلا إلى هذا الحد؟ أما الجبرتى فقد أمدنا بأشياء عن البيت الذى ولدت ونشأت وترعرعت فيه البُنَيّة لكنه لم يتطرق فى هذا النص إلى أنها كانت عشيقة لنابليون. لقد كنت أظن أنها كانت ناضجة وتخطت العشرين من عمرها بسنوات. لماذا؟ لأن ما قرأته عن جرأتها وانخراطها مع الفرنسيين وتقليدها لنسائهم وفى تلك الظروف الوطنية المهبّبة بهباب أسود لا يصدر إلا عن فتاة قارحة لا تبالى ولا توارى.

وهذا أولا أبوها، الذى كتب عنه الجبرتى فى تاريخه عند حديثه عن تشكيل الديوان الذى أمر به نابليون بونابرت بعد دخوله القاهرة: "وفى يوم الخميس ثالث عشر صفر أرسلوا بطلب المشايخ والوجاقلية عند قائمقام صارى عسكر فلما استقر بهم الجلوس خاطبوهم وتشاوروا معهم فى تعيين عشرة انفار من المشايخ للديوان وفصل الحكومات.

فوقع الاتفاق على الشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ خليل البكرى والشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى والشيخ محمد المهدى والشيخ موسى السرسى والشيخ مصطفى الدمنهورى والشيخ أحمد العريشى والشيخ يوسف الشبرخيتى والشيخ محمد الدواخلى وحضر ذلك المجلس أيضا مصطفى كتخدا بكر باشا والقاضى وقلدوا محمد اغا المسلمانى أغات مستحفظان وعلى أغا الشعراوى وإلى الشرطة وحسن اغا محرم امين احتساب وذلك باشارة أرباب الديوان فإنهم كانوا ممتنين من تقليد المناصب لجنس المماليك فعرفوهم أن

سوقة مصر لا يخافون إلا من الأتراك ولا يحكمهم سواهم وهؤلاء المذكورون من بقايا البيوت القديمة الذين لا يتجاسرون على الظلم كغيرهم وقلدوا ذا الفقار كتخدا محمد بك كتخدا بونابارته ومن أرباب المشورة الخواجا موسى كانوا وكلاء الفرنساوى ووكيل الديوان حنا بينو".

وفى حوادث عام ١٢١٤هـ تعرض الجبرتى لهبة من هبات القاهرة ضد الفرنسيين، فكان من ضمن ما كتب: "وفى يوم الثلاثاء حادى عشره (من ربيع الأول) عمل المولد النبوى بالازبكية ودعا الشيخ خليل البكرى سارى عسكر الكبير مع جماعة من أعيانهم وتَعَشَّوْا عنده وضربوا ببركة الأزبكية مدافع وعملوا حراقة وسواريخ ونادَوْا فى ذلك اليوم بالزينة وفتح الأسواق والدكاكين ليلا وإسراج قناديل واصطناع مهرجان".

ومما دونه الجبرتى من حوادث هذا العام أيضا: "واتُّهِم الشيخ خليل البكرى بأنه يوالى الفرنسيس ويرسل إليهم الأطعمة، فهجم عليه طائفة من العسكر مع بعض أوباش العامة ونهبوا داره وسجنوه مع أولاده وحريمه وأحضروه إلى الجمالية وهو ماش على اقدامه ورأسه مكشوفة وحصلت له أهانة بالغة وسمع من العامة كلاما مؤلما وشتما فلما مثلوه بين يدى عثمان كتخدا هالة ذلك واغتمَّ غما شديدا ووعده بخير وطيَّب خاطره وأخذه سيدى أحمد بن محمود محرم التاجر مع حريمه إلى داره وأكرمهم وكساهم وأقاموا عنده حتى انقضت الحادثة".

وفى حوادث ١٢١٦هـ "وفى يوم الثلاثاء رابع عشرينه طُلِبَتْ ابنة الشيخ البكرى، وكانت ممن تبرج مع الفرنسيس، بمعينين من طرف الوزير فحضروا

إلى دار أمها بالجودرية بعد المغرب وأحضروها ووالدها فسألوها عما كانت تفعله، فقالت: إنى تبت من ذلك. فقالوا لوالدها: ما تقول أنت؟ فقال: أقول إنى برى ء منها. فكسروا رقبتها، وكذلك المرأة التى تسمى: هوى، التى كانت تزوجت نقولا القبطان ثم أقامت بالقلعة وهربت بمتاعها وطلبها الفرنساوية وفتش عليها عبد العال وهجم بسببها عدة أماكن كما تقدم ذكر ذلك، فلما دخلت المسلمون وحضر زوجها مع من حضر، وهو إسماعيل كاشف المعروف بـ"الشامى "، أَمَّنَها وطَمَّنها وأقامت معه أياما فاستأذن الوزير فى قتلها فأذنه فخنقها فى ذلك اليوم أيضا ومعها جاريتها البيضاء أم ولده. وقتلوا أيضا امرأتين من أشباههن".

وفى وَفَيَات عام ١٢٢٣هـ قال الجبرتى عنه: "مات الأجلّ المبجَّل والمحترم المفضَّل السيد خليل البكرى الصِّدِّيقى، ووالدته من ذرية شمس الدين الحنفى، وهو اخو الشيخ أحمد البكرى الصديقى، الذى كان متوليا على سجادتهم ولما مات اخوه لم يلها المترجَم لما فيه من الرعونة وارتكابه أمورا غير لائقة بل تولاها ابن عمه السيد محمد أفندى مضافة لنقابة الاشراف فتنازع مع ابن عمه المذكور وقسموا البيت الذى هو مسكنهم بالازبكية نصفين وعمر منابه عمارة متقنة وزخرفة وانشأ فيه بستانا زرع فيه أصناف الاشجار والفواكه فلما توفى السيد محمد أفندى تولى المترجم مشيخة السجادة وتولى نقابة الاشراف السيد عمر مكرم الاسيوطى فلما طرق البلاد الفرنساوية تداخل المترجم فيهم، وخرج السيد عمر مع من خرج هاربا من الفرنساوية إلى بلاد الشام وعرف المترجم الفرنساوية أن النقابة كانت لبيتهم وأنهم غصبوها منه فقلدوه إياها واستولى على

وقفها وإيرادها وانفرد بسكن البيت، وصار له قبول عند الفرنساوية، وجعلوه من أعاظم رؤساء الديوان الذى كانوا نظموه لإجراء الاحكام بين المسلمين، فكان وافر الحرمة مسموع الكلمة مقبول الشفاعة عندهم فازدحم بيته بالدعاوى والشكاوى واجتمع عنده مماليك من مماليك الأمراء المصرية الذين كانوا خائفين ومتغيبين وعدة خدم وقواسة ومقدم كبير وسراجين وأجناد، واستمر على ذلك إلى أن حضر يوسف باشا الوزير فى المرة الأولى التى انتقض فيها الصلح ووقعت الحروب فى البلدة بين العثمانية والفرنساوية والأمراء المصرية وأهل البلدة، فهجم على داره المتهورون من العامة ونهبوه وهتكوا حريمه وعَرَّوْه عن ثيابه وسحبوه بينهم مكشوف الرأس من الأزبكية إلى وكالة ذى الفقار بالجمالية، وبها عثمان كتخدا الدولة، فشفع فيه الحاضرون وأطلقوه بعد أن أشرف على الهلاك، وأخذه الخواجا أحمد بن محرم إلى داره وأسكن روعه وألبسه ثيابا وأكرمه وبقى بداره إلى أن انقضت أيام الفتنة، وظهرت الفرنساوية على المحاربين لهم، وخرجوا من البلدة، واستقر بها الفرنساوية، فعند ذلك ذهب إليهم وشكا لهم ما حل به بسبب موالاته لهم، فعوضوا عليه ما نُهِب له ورجع إلى الحالة التى كان عليها معهم. وكانت داره أخربها النهابون، فسكن ببيت البارودى بباب الخرق ثم انتقل منه إلى بيت عبد الرحمن كتخدا القازدغلى بحارة عابدين وجدد بها عمارة. وكان له ابنة خرجت عن طورها فى أيام الفرنسيس، فلما أشيع حضور الوزير والقبودان والإنكليز وظهر على الفرنساوية الخروج من مصر فقتل ابنته المذكورة بيد حاكم الشرطة. فلما استقرت العثمانية بالديار المصرية عُزِل المترجم عن نقابة الاشراف وتولاها السيد عمر مكرم كما

كان قبل الفرنساوية، ولما حضر محمد باشا خسرو أنهى إليه الكارهون له بأنه مرتكب للموبقات ويعاقر الشراب وغير ذلك، وأن ابنته كانت تذهب إلى الفرنسيس بعلمه، وأنه قتلها خوفا وتبرئة لنفسه من الشهرة التى لا يمكنه سترها ولا يُقْبَل عذره فيها ولا التنصل منها، وأنه لا يصلح لمشيخة سجادة السادة البكرية. وعرّفوه أن هناك شخصا من سلسلتهم يقال له: الشيخ محمد سعد. وهو من جملة أتباع المترجم ولكنه فقير لا يملك شيئا ولا دابة يركبها، فقال الباشا: أنا أواسيه وأعطيه. فأحضروه له بعد أن ألبسوه تاجا كبيرا وثيابا، وهو رجل مبارك طاعن فى السن فألبسه فروة سمور وقدم له حصانا معدا وقيد له ألف قرش، وسكن دارا بناحية باب الخرق، وتَرَيَّشَ حالُه وخمل أمر المترجَم، واشترى دارا بدرب الجماميز بعطفة الفرن، وكان بظاهرها قطعة جنينة، فاشتراها وغرس بها أشجارا وحسّنها وأتقنها وبنى له مجلسا مطلا عليها، وبالأسفل مساطب ولواوين جلوس لطيفة، واشترى دارين من دور الأمراء المتقدمين بظاهر ذلك وهدمهما وبنى بأنقاضهما وأخشابهما، وباع ما كان تحت يده من حصص الالتزام، وسدد بأثمانها ديونه واقتصر على إيراده فيما يخصه من وقف جده لأمه الأستاذ الحنفى وتصدى لفاقته وأذيته أنفار من المتظاهرين مثل السيد عمر مكرم النقيب والشيخ محمد وفا السادات وخلافهما حتى إنه كان عقد لابنه سيدى أحمد عَلَى بنت المرحوم محمد أفندى البكرى، فتعصبوا عليه بعد عزله من المشيخة والنقابة وأبطلوا العقد وفسخوا النكاح ببيت القاضى وتسلط عليه من له دين أو دعوى أو مطالبة حتى بيَّعوه حصصه. وكان قد اشترى مملوكا فى أيام الفرنساوية جميل الصورة، فلما حصل له ما

حصل ادعى عليه البائع أنه أخذه بدون القيمة ولم يدفع له الثمن، فلم يثبت عليه ذلك. وكان المملوك ذهب من عنده، وتم الأمر والمصالحة على أن عثمان بك المرادى أخذ ذلك المملوك لنفسه. وقد تقدم ذكر قصته فى الحوادث السابقة. ولم يزل المترجم على حالة خموله حتى تحرك عليه داء الفتق ومات على حين غفلة فى منتصف شهر ذى الحجة وصلى عليه بمسجد جده لامه الشيخ شمس الدين أبو محمد الحنفى ودفن عند أسلافه بمشهد السادة البكرية بالقرافة رحمه الله وعفا عنا وعنه".

وكتب الجبرتى فى حوادث عام ١٢٢٨هـ: "وكان السيد خليل البكرى اشترى دارا بدرب الفرن، وذلك بعد خروج الفرنساوية وخمول أمره وعزله من مشيخة البكرية والنقابة وأنشا بها بستانا أنيقا وأنشأ قصرا برسم ولده مطلا على البستان. فلما توفى السيد خليل تعدى على ولده سيدى أحمد وقهره وأخذ منه ذلك البستان بأبخس الأثمان وخلطه ببستان الدار الجديد وبنى سوره وأحاطه وأقام حائطا بينه وبين دار المذكور وطمسها وأعماها وسدت الحائط شبابيك ذلك القصر وأظلمته. ولم يزل كلما طال عمره زاد كبره وقل بره وتعدى شره. ولما ضعفت قواه تقاعد عن القيام لأعاظم الناس إذا دخل عليه محتجا بالإعياء والضعف ولازم استعمال المُنْعِشات والمركَّبات المفرحة، ولا يصلح العطار ما افسد الدهر".

وفى حوادث ١٢١٥هـ: "ومنها تبرُّج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء. وهو أنه لما حضر الفرنسيس إلى مصر، ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون فى الشوارع مع نسائهم، وهن حاسرات الوجوه لابسات

الفستانات والمناديل الحرير الملونة ويسدلن على مناكبهن الطُّرَح الكشميرى والمزركشات المصبوغة ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقا عنيفا مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة، فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش فتداخلن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الأموال لهن. وكان ذلك التداخل أولا مع بعض احتشام وخشية عار ومبالغة فى إخفائه، فلما وقعت الفتنة الأخيرة بمصر وحاربت الفرنسيس بولاق وفتكوا فى أهلها وغنموا أموالها وأخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات صرن مأسورات عندهم فَزَيَّوهُنَّ بزِى نسائهم وأَجْرَوْهُنَّ على طريقتهن فى كامل الأحوال، فخلع أكثرهن نقاب الحياء بالكلية وتداخل مع أولئك المأسورات غيرهن من النساء الفواجر. ولما حل بأهل البلاد من الذل والهوان وسلْب الأموال واجتماع الخيرات فى حوزة الفرنسيس ومن والاهم وشدة رغبتهم فى النساء وخضوعهن لهن وموافقة مرادهن وعدم مخالفة هواهن ولو شتمته أو ضربته بتاسومتها، فطرحن الحشمة والوقار والمبالاة والاعتبار واستملن نظراءهن واختلسن عقولهن لميل النفوس إلى الشهوات، وخصوصا عقول القاصرات، وخطب الكثير منهم بنات الأعيان وتزوجوهن رغبة فى سلطانهم ونوالهم، فيُظْهِر حالة العقد الإسلام وينطق بالشهادتين لأنه ليس له عقيدة يخشى فسادها، وصار مع حكام الأخطاط منهم النساء المسلمات متزييات بزيهم ومشوا معهم فى الأخطاط للنظر فى أمور الرعية والأحكام العادية والأمر والنهى والمناداة. وتمشى المرأة بنفسها أو معها بعض أترابها وأضيافها على مثل

شكلها، وأمامها القواسة والخدم، وبأيديهم العصى يفرجون لهن الناس مثلما يمر الحاكم ويأمرن وينهين فى الأحكام.

ومنها أنه لما أوفى النيل أذرعه ودخل الماء إلى الخليج وجرت فى السفن وقع عند ذلك من تبرج النساء واختلاطهن بالفرنسيس ومصاحبتهم لهن فى المراكب والمراقص والغناء والشرب فى النهار والليل فى الفوانيس والشموع الموقدة وعليهن الملابس الفاخرة والحلى والجواهر المرصعة وصحبتهم آلات الطرب وملاحو السفن يكثرون من الهزل والمجون ويتجاوبون برفع الصوت فى تحريك المقاديف بسخيف موضوعاتهم وكتائف مطبوعاتهم، وخصوصا إذا دبت الحشيشة فى رؤسهم وتحكمت فى عقولهم فيصرخون ويطبلون ويرقصون ويزمرون ويتجاوبون بمحاكاة ألفاظ الفرنساوية فى غنائهم وتقليد كلامهم شىء كثير.

وأما الجوارى السود فإنهن لما علمن رغبة القوم فى مطلق الأنثى ذهبن إليهم أفواجا، فرادى وأزواجا، فنططن الحيطان وتسلقن إليهم من الطيقان، ودلوهم على مخبآت أسيادهن وخبايا أموالهم ومتاعهم وغير ذلك".

وبعد الجبرتى ننتقل إلى بعض كتاب العصر الحديث: ذكر أحمد حافظ عوض فى كتابه: "نابليون بونابرت فى مصر" (فى الفصل المسمى: "العودة لمصر من سورية")، والكتاب من إصدارات سنة ١٩٢٥فى طبعته الأولى، أنه "فى صبيحة يوم الجمعة ١٠ محرم "١٤ يونيه" جمع الفرنساويون فى القاهرة أهل المدينة من شيوخ وأعيان وموظفين وعامة وسوقة، وأقيمت الزينات ودقت الطبول وعزفت الجوقات الموسيقية عربية وإفرنكية، وتوشح كل ذى حيثية

بالملابس المزخرفة، وتألف من الجنود والأهالى موكب عظيم، خرج من الأزبكية فى صباح ذلك اليوم، يستقبل نابوليون بونابرت خارج المدينة، وكان هو قد عسكر بجيشه فى المنطقة الواقعة بين سراى القبة والعباسية، وكانت تسمى هذه الجهة بالعادلية واليوم يقال لها الوايلية التى هى فى الحقيقة جزء منها، وقد وصف كثيرون من كُتّاب الفرنساويين، ذلك الموكب المنظم والاحتفال الفخم الذى قوبل به نابوليون بعد عودته من سورية لمصر وبالغوا فيه، وكان هو أول المبالغين فى وصفه لحكومة الديركتوار! وليس لدينا فى اللغة العربية غير أقوال الشيخ الجبرتى والمعلم نقولا، والأول لا يزيد فى الوصف على كلمات موجزة، والثانى لم يذكر شيئًا عن الهدايا الفاخرة التى قدمها التجار بالقاهرة وأعيانها وأشرافها لنابوليون، وذلك بالطبع، كما نعرف أمور بلادنا، بناء على تحريضات أوامر من الحكام الفرنساويين، وكان أكثر الناس تملقًا وتزلفًا لنابوليون الشيخ خليل بكرى الذى لم يزل نقيب الأشراف، مع حضور السيد عمر مكرم من يافا، فقد قدم الشيخ خليل من أنواع الهدايا جوادًا عربيًّا كريمًا يقود زمامَه رسمٌ ذلك المملوك الذى اشتهر فى أوروبا وبقى ذكره فى التاريخ خالدًا بجوار اسم نابوليون، لأنه سافر معه إلى فرنسا وبقى معه مرافقًا له فى غدواته، وروحاته، وغزواته وانتصاراته، حتى كان يلقب: "مملوك الإمبراطور"، وكانت له فى قصر النوبارى مكانة معروفة، ولم يكن رسم هذا هو ذلك المملوك الذى كان له مع الشيخ البكرى حكايات مر بها الجبرتى مرور النسيم! بل كان واحدًا من مماليك كثيرين للشيخ البكرى الذى قدم لنابوليون، عدا الجوارى والمملوك، هدايا كثيرة فاخرة ثمينة، فكان سرج الجواد مطرزًا بالذهب واللآلى

واليواقيت، وأهداه أيضًا عددًا من الهُجُن السريع الخطا، وقدم له أيضًا الجوارى الحسان من الجركس والحبشان، والشيلان الكشميرية والأسلحة ذات القبضات المحلاة بالذهب والجواهر الكريمة، إلى غير ذلك من العطر والعود والصندل والأقمشة الحريرية من صنع الهند والصين.

والخلاصة أن الشيخ خليل البكرى، غفر الله له وتجاوز عن سيئاته، لم يدخر وسعًا فى إرضاء الفرنساويين، فجاد بخير ما عنده، وتجاوز الأمر حتى قالوا إنه جاد بعرضه! فقد روى ثقاة المؤرخين أن ابنة الشيخ خرجت عن حدود الحشمة وسلكت مع الفرنساويين مسلكًا شائنًا فوصمت بيت البكرى بوصمت عار لا تُمحى، وقد روى الشيخ الجبرتى، وهو عفيف القلم، تلك الرواية وهو يتململ غيظًا، وقال: إن أعداء الشيخ اتهموه بأن خروج ابنته مع الفرنساويين كان بعلمه ورضاه، والعياذ بالله، وروى بعضهم أنها كانت تسقى أباها وضيوفه من كبار القواد الفرنساويين الشراب فكان ما كان، ولكن هذا على ما أعتقد غير صحيح، وأغرب ما فى حكاية هذه الفتاة وقصتها الغريبة التاريخية ما روته الكاتبة "جيهان ديفرى " فى كتابها عن نابوليون فى مصر، فقد أكدت أن ابنة البكرى "وذكرت أن اسمها زينب البكرية" كانت معشوقة نابوليون بونابرت نفسه، ونحن ننقل روايتها هذه بكل تحفظ، لأننا لا نعرف على أى المصادر اعتمدت هذه الكاتبة الباحثة، إذ من الجائز أنها اعتمدت على مذكرات أو مصادر لم نوفق إلى العثور عليها.

ورواية جيهان ديفرى هى أنه كان لنابوليون بونابرت فى مصر معشوقة اسمها بولين فوريس (Pauline Fourès) وكانت من قبل خاطئة من بلدة

كاركاسون (Carcassone) فى فرنسا وتزوجت من الضابط فوريس، وكان رجال الجيش يعلمون بعلاقة القائد العام بها، وكذلك كان يعرف المصريون، وكانوا يسمونها: "ست السلطان الكبير"، فحدث فى زيارة ابنة البكرى وأمها لتلك السيدة الفرنسية أن وقع نظر نابوليون على الفتاة العذراء ابنة سليل بيت الصديق، فأعجب بظرفها وشكلها الشرقى، وكانت الأخبار قد وردت إليه من فرنسا بسوء سلوك زوجه جوزيفين وأخبار علاقاتها ببعض الضباط فى باريس، ومهدت له بولين الاجتماع بزينب، واتخذها خليلة أخرى له، وكان الفرنسيون يسمونها: "(La petite Egyptienne du Général" كما كانوا يسمون بولين فوريس: "Notre Dame de l'Orient". وروت كاتبة هذه الرواية أن حب نابوليون لزينب لم يدم طويلًا، لأن بولين مكرت بالفتاة وغيرت ملابسها الشرقية بملابس باريسية وقامت لها بالتطرية الغربية، ففقدت ميزتها وغوايتها لدى نابوليون ومال قلبه أكثر إلى بولين.

واتخذ كاتب إنجليزى من كتاب الروايات الخيالية الممزوجة بالحوادث التاريخية حادثة ابنة البكرى جزءًا من موضوع رواية اسمها "المملوك المفقود" تتداولها الأيدى فى كل مكان وزمان، ولكن مؤلف هذه الرواية وصف الشيخ البكرى بأنه كان متألمًا، وأنه كان يسير فى شوارع القاهرة ليلًا نادمًا صاخبًا على ما أصاب ابنته. وذكر مؤلف الرواية اسم تلك الفاجرة، وقال إنها هامت بحب كولونيل فرنسى وكيفما كان الحال فقد لاقت جزاءها بعد خروج الفرنسيس وعودة المماليك والأتراك، إذ قطعوا رقبتها أمام والديها.

ومن أغرب الأمور أن ذلك يحصل ونابوليون بونابرت، وهو شبه ملك لفرنسا "القنصل الأول"، لا يستطيع أن يخلص الفتاة التى عبث بعفافها من القتل!" (نابوليون بونابارت فى مصر/ ط. هنداوى / ٢٠١٣/ ٣٠٩- ٣١١).

وهناك مقال بعنوان "من هى زينب البكرية فتاة القائد؟" (منشور بتاريخ الجمعة ٤ من ربيع الأول ١٤٤١ هـ ١ نوفمبر ٢٠١٩ بجريدة "الأهرام") بقلم محسن عبدالعزيز: "بينما كانت سيدات مصر وفتياتها يسطرن أسطع الآيات فى مقاومة الحملة الفرنسية وجنودها بجانب الرجال، كانت زينب البكرى أو فتاة القائد المصرية كما كانوا يطلقون عليها تعيش أحلى أيامها فى أحضان نابليون بونابرت قائد الحملة الفرنسية. فما هى حكاية زينب البكرى هذه؟

كان نابليون بونابرت فرض على رجال الحملة الفرنسية عدم اصطحاب النساء والفتيات خلال حملته على مصر، ورغم ذلك استطاعت ٢٠٠ امرأة ما بين مغامرة وغانية مرافقة الحملة والتى وصل عددها إلى ٥٥ ألف جندى، لذلك كثر اعتداء الفرنسيين على النساء المصريات، لكن حكاية زينب البكرى فتاة القائد حكاية أخرى تماما.

أبوها هو خليل البكرى كان يتوق لمنصب نقيب الأشراف، وعندما هاجر السيد عمر مكرم نقيب الأشراف إلى الشام بعد مقاومته العظيمة لحملة نابليون بونابرت وجدها فرصة وراح يتودد إلى نابليون ويحمل له الهدايا.

ولأن بونابرت كان يريد التقرب إلى المصريين كما نعلم فإنه استغل مناسبة ذكرى الاحتفال بالمولد النبوى وأمر أن يقام هذا الاحتفال فى منزل السيد خليل البكرى، وذهب بنفسه ليحضر هذا الاحتفال، وبعدها بأيام صدر قرار

بتعيين السيد خليل البكرى نقيبا للأشراف، لكن الأكثر إثارة وأهمية من ذلك أن منزل البكرى أصبح هو المكان المفضل لسهرات نابليون بعد أن التقى بزينب ابنة البكرى وكان عمرها ستة عشر عاما فقط، وأعجب بها بونابرت وهام بها حبا وهامت به وأصبحت فتاة القائد المصرية.

وكان المصريون يراقبون ما يحدث بين قائد الحملة الفرنسية وابنة نقيب الأشراف فى غضب مكتوم، وبمجرد أن غادر نابليون مصر، ثار الناس وذهبوا إلى منزل خليل البكرى وأخرجوا الشيخ وحريمه وأولاده وساقوه فى شوارع القاهرة حافى القدمين عارى الرأس، ولم ينقذه من غضب الثائرين إلا السيد أحمد محرم أحد كبار تجار القاهرة. وبعدها تم عزله من نقابة الأشراف ليصبح عمر مكرم نقيبا مرة أخرى عقب عودته إلى مصر.

أما ابنته زينب فكانت نهايتها مختلفة تماما يصفها عبدالرحمن الجبرتى فى يومياته قائلا: فى يوم ٤ أغسطس ١٨٠١ فى هذا اليوم طُلِبَتْ ابنة الشيخ البكرى، وكانت ممن تبرج مع الفرنسيين، بواسطة معينين من طرف الوزير، فحضروا إلى بيت أمها بالجودرية بعد المغرب، وأحضروها ووالدها فسألوها عما كانت تفعل، فقالت: إنى تبت عن ذلك. فقالوا لوالدها: ما تقول أنت؟ فقال: إنى برئ منها. فكسروا رقبتها.

لكن يظهر أن زينب البكرى التى كسروا رقبتها لم تمت تماما، بعد أن تسللت روحها إلى كثير من المؤسسات وأصبح فى كل مؤسسة "مدرسة، مستشفى، شركة، جامعة" توجد زينب البكرية عينها على القائد مباشرة تستمد منه سلطة وقوة وبطشا فلا يستطيع أحد الوقوف أمامها...".

وفى صحيفة "اليوم السابع" بتاريخ الأحد ٩ فبراير ٢٠٢٠، وتحت عنوان "حكايات غوانى الحملة الفرنسية فى مصر من الاختيار للنعيم لقصف الرقبة- صورة متخيلة لزينب البكرى " كتب أحمد إبراهيم الشريف: "جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر فى عام ١٧٩٨ يقودها الجنرال نابليون المثقل بأحلامه والممتلئ بالتصورات عن الشرق، وكان ضمن هذه التصورات ما يتعلق بالنساء.

تقول كتب التاريخ: "عرض على نابليون ٦ فتيات فاختار أقلهن وزنا وأطولهن قامة وأخفهن رائحة" فكانت زينب ابنة الشيخ البكرى، مع العلم بأن الكثير من النساء قلدن "نساء الفرنسيس" ومعظمهن من الفاسقات الفاجرات المتهتكات بحسب وصف الجبرتى، ولم يذكر اسما سوى اثنتين "زينب البكرية وهوى ".

زينب البكرى سليلة عائلة من أشراف مصر، عندما فر الشيخ عمر مكرم هاربًا بعد مقاومته الشديدة للفرنسيين، وجدها الشيخ خليل البكرى فرصة ذهبية فتقرب إلى نابليون بونابرت وكان نديمه فى شرب الكأس وأهدى نابليون خادمه "رستم زاده" الذى أخذه نابليون معه فى رحلة سفره سرًا إلى فرنسا، كما كان الوحيد الذى ظل معه حتى لفظ نابليون أنفاسه الأخيرة فى جزيرة سانت هيلانة.

لم تكن زينب البكرى تكمل ستة عشر عامًا من عمرها. يقول بعض المؤرخين إن زينب "فُتِنَتْ" بالغازى نديم أبيها والضيف الدائم فى منزلهم والذى وضعه عَنْوَةً فى منصب نقيب الأشراف، وأنها تسللت ليلا بعلم الوالد إلى مخدع نابليون، ويقول آخرون، إنه بعد هروب جوزفين عشيقة نابليون إلى

فرنسا كان حزينا مكتئبا، فأراد قواده الترفيه عنه فقدموا له "ست" فتيات من أجمل بنات الأعيان فى مصر منهم زينب البكرية، وهى التى اختارها نابليون لطول قامتها وقلة حجمها مقارنة بالأخريات. ويؤكد الجبرتى أن زينب عاشرت نابليون ولكنه لم يحدد المدة الزمنية بينما يقول بعض المؤرخين إنها كانت عشيقته لليلة واحدة فقط، وإن نابليون كان يكره رائحتها الثقيلة على أنفه. وعندما هرب سرا صارت زينب ترافق العديد من قواد الجيش الفرنسى وتشرب معهم الخمر. وكما قال الجبرتى صارت تلبس الفستانات وتسير مكشوفة بين الناس، وبمجرد خروج آخر جندى فرنسى فتك بها المصريون فى محاكمة علنية وعقاب جماعى.

كتب الجبرتى يصف موتها فيقول: "وفى يوم الثلاثاء رابع عشرينة طُلِبَت ابنة الشيخ البكرى، وكانت ممن تبرج مع الفرنسيين، بمعينين من طرف الوزير، فحضروا إلى دار أمها بالجوديرية بعد المغرب وأحضروا والدها فسألوها عما كانت تفعل، فقالت: تبت من ذلك. فقالوا لوالدها: ما تقول أنت؟ فقال: إنى برى ء منها. فكسروا رقبتها" ولكن خطاب باكثير قدم شخصية زينب بصفتها "الوطنية الواعية العاقلة" معتمدًا على أن الجبرتى "لم يذكر أنها كانت عشيقة لنابليون، ولكنها الشائعات التى ربطت بينها وبين نابليون لصلة والدها الشيخ خليل البكرى ".

أما "هوى " المرأة المصرية التى كانت زوجة أحد عساكر الإنكشارية العثمانية الذى تركها وهرب إلى الصعيد مع الجنود المهزومة مع مراد بك وإبراهيم بك المملوكين، وتركها مريضة بالحمى، وعندما هجم جنود الفرنسيين

على بيوت المماليك والعثمانين ضربوا المرأة المريضة الوحيدة، وتعاطف معها أحدهم ومنع زملاءه من الفتك بها، وعاد إليها فى اليوم التالى يحمل طعاما والكثير من الرفق والأمان. وطوال ثلاث سنوات عاشت "هوى " مع رفيقها الفرنسى، الذى رفض أن تصحبه إلى حيث يمضى، وعندما عاد الزوج وعلم ما كان من سيرة زوجته لم يلم نفسه ولم يرحمها، وفى الصباح بينما تغرق فى النوم والأمان المخادع هجم عليها وقصم رقبتها".

وثم مقال آخر عنوانه "مقصوفة الرقبة بنت الشيخ البكرى!" (منشور فى ١٥ أغسطس ٢٠٢٣ فى موقع "حريات") بقلم د. محمود عطية: "زينب البكرية ابنة خليل البكرى نقيب الأشراف وقت الحملة الفرنسية ١٧٩٨م. تجمعت حولها كل مآسى الحياة لانفتاحها نفسيا على الدنيا وحبها للحياة، وقد كلفها ذلك أن تم الزج بها داخل أتون الشائعات التى أودت "برقبتها قصفا" فى محاكمة سريعة ظالمة، وقد تبرأ منها والدها تحت نير وضغط المشايخ وخوفًا على حياته. وحتى الآن لم يعرف لها قبرًا!

فقد اشتهرت زينب البكرية رغم حداثة سنها ١٦ عاما بجمالها وحسنها الفائق وتناسق جسمها وعشقها للحياة، فقد اعتادت على الضحك بصوت عال مع صديقاتها فى الطرقات فكانت مازالت فى طور الطفولة.لكن المجتمع كان لا يرحم ويرى أن ضحكها يعد جرما خاصة فى ذلك الزمان، حتى أن البعض رأى أنها كادت تشبه الفرنسيين فى الانفتاح على الحياة فى مجتمع شديد التزمت!

وقد أغضب ذلك بعض المشايخ المصريين خاصة أن زينب قيل إنها من أشراف مصر المنتسبين إلى الخليفة الراشد أبو بكر الصديق، وعمها نقيب الأشراف وشيخ السجادة البكرية.

وكان من المفترض أن يتولى أبوها نقابة الأشراف، لكن المشايخ وقفوا فى طريقه لعيبٍ كما قيل فى الشيخ، وهو ولعه بالغلمان كما جاء ذلك فى تاريخ الجبرتى، وتولى بدلا منه الشيخ عمر مكرم، الذى فر هاربًا بعد مقاومته للحملة الفرنسية. وانتهز ذلك الشيخ خليل وتقرب من نابليون وأصبح صديقًا له وتمكن من اعتلاء سدة نقابة الأشراف مما أوغل الصدور عليه. وقد تعرض لمحاولة اغتيال يرويها الجبرتى حيث قال: "هاجمه أناس كثيرون وصفهم الجبرتى بـ"المتهورين من العامة"، فنهبوا منزله وهتكوا حرمة منزله وعَرَّوُا البكرى من ملابسه فضلا عن اعتدائهم على نسائه وسحبوه من بينهم مكشوف الرأس من الأزبكية إلى وكالة ذى الفقار بالجمالية، وبها عثمان كتخدا الدولة، فشفع فيه الحاضرون وأطلقوه بعد أن أشرف على الهلاك".

وقيل إن نابليون قد تعرف على الفتاة الصغيرة زينب البكرية ابنة الشيخ وقبلها للعمل فى منزله. وسريعا تم تسريب شائعة بوجود علاقة بينها وبين نابليون. ومع ذلك لم يتوافر أى دليل ولا حتى شهود على تلك العلاقة غير الشرعية التى ألصقت بالفتاة.

وحين روى نابليون حكاياته مع عشيقاته لم يذكر من بينهن زينب البكرية بتاتا... لكن ربما صراع المشايخ بعد رحيل الحملة كان سببًا فى تلويث سمعة تلك الفتاة. فقد تولى الشيخ خليل البكرى نقابة الأشراف بسطوة وقوة نابليون.

ويبدو أنه يدفع الثمن بعد رحيل الحملة فى قصف رقبة بنته وتجريده من منصبه. وتم محاكمة بنته زينب بالشائعات فقط التى يفتى الشرع بتنفيذ تلك العقوبة فى حال وجود دليل شرعى وأربعة شهود، كما أنها لم تكن متزوجه حتى تقتل!

فحين رحل نابليون ثم غادرت حملته الفرنسية مصر ١٨٠١م انصبّ الغضب على الشيخ خليل بسبب الشائعات التى طالت بنته زينب ورفيقاتها، فأرسل الوزير جنوده إلى بيت الشيخ خليل البكرى، وسألوا زينب عما يشاع عنها، فقالت خوفا ورهبة: "إنى تبت عن ذلك"، والأب تبرأ من ابنته. والمثير أنه لم يكن شائعا فى ذلك الزمان تعرُّض النساء لعقوبة الإعدام، ومع ذلك حكم عليها وتم قتلها بطريقة شديدة البشاعة، فقد انتصبت واقفة ثم جى ء من خلفها من قصف رقبتها ليًّا، لتصبح أول مقصوفة رقبة فى تاريخنا.

وقد سرد الجبرتى تفاصيل تلك المحاكمة قائلًا: "وفى يوم الثلاثاء رابع عشرينه - أى فى ٢٤ ربيع الأول سنة ١٢١٦ هجرية، الموافق ٤ أغسطس سنة ١٨٠١ ميلادية، طُلِبَت ابنة الشيخ البكرى، وكانت ممن تبرج مع الفرنسيس بمعيَّنين من طرف الوزير، فحضروا إلى دار أمها بالجودرية بعد المغرب وأحضروها ووالدها، فسألوها عما كانت تفعله، فقالت: إنى تبت من ذلك فقالوا لوالدها: ما تقول أنت فقال: أقول إنى برى ء منها. فكسروا رقبتها ليًّا".

ويكتب أحد الباحثين عن تلك المحاكمة: "إن قتل زينب البكرية هو حالة مرضية من الانحياز للذات المتعفنة بكل عجزها وتخلفها وتناقضاتها والتى اختزلت وقائع الخيانة فى "حادثة شرف" ودون أن تلقى بالًا لما فعله خونة

الأوطان من المتواطئين والموالسين والمدلسين، وأصبحت زينب البكرية يضرب بميتتها المثل على البنت العاقة: مقصوفة الرقبة".

وكما يرى القارئ فإن شخصية خليل البكرى تحيط بها رائحة غير مريحة، فقد كان مقربا من نابليون ويعمل كل ما فى وسعه لإرضاء ذلك المجرم الذى بذل كل جهوده فى إذلال مصر وأهلها وقتل الآلاف المؤلفة واعتدى وجنوده على أعراض المصريين، فكان يهاديه ويحول بيته إلى حضرة فى مناسبة المولد النبوى الشريف... إلى آخر ما أوردناه قبل قليل. كما أن بنته لم تقصر فى الانحياز إلى الفرنسيين، وكانت من رائدات التحرر الأخلاقى فى مجال العلاقات بين الرجال والنساء، فضلا عن أن أولئك الرجال هم من غير المسلمين فوق أنهم محتلون للوطن يسرقون خيراته ويهينون رجاله وكباره ويقتلون أحراره، وإن كنا لا نستطيع الجزم بأنها كانت عشيقة لنابليون أو غيره رغم ما قيل فى الكتابات العربية والأجنبية عن أنها كانت "ترافق" ذلك السفاح. والغريب أن يحوّل أحد من تناولوا هذا الموضوع، كما قرأنا آنفا، من خيانة للوطن وانتهاك لكرامته وانحياز لأعدائه ومسايرة لمن قتلوا رجاله وشبابه ونساءه وفتياته ومجاهديه وعلمائه وارتماء فى أحضانهم وفرحهم بانتصارهم على المصريين فى ثوراتهم الأولى، فيأتى ذلك الكاتب ويجعل الموضوع موضوع حد زنا، ويتساءل: هل يصح أن يطبق هنا حد الزنا على زينب؟ وإذا كان فهل حد الزنا بالنسبة لها هو حد القتل؟ وليت المسألة وقفت هنا بل رأيناه يؤكد ما معناه أن ما صنعته تلك الفتاة إنما هو تعبير عن عشقها للحياة، وأن من قتلوها خونة منافقون أغبياء. وهذا تمييع للموقف وتحريف له عن مساره من خلال قوله

بأن المشكلة ليست فيما فعلته البنت البكرية بل هى خيانة الخائنين للأوطان. وهل ما فعلته زينب هو تعبير عن الإخلاص للوطن والتفانى فى حبه ومنفعته؟ فانظر، أيها القارئ العزيز كيف فجرت بضع كلمات عن تلك الفتاة فى الرواية التى بين أيدينا كل اهتمامى وأثارت شهيتى لدراسة هذه القضية التى شغلتنى منذ قرأتها لدن الجبرتى وغيره! وللمفارقة فإن نشأت المصرى، حينما سألته قبل تحقيقى ذلك الموضوع من أين استقى أنها كانت عشيقة نابليون كان جوابه أنه كتبها هكذا، والسلام. وقد تقبلت منه هذا الرد دون مراجعة، لكنى الآن أتصور أنه قرأ هذا الموضوع عند هذا الكاتب أو ذاك لكنه نسى الأمر إلى أن انخرط فى تأليف الرواية، فَحَسِبَ أن تلك الكلمات هى بنت ساعتها. وهذا يحدث لى أنا أيضا بين الحين والحين.

ورغم هذا كله فإن مؤلفنا الأستاذ نشأت المصرى لم يتحدث عن زينب البكرية بأكثر من بضع كلمات سريعة هنا وهناك أشار فيها إلى أن بونابرته، حسبما ينطق اسمه، قد وقع فى غرامها لتكرر رؤيته لها لدن تردده على بيتهم إذ كان أبوها من كبار رجال الدين، فهو نقيب الأشراف البكريين، ويعمل بكل طاقته على راحة نابليون ويقيم حضرات المولد وما شابه عنده. وقد كانت رشاقتها وطول عودها سببا فى سقوطه عشيقا لها. وأغلب الظن أنه يريد إلى القول بأن بعض رجال الدين المسلمين لا يتورعون عن التعاون مع الأعداء المحتلين تحت هذه الذريعة أو تلك، وأن الأمم المهزومة قد تصل فى الانبهار بعدوها المنتصر عليها إلى الحد الذى وصلت إليه زينب وأمثالها من النساء الحمقاوات التافهات الخفيفات العقل اللاتى لم يجدن فى بيوتهن من يربيهن على

العزة والاستقامة والكرامة بل لم يرين فى آبائهن سوى الانبطاح أمام العدو المجرم. وكنت أود لو أعطاها المؤلف صفحات أكثر يتتبع فيها امتزاج حياتها بالفرنسيين ونابليون متخيلا ما وقع لها معهم مما قادها إلى تلك النهاية الشنيعة.

وتعقيبا على رأى من رأى أن ما صنعته الفتاة إنما هو تعبير عن عشقها للحياة ينبغى أن نوضح أَنْ ليست المسألة مسألة عشق للحياة، بل عشقا للوقاحة والانحراف والانجراف إلى المناطق المظلمة المريبة وتحدى العرف والرأى العام والتمرد على قيم الدين وسبيله المستقيم. وليس فى ما فعله المصريون مع زينب وشبيهاتها غرابة، فكل الشعوب تتصرف هذا التصرف فى هذا الموقف. أما إذا قيل إنها كانت تعشق الحياة فلعنة الله على حياة تدفع إلى مثل هذا العشق السام. إنه ليس عشقا للحياة بل فراغ عقل وموتان ضمير وخيانة وغدرا وتماهيا مع العدو المتوحش فى ظروف بشعة تجعل حتى الجمادات تتعاطف مع البشر من حولها. هذا ما فهمته من تضمين المؤلف روايته تلك الكلمات القليلة العارضة التى تقول الكثير رغم هذا. والله أعلم.

ولو كان يصح لى الحقائق وتسمية ما عملته زينب "عشقا للحياة" لكان ينبغى ألا ندين قتل الإنسان لأخيه بل علينا تسميته: "تسلية ووسيلة للتخلص من الملل" كما يفعل، وتسمية الرشوة وخيانة الوطن من أجل المال والمنصب: "شَبْرقة ورغبة فى القُبُوب على سطح الدنيا"، وتسمية المومس: "ناشرة للبهجة"، وصانعى الأوثان: "فنانين تشكيليين"، وإطلاق الشائعات المدمرة لسمعة الآخرين وأعراضهم: "فنونا سردية"... إلخ إلخ، أعوذ بالله! وسوف أمشى مع هذا المنطق إلى آخره وأترك الكلام عن الحلال والحرام، فأين الانتماء للوطن

والمجتمع؟ وهل يصح فى مثل تلك الظروف أن أنسل من بين أهل وشعبى وأذهب فأقدم نفسى، ولو عاطفيا فقط بعيدا عن الجنس والزنا، إلى من يحتلون بلادى ويسومون أهل وطنى القتل والنهب والذل والهوان والاحتقار وتدمير البيوت والمساجد؟ إن لبعض الناس قدرة على تشكيكك فى وجودك ذاته وإقناعك أن الدنيا من حولك، فى عز ظهيرة الصيف وفوق رأسك الشمس الساطعة المتوهجة، هى ظلام دامس بارد لا تستطيع أن ترى فيه كفك وأن ما تراه من ثم حولك من بشر وجمادات وما تسمعه من أصوات وحوارات كل ذلك أوهام بصرية وأذنية ليس لها أية حقيقة لأنك فى جوف الليل والدنيا كلها تغط فى نوم عميق! وليس معنى هذا أننا نرى دائنى زينب ملائكة مقربين، وإلا فلو دِنّاهم على موقفهم منها وإنكارهم انحيازها إلى الفرنسيس الكلاب فى تلك الظروف دون أية مبالاة منها باختلاف اللغة والثقافة والدين والعادات والتقاليد والملابس والاهتمامات والقيم والمبادئ ولون البشرة والجو كله والكراهية التى يكنونها لبلدها وأهل وطنها ودينها ونبيها وربها والخمر التى يتناولونها والخنزير الذى يأكلونه بل وحتى عدم ختانهم المخزى لَمَا كان هناك أى معنى ولا مجال لإدانة أى انحراف. خيبة الله عليها! ومع هذا فنحمد لمن يدافع عنها وحقها فى حب الحياة العفنة أنهم لم يطالبوا بإعطائها جائزة "الفتاة المثالية" استباقا لما نادت به وغنته ورقصت عليه وضربت بالصاجات الرقاصة بنت الرقاصة فى فلم "خَلِّ بالك من زوزو" من أنها هى "الفتاة المثالية" ولما كُرِّمَتْ به الفنانة القديرة التى تشفط دخان الجوزة بفمها شفطا وتخرجه من منخريها كفافورتين من جائزة "الأم التى ينبغى أن تُحْتَذَى " لالتزامها بذهابها

من البيت إلى الكباريه، ومن الكباريه إلى البيت دون أن تخطئ مرة واحدة فتنحرف إلى مدرسة أو مسجد أو عمل شريف!

ثم لقد كانت هناك نساء مصريات شريفات عفيفات لم يتردين فى تلك الهوة الدنسة بل احتفظن بوطنيتهن وتمسكن بدينهن. وصور المؤلف مشاركتهن، على الأقل فى الرواية، فى الكفاح ضد الفرنسيس وقمن بما يقوم به الرجال الأحرار. فلِمَ لَمْ تختر بنت البكرى هذا الطريق؟ إنه طريق عشق الحياة الحقيقى حتى لو انتهى بالاعتقال والتعذيب أو القتل على يد العدو. وقد قيل بحق: احرص على الموت تُوهَبْ لك الحياة. ومن هؤلاء النسوة زوجة مصطفى الخادم أحد رجال محمد كريم، الذى كان يدير حركة المقاومة السرية ضد الفرنسيس، وكانت مع الابنة تشاركان فى هذا الجهاد الوطنى العظيم.

وهذا أول نص من النصوص التى ورد فيها اسما هاتين المرأتين: "عصرًا طلب نابليون برتييه لتصفّح أخبار الجيش الذى تحرك إلى مدينة دمنهور، فقبض برتييه وجهه بيديه، وغرس نظراته الحزينة فى الأرض، وقال فى لهجة رثاء بينما الشمس تخترق الغرفة بقوة:

ـ أهل دمنهور تحركوا معًا فى وقت واحد كأمواج بحر غاضب، وأجبروا جيشنا على الفراروالعودة: بعضهم يبكون، وآخرون انتحروا.

ـ لا عليك، الحرب كر وفر. المهم ألا يتحركوا معًا مرة أخرى، سأكون معكم منذ اللحظات الأولى فى التحرك لغزو القاهرة.

ـ وصلنى من حافظ أنه سمع اسم مصطفى الخادم يتردد بين جموع الناس.

ـ ماذا عن أسرة مصطفى؟

ـ له زوجة وابنة فى نحو العشرين من العمر تدعى بهية.

ـ لنقبض عليهما، ويعذبان (الصواب "وتُعَذَّبان" بالتاء) حتى يظهر مصطفى ويسلم نفسه.

ـ الثلاثة اختفوا، كما هجروا بيتهم (إذ كان تنظيم مصطفى الخادم للمقاومة يقتضى أن يتنقل بأسرته هنا وهناك بعد اعتقال الفرنسيس السيد محمد كريم).

ـ هى مسألة وقت، لن نتركه حيًا هو وعصابته. المهم الآن اجمعوا أكبر عدد من الجمال والبغال لتحمل متطلبات الحملة.

ـ للأسف اختفت كل الجمال والبغال من الأسكندرية كأنما ابتلعتها الأرض. وفشلت جهودنا فى الترهيب أو الترغيب بدفع أثمان مغرية" (ص٣٥).

وهذا نص آخر: "وعلى مقربة من الإسكندرية، فى دمنهور، تحت ستار الليل هَمّ مصطفى الخُطَى معتمدًا على عصاه بعد أن أصيبت ساقه بشظية قنبلة من قبل عند مهاجمته لقوات الفرنسيس، طرق الباب بعصاه وهو يتلفت حوله، استقبلته زوجته البدينة بفرحة وشوق وهى تقبل وجهه كله، وهو يضمها إلى صدره، يداعب وجنتيها بأنفه الطويل وقد أشرق وجهه بابتسامة هى زاد زوجته، وهو يقول لها ككل مرة: وحشتينى، وهى ترد عليه: أنت بخير؟ فيجيبها بابتسامة فصيحة تكشف عن شيء من أسنانه، ثم يمد يده يصافح ابنته بهية، التى تغوص عيناها فى وجهه الأسمر، وتتأمل عينيه الواسعتين وشعره الناعم الأسود وهى فخورة بأبيها البطل الذى يتحدث الناس عن شجاعته فى

كل مكان، وتسعد بملمس يده الخشنة التى يخافها الإفرنج. قالت زوجته، وقد أعدت له ثيابًا بديلة: هيا استحم وسأحضر لك المعمر الذى تحبه.

أنجز ما قالت زوجته ثم جلس إلى جوار ابنته الوحيدة. قالت بهية وهى تنتظر تفاعل أبيها مع كلماتها:

ـ وأنا أيضًا أحب المعمَّر لأنك تحبه.

راحت زوجته تربت بيدها على كتفه وظهره، وتتفرسه من أعلى إلى أسفل، وبهية تستعجله ليحكى لها عن آخر بطولاته، وقد فركت يدها بيدها الأخرى تستحثه أن يروى كل التفاصيل، قالت: كم من الإفرنج مات الأمس واليوم؟ فَرَد كف يده محركًا أصابعه الخمس: ولو كان عددنا أكبر لمحوناهم من الوجود. صفقت بهية قالت:

ـ أتمنى أن أكون مثلك، ومثل بقية المقاومين، خذنى معك، لقد مللت من الاختباء، ويوجع قلبى هؤلاء الضحايا الذين يسقطون كل يوم حتى وهم فى بيوتهم، لن أنسى أن المتوحشين قتلوا صديقتى الأولى ليلى بعد أن اغتصبوها.

ـ نحن ننتقم لها ولك، والفرنسيس يبحثون عنك وعن أمك لينتقموا منى. ولن أمكنهم من ذلك، وغدًا ستنتقلان إلى منزل آخر لا يعرفكما فيه أحد، فللفرنسيس للأسف جواسيس لا نعرفهم:

اقتربت بهية من أبيها، ثم قبلته فى رأسه، قالت:

ـ ألم تقل لى إن الهجوم أفضل طريقة للدفاع عن النفس، وأن المهاجم خسائره أقل من النائم فى فراشه. ستأخذنى معك يا أبى.

ـ أمك تحتاج إليك.

ـ لقد اتفقت معها، وهى أكثر حماسة منى.

وهزت أمها رأسها بالموافقة قبل أن يسألها مصطفى. اقتربت أمها منهما أكثر فأكثر وشكلوا دائرة ملتحمة بالعواطف التى تشتعل يومًا بعد يوم، ثم غادرت بهية الغرفة لتصنع الشاى بالنعناع الذى يحبه مصطفى من يدها. قالت زوجته بعينيها ما يملأ كتابًا فى الغرام، رد مصطفى على صمتها البليغ الدافيء وهو يحضن يدها الناعمة بيده الخشنة: لعنة الله على الإفرنج، وعلى المماليك وعلى العثمانيين، كلهم لصوص أفاقون، يحرموننى من أسرتى التى أحبها، كلما رأيت أو سمعت عن امرأة تهان تذكرتك وزاد وجعى، وانطلقتُ للثأر لك ولبهية ولكل بنات مصر.

قبلته: ـ ألف لعنة عليهم جميعًا. لكن العجيب يا مصطفى أن بعض الناس يصدقون الفرنسيس ويسكتون.

ـ دعينا من الجهاد الآن، لاستمتع بزوجتى الجميلة، وابنتى بهية. خذى هذه الريالات، لا تضيقى على نفسك، فأنت فى غربة ورحيل دائم.

ـ وأنت هل تجد طعامًا مناسبًا لك ولرجالك، وهل ما تركه السيد محمد كريم من أموال لكم قبل سجنه، يكفيكم لفترة طويلة؟ اهتم بنفسك أولًا أما نحن فيكفينا القليل.

ـ لا تقلقى، لقد ترك لنا حبيبنا كريم حفظه الله ونجاه ماننفق به على لوازم الجهاد، كما أن بعض التجار يرسلون لنا المعونات. لكننى فى شوق لممارسة مهنتى كقبانى، وحشنى السوق وما فيه. كنت أهزر مع حبيبنا كريم وأقول له، سأصبح حاكمًا للإسكندرية، لأنك كنت تعمل فى صباك قبانيًا،

فكان يضحك ويقول، هيا نتبادل الأعمال من الآن، فأنا أحن إلى هذه المهنة البسيطة.

ـ أنا فخورة بك يا مصطفى. وابنتك بهية حتى لو أكلنا عيشًا وملحًا فقط، عندى لك مفاجأة.

فتحت صندوقًا كبيرًا، وأخرجت منه لفافة صغيرة من القماش مربعة الشكل، خيطت أطرافها، مدت يدها بها إلى مصطفى، الذى أخذها داهشًا، قائلًا: ماهذا؟ حجاب؟ قالت:

ـ نعم يحميك من الرصاص إن شاء الله، ضعه فى جيبك السفلى " (ص٥١- ٥٤). وربما كان من المستحسن هنا القول بأن اسم "بهية" قد يكون رمزا على مصر. فبهية كانت تدافع عن مصر، وكأن المؤلف يريد إلى القول بأن مصر تدافع عن نفسها، وأولاد مصر هم مصر لا فرق بينهم وبينها. ذلك أنى لاحظت أن بعض من كتبوا عن مصر قد رمزوا لها ببهية. وأرجو ألا أكون قد غاليت فى الحديث هنا عن رمزية بهية.

وهذا نص ثالث، والإشارة فيه إلى مقتل محمد كريم عى يد الفرنسيين المجرمين: "فى منطقة العجمى بالإسكندرية قبع مصطفى فى منزل مهدم، ومعه أصدقاء المقاومة، بينما انصرفت بهية إلى قلب المدينة لرصد ما يجرى من أتباع كليبر. معظم المقاومين قبل سن الثلاثين، وصلهم الخبر كانطباق السماء على الأرض".

ثم هذا نص رابع: "الله أكبر، الله أكبر!

تعالى الأذان لصلاة العشاء، بصوت مؤذن جامع الرويعى الجميل الطلى بوسط مدينة القاهرة حيث تسكن بهية مع أبيها الذى انتقل إلى القاهرة لبعض الوقت فرارًا من مطاردة كليبر له فى الإسكندرية، وقد نجحت بهية فى تنفيذ أكثر من عملية، واستطاعت فى إحداها أن تنقذ أباها من جواسيس القومندان، هرعت بهية إلى المسجد بعد أن ارتدت حجابها الأزرق، واصطفت مع المصليات فى مكان السيدات بالمسجد، كان عددهن أربع، بعد الانتهاء من الركعة الأولى، سمعت ضجيجًا، وأصواتًا مناوئة حانقة من جماعة الرجال،وقبل أن تسأل أو يسألها أحد، قفز أمامهن عسكرى من الفرنسيس شاهرًا بندقيته مهددًا، طلب منهن أن يقفن فى طابور، واحتلت بهية المركز الثانى من الوقفة، وقد نسج الخوف خيوطه عليهن، حلا للعسكرى أن يعبث بمناطق من أجسادهن ليعرف أيهن أكثر تجاوبًا فيصطفيها لنفسه، كور صدر الأولى فى يده، فارتدت إلى الوراء خطوة اشمئزازًا منه ونفورًا، نهرها وثبتها فى مكانها بعد أن نزع عقدها الذهبى، وطلب من الأخريات خلع مايرتدين من حلى، فى تلك الأثناء مدت بهية يدها إلى جنبها، وجهزت خنجرها الذى لايفارقها فى تنقلاتها المعتادة، أمر العسكرى الأولى أن ترفع يدها إلى أعلى تنكيلًا بها، ليتفرغ لبهية، التى زاد طمعه فيها، وفتح عينيه أكثر لما شافه من حسنها وسمرتها التى لعبت بخياله،ورشق نظره بين شفتين من فصيلة الكرز الذى يحبه حتى أنه ابتلع ريقه، وبدأ بلمس شفتيها، فألقت له شباك ابتسامة ماكرة، فسرحت يده فى طريقها إلى صدرها الناهد، وقد سرى فى دمه خدر النشوة الوليدة، تلفظ بحروف لم تفهمها، ومع اللمسة الأولى ارتجفت وهى فى مكانها، فترجمها إلى

أنها تفاعلت معه، وبقية المصليات كن فى تعجب ساخط لثباتها وابتسامتها ورد فعلها الرقيق، وفى لحظة تبدلت ملامحها وهى تستل خنجرها، وتضربه فى صدره بقوة، وهى تخبط بقدمها بندقيته فسقطت على الأرض، ندت عنه آهة حبستها بهية بيدها فى فمه خشية أن يسمعه رفاقه فى موقع الرجال، سقط إلى جوار بندقيته، بين ذهول المصليات اللواتى ساعدنها فى ارتداء بدلة العسكرى، والقاء بساط على الجثة. ثم تحركت بهية، ممسكة بالبندقية وأمامها طابور المصليات وقد رفعن أيديهن إلى أعلى، وخرجن من المسجد على مقربة من زميلين للقتيل يتعاملان مع الرجال. وما أن خرجن من المسجد حتى ذبن فى خلايا الليل، ووصلت بهية إلى سكنها المؤقت، وفى الليلة ذاتها سلمت البندقية إلى أبيها الذى قبل رأسها وهو يقول: أنت بطلة يا بنت مصطفى، ثم قال: أكثر الله من أمثالك، كم أنا فخور بك، لو أن كل الشباب مثلك لهرب الأوغاد من مصر. حان وقت النوم،فقد كان يومًا رائعًا لك ولنا. علينا أن نغير مكاننا غدًا.

على رغم الانتقال كانت تتردد على مسجد الرويعى من وقت إلى آخر مستبشرة به، كأنها تأمل فى اصطياد بندقية جديدة، وتقضى على همجى متوحش، لكنها لم تتخيل أنهم سيهدمون المسجد. هل الانتقام لقتل الهمجى يكون بهدم المسجد، سألت نفسها: أين الادعاء بأنهم جاءوا لنصرة الإسلام؟ وبدأت تتخيل البنايات البديلة، هل تكون بيتًا أوقصرًا لأحد النظار أو الباشاوات؟

بعد فترة فوجئت ببناء جديد من طابق واحد تتصدره لافتة حمراء كلماتها تقول: خمارة الرويعى. لابد أن الرويعى الآن فى حالة حزن معتق".

والآن أليس هذا هو عشق الحياة الحقيقى، العشق الذى نغدقه على وطننا وناسه؟ أم لا يكون عشقٌ للحياة إلا من خلال الجسد وشهواته وتفاهة العقل والانحياز إلى العدو الذى يحتل بلادنا ويغتصب نساءنا ويعتقل أحرارنا ويقتلهم ويدمر بيوتنا ومساجدنا ويحول بيوت العبادة إلى خمارات؟

وأسلوب نشأت المصرى سلس ومنساب وتراكيبه منسجمة، ومفرداته فى موضعها بوجه عام. ورغم أنه لا يخلو من ملاحظات هنا وهناك فهو أفضل من أساليب كثيرين غيره من الكتّاب القصصيين. وهناك بعض من هؤلاء يعهدون بأعمالهم إلى من يسمون هذه الأيام: "مدقِّقين لغويين"، فيوفقون أحيانا، بينما فى أحيان أخرى لا يقعون على مدققين حاذقين مهتمين، إذ إن تخرج المدقق اللغوى من أقسام اللغة العربية ليس ضمانا لمقدرته على القيام بتلك المهمة، فكثير منهم بحاجة إلى من يدقق له لغته. وأذكر أن أحد الأصدقاء نبهته إلى ما فى روايته من غلطات لغوية، فاستغرب مؤكدا أنه عهد بها إلى مدققة لغوية بارعة، فضحكتُ قائلا: فماذا لو تكن عهدت بها إلى مدققة بارعة؟ وكان تعقيبه أن الرواية، قبل إسنادها إلى تلك المدققة، لم تكن تشتمل على هذا العدد الكبير من المآخذ اللغوية.

وأنا فى الواقع أستغرب كيف يكون الإنسان كاتبا، أيا كان ميدان تأليفه، ثم يقع فى كل تلك الأخطاء اللغوية التى تصدمنا عند قراءة ما يكتبه كثير من الأدباء الحاليين. والمفترض أن تكون ثقافتنا قد اتسعت الآن، وبخاصة بعدما صارت كتب تعليم النحو والصرف المعاجم متاحة لنا ووفيرة فى كل مكان على المشباك وبدون مقابل، وكل ما على الواحد منا أن يضغط على فأرة

الكاتوب لكى ينزل الكتّاب مرفرفا فى كفك قائلا وهو يزغرد: "شبَّيْك لبَّيْك! عَبْدُك وبين يَدَيْك!". ولقد كان الشعراء القدامى والكتّاب يكتبون فلا يخطئون. ولا ينبغى أن يتعلل أحد منا بأنه ليس عربيا بالدم، ومن ثم فالعربية غريبة عنه يحتاج استعمالها أن نتعلمها تعلما. ذلك أن الغالبية الساحقة الماحقة من الكتّاب والأدباء الماضين لم يكونوا عرب الدم مثلنا تماما، ومع هذا لم نسمع أن أحدهم اتخذ هذه الحجة عذرا له بل تعلم لغة الضاد وأتقنها سريعا وأبدع بها أيما إبداع. وليست اللغة بحاجة إلى كتب النحو المنبسطة القديمة بل يكفى متعلمها هذه الأيام أن يراجع كتب القواعد التى تدرس فى مراحل تعليمنا الإعدادى والثانوى لا غير مع تكرار المراجعة وحل التمارين الموجودة فى آخر كل درس. ولا أظن الأمر يأخذ أكثر من شهر، وبخاصة أننا سبق أن درسنا هذه القواعد فى المدرسة.

وقبلا كان النقاد يؤاخذون الأدباء إذا ما بدا لهم أنهم أخطأوا، وكانت تثور المعارك والحروب اللغوية والأدبية لهذا السبب، وظل هذا التقليد ساريا حتى وقت ليس بالبعيد. فكان اليازجى يؤاخذ شوقى على أقل هفوة، وربما لم يكن ثم مَدْعًى لهذه المؤاخذة كما فعل عندما قرَّعه على قوله: "مدَّ فلان أذنه"، إذ الصواب فى نظره هو أن نقول: "أرهف أذنه" لأن العرب لم تقل إلا "أرهف"، وهو ما دَفَعَتْهُ عن شوقى قائلا إن كلا التعبيرين صورة أدبية، فلا الأذن تُرْهَف أو تُمَدّ، بل كلاهما مجرد مجاز، ولا يصح أن نحجر على صناع التعبيرات المجازية، بل الباب مفتوح إلى يوم القيامة. ثم أتيت بأمثلة من كلام العرب القدماء كى أسد باب الفتنة الذى فتحه اليازجى، وكان شديد الاعتزاز

بنفسه متوقرا يكاد ينفجر من عنف ثقته بذاته. ومعروفة حكاية عنوان الترجمة التى قام بها حافظ إبراهيم لرواية "Les Misérables"، إذ عربه إلى "البؤساء"، فعيب عليه استعماله لهذه الصيغة الخاطئة فى نظر منتقديه، وصوابها كما يرون هو "البُؤَّس" لا "البؤساء" مع أن من الممكن الاستشهاد على وجاهتها بشعراء وعلماء. وكان الرافعى يحاسب العقاد على النقير والقطمير فى شعره ويسمعه من قارص القول الكثير والكثير رغم أنه العقاد، وهذا موجود فى كتاب الرافعى: "على السفود". أما الآن فلم أعد أسمع بناقد يردد نظره اللغوى فى النص الذى أمامه، وخاصة إذا ما كان العمل إبداعا قصصيا.

وأنا من أنصار الشمولية فى النقد، فلهذا أتناول كل ما ألحظه فى العمل الأدبى مما أرى أن تناوله ذو فائدة، وأوله وعلى رأسه اللغة. ولى مقولة أكررها دائما، وهى "كما أن النجار لا يمكنه مثلا صنع صوان جميل للملابس إذا لم يكن يحسن دق المسمار فكذلك لا يمكن الأديب أن يبدع نصا جميلا إذا لم يكن يحسن لغته"، إذ كل من الأمرين هو الخطوة الأولى فى عمله. والمشكلة ليست هنا فحسب بل إن الناقد أيضا فى غير قليل من الأحيان يكون ضعيفا فى النحو والصرف والمعجم، وقد دخل المهنة عدد كبير من الدخلاء يظنون أن إحسان اللغة أمر هامشى إن لم يكن بلا قيمة. إن إتقان اللغة سمة حضارية، فنحن نستطيع أن ندلق الطعام على الأرض ونأكل، ولسوف نشبع فى هذه الحالة ونسكت صياح عصافير بطوننا، لكن الحضارة لا ترضى بها، بل لا بد من مراعاة طقوس تناوله. ونستطيع أن نرتدى الخيش وتمضى أمورنا دون مشاكل، فالخيش يستر العورة ويقينا حر الشمس وبرد الشتاء، لكن للحضارة

منطقا آخر... وهكذا وهكذا. وبالمناسبة فقد أخطّئ أنا مثلا شيئا فى لغة الكاتب ثم يتضح لى أن هناك وجها له غاب عنى. وليس فى هذا عيب، فمن عرف حجةٌ على من لا يعرف، واتساع المعرفة يضى ء لنا زوايا وخفايا ما كنا لنبصر ما بها لولاه. ونحن كل يوم نطور من أنفسنا جراء اكتسابنا معرفة جديدة لم تكن لنا من قبل ونفتح عقولنا وقلوبنا وأذواقنا للجديد على الدوام، ونستدرك أخطاءنا. بل إنى حريص فى الندوات والمحاضرات والكتب على ذكر تجاربى فى هذا المضمار وضرب الأمثلة عليه من تراجعاتى دون أدنى حرج.

ونعود إلى أسلوب مؤلفنا، وهو أسلوب سلس منساب كما قلت، وفوق ذلك هادئ هدوء صاحبه،بل أحس أنه خفيض الصوت أيضا مثله. وقد قرأت الرواية واستمتعت بقراءتها. وهى رواية غير طويلة، وتركز على نابليون فى الفترة التى قضاها بمصر. واستطاع المؤلف أن يأخذنا معه أكثر من مائتين وعشرين سنة إلى الوراء وهيأ لنا العيش مع أحداث ذلك الزمان حين غزا الفرنسيون مصر وعاثوا فيها فسادا وقتلا ونهبا واعتداء على الأعراض فى لوحات حية رغم قصرها وانقسامها إلى أجزاء صغيرة تتسم بتنوع السرد والحوار والتدسس إلى أعماق أبطال الرواية. وكنت أحب لو خلت من بعض الهنات اللغوية، إذن لكانت أفضل وأفضل. كما كنت أود لو جرى نشأت المصرى على منوال نجيب محفوظ وصور لنا منظر الشوارع والبيوت فى ذلك العصر كما فعل محفوظ مثلا فى "الثلاثية" فأبدع وأمتع، وبخاصة أنه كان يضفى عليها من شاعرية نفسه الشىء الكثير.

ولا أحب التوقف أمام موضع الهمزة فى "انّ" بعد القول: هل هى فوق الألف أم تحتها؟ والمعروف أنها تكسر فى هذا الموضع، وإن كان هناك من يجيز فتحها، لكنه رأى غير منتشر ولا أظنه يحظى بالقبول عند سائر النحويين. وعدم رغبتى فى التوقف أمام هذه الهمزة فى الرواية سببه أنها كسرت فى بعض المواضع، وفتحت فى بعض المواضع. وربما كانت التبعة واقعة علَى مَنْ رَقَن الرواية على الكاتوب لا على المؤلف. ومثلها "إرْسِلْ" فى "إرسل إشارة إلى كل القيادات" (ص٧، وصوابها "أَرْسِلْ"). وفى ص١٨ نقرأ "كان الرد مرسوما بشيفرات الغضب الحادة على وجه السيد محمد كرّيم" (بدلا من شفرات). وأرجح الظن أنه سَبْق إصبع من الكاتب لانتشار هذه الكلمة فى العقود الأخيرة عند النقاد والأدباء حين حول النقد الحداثى كل شىء يقوله الأديب أو يكتبه إلى "شيفرات". وعندنا استعمال المؤلف للفعل "تماهى ": "تماهى بصره إلى سقف القاعة" (ص٢٨). والمقصود أنه رفع بصره ناحية السقف. لكن "تماهى فلان مع/ وفلان"، فيما أعرف من كتابات من يستخدمونها فى كتاباتهم بأُخَرَة، تعنى أنهما صارا شخصا واحدا بفعل تمازج ماهية هذا مع ماهية ذاك حتى أصبحت ما هيتاهما ماهية واحدة. وفى الصفحة٣١ يستعمل المؤلف الاهتزاز للعين: "وعيناه تهتزان فى محجريهما"، ولو قيل: "تضطربان/ تدوران" لكنا فى الجانب السليم. وفى العبارة التالية: "سيعطيك فوفليه شارتين لك وليعقوب ليعرفكما جنودنا ويقومون بحمايتكما" نجد فعلا مضارعا مرفوعا رغم أنه معطوف على مضارع منصوب (ص٣٢. والصواب "ويقوموا"). أما فى قوله (ص٣٣) على لسان نابليون يخاطب عشيقته: "تعالِ

يا زهرة" فصحتها "تَعَالَىْ". ومما شاع فى أسلوبنا الحالى شيوعا ملحوظا التركيب التالى: "يحضنان بعضهما" (ص٣٤. ومن السهل، وهو الصواب، أن نقول بدلا من هذا: "يحضن أحدهما الآخر/ تحاضنا. ومثلها "قهقها بما تبقى من الشفاه التى تلوذ ببعضها" بدلا من "التى يلوذ بعضها ببعض"/ ص٦٩).

ومن السهوات التى وقعتُ عليها قول المؤلف فى نفس الصفحة: "التصقا بالحائط المزركش بالروث، ووجهيهما إلى الجدار" (ووجهاهما: مبتدأ مرفوع). وفى ص٦٨ نقرأ عن نابليون: "أفاق من سُرُوحه". وهذه أول مرة تقابلنى، فى حدود تذكرى، "السُّرُوح" هذه. وقد توقفت إزاءها، إذ كنت أتوقع أن يقول: "أفاق من سَرَحَانه" كما نقولها فى لغتنا اليومية وكما يقضى به معنى الفعل الذى يشير إلى الحركة والجولان: "دوَران، ذوَبان، جَوَلان، مَوَتان، ضَرَبان، دَوَخان، سيَلان، جرَيان، طيران، ثَوَران، غثَيان، نَوَسان، رَوَغان، لمعان، سريان"، لكنى سرعان ما قلت فى نفسى: ولم لا تكون صيغة "سروح" صحيحة جريا على القاعدة التى تقول إن كل فعل لازم، وماضيه على وزن "فَعَلَ"، يمكن أن يكون مصدره "فُعُول"، مثل: "ركن ركونا، نهض نهوضا، جلس جلوسا، نزل نزولا، حضر حضورا، مَرَّ مرورا، رجع رجوعا، سقط سقوطا، هرب هروبا، ذهب ذُهُوبًا، رقد رقودا، قعد قعودا، شرد شرودا، مرق مروقا، صمد صمودا، بَرَدَ بُرُودًا، بَرَزَ بروزًا، عَبَس عبوسًا، خنع خنوعا، قنع قنوعا، حالَ حُؤُولا، سَفَلَ سُفُولًا، نما نموًّا، عَلَا علوًّا، عَتَا عُتُوًّا، عَنَا عُنُوًّا، سَمَا سموًّا، علا علوًّا، دنا دنوًّا..."؟ وبالفعل وجدتها بعد ذلك فى "معجم اللغة العربية المعاصر" للدكتور أحمد مختار عمر.

ومن استعمالات الكاتب التى تبدو لى جديدة منعشة "يمتصّ نَفَسًا طويلًا" (ص٣٣)، "هاجَسَتْنى نفسى" (ص٧٦)، و"فى صمتٍ صارخٍ"، تلك العبارة التى تعج بالمفارقة، إذ تجمع بين الصمت، أى عدم وجود صوت، والصراخ، وهو أعلى الأصوات وأشدها. وهذا شىء قريب مما كان قدماؤنا يطلقون عليه: "تداول الأعضاء" ("تراسل أو تبادل الحواسّ" فى النقد الحديث) لكنه ليس هو بالضبط، إذ لا اختلاف هنا بين حاستين كالأذن والعين مثلا، بل بين درجتين فى إدراك نفس الحاسة، فلدينا فى العبارة حاسة الأذن وحدها ولها درجتان: درجة اللاصوت (الصمت) ودرجة الصوت العالى الشديد (الصارخ). كما لاحظت أنه استعمل جمع الجمع مرتين على الأقل: فى "أهرامات" (ص٤٣) و"كشوفات" (ص٨٠)". وهذا استعمال صحيح. ومما سمعته من جمع الجمع: "رجالات، خصومات، زيوتات، شحومات، بيوتات، سراويلات، عطورات، ألوانات". وفى ص٨٠ "أربعة وعشرين ساعة" (بدلا من "أربع وعشرين ساعة"). كما أنه يقول: "فرنساوى" و"فرنسى" كلتيهما: الأولى على السماع، والثانية على القياس. ويقول عن "الفرنسيين" أيضا: "الفرنسيس". وكل هذه الاستعمالات موجودة فى لغتنا. وأنا نفسى قد استعملت فى هذا المقال صيغة "الفرنسيس" غير مرة جريا على أسلوب كتّابنا وشعرائنا القدامى والمحدثين، الذين يستعملون هذه الكلمة للشخص الواحد أو للفرنسيين كلهم. ومن ذلك قول شرف الدين البوصيرى (ت٦٩٦هـ):

وَمَنْ قَتَلَ الفَرَنْجَ أَشَدَّ قَتْلٍ؟ = وَمَنْ أَسَرَ الفَرَنْسِيس اللَّعِينا؟

وقول محمود قابادو (شاعر تونسى ت١٨٥٤):

قل للفرنسيس المجاور أرضنا: = ما قبلكم نطحتْ أسودا شاءُ
وقول محمد شهاب الدين (المكى المصرى ت١٨٥٧):
حتى حَمَى مَنْ تولاه وأدخلهم = بسعيه تحت سلطان الفرنسيسِ
وقول رشيد مصوبع (شاعر لبنانى ت١٩٢١):
أسرتني الدّمى بمصر فلا أسـ = ـطيع بعدًا عن أرضها وارتحالا
أين ألقى التليان لو بنتُ عنها = للفرنسيس قد أقاموا احتفالا؟

ويجدها القارئ مرتين فى "البداية والنهاية" لابن كثير (ت٧٧٤هـ)، ومرتين فى "الوافى بالوَفَيَات" لصلاح الدين الصفدى (ت٧٨٤) للويس التاسع. ومرتين لدى المقرى (ق١٠- ١١م) فى كتابه المشهور: "نفح الطيب"، علاوة على قول ابن مطروح يقصد ذلك الملك أيضا،أى بوصفها صيغة إفراد:

قل للفرنسيس إذا جئتَه = مقالةً من ذى لسانٍ فصيح:

وفى "تاريخ الجبرتى": "واتُّهِم الشيخ خليل البكرى بأنه يوالى الفرنسيس ويرسل إليهم الأطعمة". وواضح أن المقصود الفرنسيون لا فرنسى بعينه.

ومن صور نشأت المصرى الطازجة قوله: "وسمع نابليون أزيز ضعفهم" (ص٨١)، الذى جمع بين الضعف والأزيز، وهما لا يتسقان: فالأزيز صوت قوى حاد، والقوة والحدة عكس الضعف، فضلا عن أن الضعف لا يُسْمَع، إذ هو ليس صوتا أصلا. وتقابلنا فى الرواية بعض المصطلحات الإدارية والسياسية والعسكرية والعمارية التى كانت شائعة آنذاك ولم تعد تستخدم الآن مثل "السنجق، الكتخدا، صارى/ سر عسكر، الليوان، الغليون، القومندان، الفرنجة، الديوان، الوالى، المحتسب، الطَّبْلِيّة، الفُرْقاطة". أما لغة السرد والحوار

فهى، بعيدا عن هذه المصطلحات، لغة عصرية مباشرة كالتى يكتب بها كثير منا فى الوقت الراهن.

كذلك قابلتنى عبارة "يا مصريين" لدى كاتبنا أكثر من مرة، وقد يتصور البعض أنها ينبغى أن تكون "يا مصريون". لكن قد يكون المعنى فى عبارته: "يا أى مصريين"، وذلك كما يقول الخطيب على المنبر يوم الجمعة مثلا: "ياغافلًا تنبَّه" حين لا يقصد غافلا بعينه لحه وهو يخطب، بل "يا كُلّ/ يا أىّ غافل".

كما رأيت الأستاذ المصرى يورد بعض العبارات العامية فى الحوار، لكن ذلك نادر فى الرواية. وأنا من المحبذين لاستعمال الفصحى ما أمكن فى الحوار مثله مثل السرد والوصف والأحاديث الذاتية الداخلية. ومن القليل العامى الذى لقيته فى الرواية: "ولا عسل ولا حاجة" (ص١٩)، "من حسن حظنا أن المصريين... يثورون بالقَطَّاعِى" (ص٣٣)، "ما أَكْرَمَ وأَعْبَطَ هذا الشعب" (ص٤٥)، "وَحَشْتِينِى" (ص٥٢)، "وَحَشنى السوق وما فيه" (ص٥٤)، "كنت أهزّر مع حبيبنا كريّم" (نفس الصفحة. و"الهذر" بالذال لا بالزاى)، "حتى لو أكلنا عيشا وملحا فقط" (نفس الصفحة)، "وأطلقتْ ريالتها" (ص٧٠)، "نَهَرها وثَبَّتَها فى مكانها" (ص٧١).

وفى ص٤١ نطالع النص التالى، وهو لنابليون، قاله من فوق حجر من أحجار الهرم: "وإننى أشهد النجوم المختبئة، والشمس السافرة، والرياح الحائرة، والأرضَ بما حملت، أشهد كل هؤلاء أننى أبصق على الهرم الأكبر (وبصق) ومَنْ رفعه، وعلى حفدة خوفو، والأغنياء الأغبياء، وعلى من يستعد لبيع نفسه فيهون عليه الوطن". وهو نص يُخْطِر فى بالنا من بعيد، من حيث تقسيم الجمل

وتواليها على هذا النحو، قوله تعالى فى بعض السور القرآنية الأخيرة: "وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ"، "أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ * فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ". ولا ينبغى أن يفوتنا ما أراد المؤلف وضعه على لسان نابليون فى كلامه عن بيع النفس والوطن مما يومئ إلى ما يقع أمامنا الآن.

وفى تلاعب لفظى فوجئتُ به من مؤلفنا وضحكتُ (لأنه، فيما أعلم عنه، رجل لا يسخر فى كتاباته ولا يتهكم ولا يهزل) يقول نشأت المصرى على لسان أحد أبطال الرواية عن هدم الفرنسيين لمسجد الرويعى وإقامة خمارة مكانه: "بعد فترة فوجئتُ ببناء جديد من طابقٍ واحد تتصدره لافتة حمراء كلماتها تقول: خمّارة الرويعى. لابد أن الرويعى الآن فى حالة حزن معتّق" (ص٧٢). الله الله يا عمو نشأت! "حلوة منّك، بالنسبة لسنّك" كما يقول الناس فى مثل هذا الموقف!

وفى الرواية بين الحين والحين يلجأ المؤلف إلى ما يشبه المعادل الموضوعى كما فى النص التالى، وهو من كلام بونابرت لأحد ضباطه: "بعد أن يستقر بنا الحال فى القاهرة ستثور هذه القرية من جديد، ووقتها سنقتحم القرية ونقتل الثائرين، وأولهم هذا الطفل الشجاع.

التزمت القرية الصمت، وعلا صوت السواقى النائحة إلى أن رحل نابليون وجيشه" (ص٣٩).

ثم هذا النص: "مع لحظة الغروب الملونة العاتبة احمرَّ جفن الأفق غضباً من أجل ألوف الفراعنة الجدد الذين فاضت أرواحهم، وكتبت الطيور الحزينة فى الهواء: وماذا بعد؟" (ص٤٥).

وهذا النص أيضا: "طلب نابليون من برتييه إعداد موكب عسكرى يرافقه إلى الهرم يليق بالفراعنة القدامى مصحوباً بالموسيقى سيُعْزَف فيه المرسيليز على مسمع من خوفو، ومع الموسيقى عزفت حوافر الخيل النغمات على الأرض، وهى تتدلل فرحة بالوغد الغازى نابليون.

دون أمر من القائد احتبست الأنغام فى قصبات المزامير أمام هيبة الهرم الأكب، ران عليهم صمت بعمق آلاف السنين، سمع نابليون صوتًا هائلًا يطرق كل خلايا دمه: أنت هنا فى حضرة خوفو العظيم. فوجيء برتييه بنابليون يفجر ضحكة فى الفضاء كادت تثقب أذنه. اخترق أفقهم غراب أجرب اللون، والشمس أغمضت عينها لحينٍ خجلًا" (ص٤٦).

وحينما ساق الفرنسيون المجرمون السيد محمد كريم ليعدموه فى ميدان الرميلة بالقاهرة نقرأ: "ومع دقات صباح يوم ٦ سبتمبر ١٧٩٨ انتزعه عساكر الشيطان، كما لقبهم كريم من قبل، إلى ميدان الرميلة (ميدان صلاح الدين حاليًا) بالقلعة، وكلب فى آخر الطريق لا يكف عن العواء الحزين يضرب وجهه بيده اليسرى كمدا.

...

على حافة هوة سحيقة وقف السيد محمد كريم، وجهه إلى وجوه الجنود. عصبوا عينيه بقماش رديء، سمع الفضاء النائح صوت الشيخ كريم وهو يقول آخر كلماته: وفقك الله يا مصطفى وأكثر من أمثالك. أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله. وأردفها بقوله: "آه" مع انطلاق الرصاص فى صدره وقلبه. آه، تأوهت الريح، وتأوه النور، وتأوهت الأرض تحت قدميه، ولم تتحمل الطيور جنون المشهد، فصبغت الفضاء بولولاتها، ومحمد يموت، يستشهد محمد كريم، ونابليون على مقربة يتنفس رحيق الدم والحياة، تجمعت كل العطور تزف روح محمد، محمد كريم، السيد محمد كريم، الشيخ محمد الذى يحبه الناس كثيرًا! كان هذا حديث البلابل والهداهد التى أقبلت مسرعة لتحيط بالجثمان. ووقف كائن لا يعرفه أحد لا تتوقف دموع عينيه، وعلى غير عادة أصاب الفضاء رعد متسارع أرعب القتلة، وانتابت القمر حالة كسوف غير مفهوم.

اتشح النسيم بالسواد، ولفت مصر عباءة الحداد بها ثقوب حمراء هى الطلقات التى اخترقت جسده الشريف" (ص٦٤- ٦٥).

وفى ص٩٠: "زحف نابليون بجيشه إلى العريش فيافا حيث استولى عليها، وهزم الجيش العثمانى، وأسر ثلاثة آلاف جندى. قال لجنوده بقلب أسود، وبعينى نمر وضيع: اقتلوهم جميعًا، لا تنظروا مستنكرين، أعلم أنهم أسرى ولا يجوز قتلهم، وأنه مخالف لاتفاقات التسليم، لكن متى كان للحرب قلب أو عقل عطوف؟". ومن ذلك أيضا، والكلام لأحد رجال المقاومة المصريين ضد الفرنسيس: "أقسم بالله العظيم أن نحرر البلاد والعباد من أعداء الوطن المماليك والعثمانيين. ببلدات سنهور والرحمانية فتح الجحيم عيونه، وتأججت

المعارك، ثم جنت، واهتزت بضراوةٍ دعاماتُ قوات الفرنسيس، ودماء شهداء المصريين تروى الأرض، وتزعق فيها بأقوى من الكلمات لتتوارثها الأجيال: الدماء الدماء لحن الأرض. وبعد انحسار وانتصار كسبت مدافع الفرنسيين معركة البحيرة، واحتل الغزاة دمنهور، وظلت فى سمع الأيام بطولات خارقة وإن كانت لم تطرح ثمارها فى حينه، وصار ندى الحقول دموعًا، وزهرات تزين أحلام الناس، وحزنت الأقلام وهى تكتب: إن قتلى الفرنسيس ستون قتيلًا، بينما الشهداء الطيبون ألفان" (ص٩٤).

هذا، وقد عثرت فى مجرى السرد بضمير الغائب على عبارات يفصح فيها السارد المحايد عن مشاعره فى بعض الأحيان. وواضح أن المؤلف لم يكن بمكنته حبس مشاعره إزاء بعض الوقائع والمواقف، فانطلقت هذه التعليقات على غير قصد منه: "طلب نابليون من برتييه إعداد موكب عسكرى يرافقه إلى الهرم يليق بالفراعنة القدامى مصحوبًا بالموسيقى سيعزف فيه المرسيليز على مسمع من خوفو. ومع الموسيقى عزفت حوافر الخيل النغمات على الأرض، وهى تتدلل فرحة بالوغد الغازى نابليون" (ص٤٦). وفى النص التالى نقرأ: "قال يعقوب ـ الحقير المرحب به دائمًا: ـ من الغد سنستولى على ضرائب أكثر من العمال والفلاحين، وأصحاب الحوانيت الصغيرة بأية وسيلة"، فنرى السارد المحايد يصف يعقوب الخائن النجس المسمى: "المعلم يعقوب" بـ"الحقير المرحَّب به دائما" (ص٨٧. وقد تكرر ذلك فى الرواية). وعن نابليون: "ومع الموسيقى عزفت حوافر الخيل النغمات على الأرض، وهى تتدلل فرحة بالوغد الغازى نابليون"(ص٤٦).

والآن رغم أننا قد بلغنا نهاية الحديث عن الرواية فلا مانع من كلمة عن بعض "عتباتها"، التى ذكرتنى بها عبارة الإهداء الموجودة فى أول الرواية، وهى عبارة "إلى الليل الطويل". فعبارة الإهداء، عند المتهوسين بما يسمى: "عتبات النص"، هى عتبة تسهل فهم النص الأدبى التى تسبقه. وأنا ضد هذا الكلام الفارغ تماما. فبالله عليكم، وأنا راض بحكم ضمائركم بشرط أن تحكموا عقولكم وتدعونا من ترديد مقولات النقد الحداثى ترديدا ببغائيا، ما الذى يفهمه القارئ الكريم من هذه العبارة قبل أن يعرف مضمون الرواية وينتهى من قراءتها؟ لا شىء. فقد يكون معناها الشكوى من طول ليل المحب الذى يبيت يتقلب على فراش الهجر والشك. وقد قال على الحصرى القيروانى (ت٤٨٨):

يا ليلَ الصبِّ، متى غدُه؟ = أقيام الساعة موعدُه؟

وقال من قبله امرؤ القيس:

ألا أيها الليل الطويل، ألا انجلِ = بصبحٍ، وما الإصباح منك بأمثلِ

أم هو تعبير المعاناة يقوله مريض يتألم من مرض عضال لا يستطيع جراءه أن ينام؟ وقد أذكر، والله وأنا صادق، أنى قضيت ليلة عصيبة وأنا شاب صغير أول عهدى بالجامعة حين عزمت بعد ثلاثة أيام لا غير أن أحول أوراقى من كلية السياسة والاقتصاد، التى لم أجد فيها نفسى، إلى كلية الآداب، التى "تخرّج الأدباء" حسبما كنت أتصور وأنا صبى فى طنطا. ذلك أنى من فرحتى لهذا القرار كنت أتمنى لو أشرقت الشمس فى عز الليل "لآخذ بعضى" وأذهب للقيام بهذا التحويل. وكم أسفت لأنى محروم من المشى ليلا رفقة صديق على الزراعية التى تمر بقريتى نتسامر فى ضوء القمر صيفا ونستمع إلى المذياع وهو

يغنى لنا وحدنا فى ذلك الفضاء ونتمنى لو يستمر الليل إلى الأبد. وهو ما كنت أنا وزوجتى نتمناه ونحن راجعان من القرية إلى القاهرة ليلا على طريق بنها-شلقان، نكاد نكون وحدنا على الطريق الهادئ المظلم، والأشجار والنهر العريض عن يميننا، والسيارة تعدو بنا، والبنت الصغيرة على الكنبة الخلفية نائمة، إذ كنا نقول لأنفسنا: ألا يمكن أن تمتد الرحلة بنا هكذا إلى كيب تاون بجنوب القارة السمراء؟ إى والله! فأى ليل طويل يا ترى يقصده المؤلف بهذا الإهداء؟ ولعل القارئ قد لاحظ أننى أجلت تناول الإشارة إلى هذا الإهداء ودلالته إلى ما بعد الفراغ من قراءة الرواية ونقدها. وأستطيع المضى فى ذكر الأمثال فلا أنتهى. كذلك فالخط الذى كتب به العنوان لا يعجبنى. ومثله اللون. إى والله! كما كنت أود لو كانت هناك تناسب بين طول الصفحة وعرضها، إذ أجد أن العرض كان ينبغى أن يزاد سنتيمترا أو اثنين. جميل، ولكن هل منعنى هذا من قراءة الكتاب والاستمتاع بما فيه؟ أبدا لم يمنعنى فى شىء. وهل لو لم يكن الغلاف ملونا ولا مصورا هل كانت قيمة الرواية الأدبية ستنقص؟ لا والله العظيم. بل دعنا من هذا ولنتساءل: وهل الخط واللون جزء من النص الروائى؟ من قال هذا؟ إخص على كده! وهل المؤلف هو الذى كتب بيده العنوان ورسم الغلاف؟ مبلغ علمى أنه لا هو خطاط ولا هو رسام. فما الذى خلط أبا قرش على أبى قرشين إذن؟ الذى فعل هذا هم ملاحيس النقد الحداثى الفارغون الذين يرددون ما يقول النقاد الغربيون كالقردة. وحتى لو كان نشأت المصرى خطاطا ورساما وأديبا ولاعب كرة ورافع أثقال وسائقا للقطار الذى يحمل أكداس كتابه هذا التى لا تزيد عن عشرين ثلاثين نسخة

(وهذا لو وصل عدد النسخ المطبوعة إلى عشرين!) وموزع نسخه على محافظات مصر، كل محافظة ورقة من الكتاب، بالإضافة إلى أنه المنادى على الكتاب حتى يأتى الناس ليروا صاحب الصوت ويعرفوا ماذا يبيع وحين يعرفون أنه ينادى على الكتب ينظرون إليه شزرا وينبرى أسلطهم لسانا قائلا له بصوت أجش كصوت أبى لهب عم الرسول عليه السلام: تبا لك سائر هذا اليوم بل سائر الحياة كلها! ألهذا جمعتنا؟ أقول: لو أن الأستاذ نشأت المصرى هو كل هذا أَوَيَدْخُل هذا ضمن إبداعه الأدبى حتى نشغل أنفسنا كنقاد بالعنوان والغلاف والخط والرسم والألوان والإهداء؟ وهذا إن كان لرأينا الانطباعى فى هذه الأمور وزن؟ وحتى لو كنا متخصصين فى نقد الأدب ونقد تصميم الأغلفة معا أيدخل هذا النقد الفنى فى النقد الأدبى؟ أبدا وحياة ربنا! ثم لقد كانت الكتب حتى وقتٍ جِدِّ قريبٍ تصدر دون تصاوير على الغلاف، بل كانت قديما تكتب بخط صاحبها، الذى ليس خطاطا عادة، فهل يقل محتوى الكتاب فى تلك الحالة عن محتواه الآن بعدما صرنا نتفنن فى تصميم الكتب وأغلفتها؟

أما العنوان نفسه فهو، كما كتبت مرارا وشرحت تكرارا، مجرد اسم علم على الرواية كما أن اسمى إبراهيم عوض، واسْمَكِ سلوى إبراهيم، واسْمَكَ هشام العطار، واسمها بنت الشاطئ أو أم كلثوم، واسمه باراك أوباما، واسمه محمد المنشاوى لا أكثر ولا أقل. وأمامنا عنوان الرواية التى فى أيدينا الآن، فهل يمكن، قبل الاطلاع على الرواية ومعرفة ما تحويه، التوصل إلى العلاقة بين العنوان وبين الرواية؟ إن العنوان هو "بونابرته"، وهو اسم القائد الفرنسى

المعروف. وهذا كل ما هنالك. فهل يا ترى تقص الرواية نشأته وتعلمه فى المدرسة وما تعرض له من مواقف مبهجة أو مؤلمة؟ أم هل تقتفى أثره فى الجيش وكيف تدرج فيه حتى وصل إلى ما وصل إليه؟ أم تدور الرواية على علاقته بزوجته جوزفين وكيف كانا يتعاملان فى البيت وخارج البيت؟ أم هل تعالج موقفه منها كزوج واقع حتى رأسه فى عشقها رغم خيانتها له؟ أم هل تتناول طفولة بونابرت مثلا؟ أم هل تتبع مسيرة حياته حتى صار حاكما على فرنسا؟ أم هل تحكى لنا قصة حربه فى الروسيا وإلام انتهت؟ أم هل تصور محاولته فتح عكا وفشله فيه؟ أم هل هى تروى حكاية شخص سماه مَنْ حوله: "بونابرته" لشبهه به نفسيا وشكليا كما يسمَّى لاعب زملكاوى: "أوباما"، وكما كنا نسمى صديقا لنا بالجامعة متحذلقا وذكيا ومتكلما بـ"فوستك" (اسم صاروخ روسى فيما أذكر)؟ أم أم أم؟ الواقع أنه لا هذا ولا ذاك ولا ذلك ولا هذاك ولا هذالك، بل محورها اقتفاء خطوات نابليون منذ اقترب أسطوله من ساحل الإسكندرية إلى أن فر فى الظلام عائدا إلى فرنسا تاركا الجيش وراءه يكمل ما كان يطمح إليه من الاستيلاء على مصر والانطلاق منها إلى بلاد الشرق الأخرى. والأمر مستحيل مع بعض الروايات كما هو الحال مع "باب القمر" لإبراهيم رمزى، و"بداية ونهاية" و"أولاد حارتنا" و"الشحاذ" لنجيب محفوظ مثلا، أو "الشارع الجديد" و"جسر الشيطان" للسحار، أو "مليم الأكبر" لعادل كامل، أو "أشواك" لسيد قطب، أو "الجبل" و"الساخن والبارد" و"الرجل الذى فقد ظله" لفتحى غانم، أو "مرتفعات وَذَرِنْج" لإميلى برونتى، أو "سالِسْ مارنر" لجورج إليوت، أو "عودة ابن البلدة" لتوماس هاردى، أو "الأب جوريو"

لأونوريه دو بلزاك، أو "كل شيء هادئ فى الميدان الغربى" لإريك ماريا ريمارك....؟ وكلها من مطالعات الصبا والشباب.

رواية "زهرة من حىّ الغجر"

لصلاح شعير

ما معنى "زهرة من حىّ الغجر"؟ أتحدى أى إنسان لم يقرأ الرواية أو لم يقرأ عنها أو لم يسمع بمضمونها من صديق قرأها قبله أن يعرف ماذا يعنى هذا العنوان حتى لو خبط برأسه عُرْض الجدار من هنا حتى يوم الدين. لقد قلتُ مرارا فى دراسات لى سابقة عن بعض الروايات والقصص القصيرة إن بدعة توقف النقاد النظريين والتطبيقيين أمام العنوان والزعم بأنه يعنى كذا وكذا وأنه هو العتبة (والشباك والباب والمنفذ ولا أدرى ماذا أيضا) إلى الرواية يدل عليها ويشير إلى ما فيها هى كلام فارغ أو كلام فى الهجايص كما يقال فى العامية المصرية. وخلاصة رأيى الذى أخالف به هؤلاء النقاد: الغربيين منهم وأبناء جلدتنا الإمعات الذين لا يستطيعون أن يستقلوا بشخصياتهم وأن يفكروا من كيس عقولهم، خلاصة هذا الرأى أن العنوان هو اسمُ علمٍ على العمل القصصى أو المسرحى الذى يسمى به لا أكثر ولا أقل، وأن العمل الأدبى لا يفهم من خلال العنوان بل الصواب هو أنه لا يستطاع فهم العنوان إلا من خلال الكتاب، أى بعد الانتهاء من العمل. فالأمر إذن على النقيض تماما مما يقال هذه الأيام عن العنوان والعنونة.

وتدور الرواية على أوضاع الغجر فى العصور المختلفة حول أرجاء العالم، وتتناول تقاليدهم وما يعرض لبعضهم من تحول ومغادرة لدنيا طائفتهم. ومهمة السرد فيها لا يقع عبئها على كاهل أحد من البشر ولا يقوم بها سارد واحد

بل أسندها المؤلف إلى عدد من الأقلام التى يحكى كل منها ما يعرفه من أحداث الرواية وتصرفات أبطالها وأحاديثهم طبقا لما تناهى إلى علمه أو بحث عنه فى مظان المعرفة المتاحة له: فهذا قلم مسمارى من عهد السومريين، وهذا قلم ذكى من عصرنا لديه القدرة على البحث فى المشباك (الإنترنت) عما يراد منه تقصيه، وهذا قلم حبر، وهذا وهذا وهذا.

وقد تذكرت وأنا أقرأ الصفحات الأولى من الرواية قصص الأطفال الخرافية التى أبطالها أشياء جامدة لا حيوانات ولا عفاريت ولا ولا، وخطر لى على الفور قصص الأديب الدانمركى (القرن ١٩) هانز كريستيان أندرسون التى يقوم بدور البطولة فيها براد الشاى أو الملعقة أو العسكرى اللعبة أو القلم الرصاص وما أشبه. ثم لما أعدت النظر جاء على بالى بعض الأحاديث التى تتضمن "أشياء" تتصرف وتتحدث كما يتحدث البشر ويتصرفون: كالحديث الذى نرى فيه حجرا يخطف ملابس موسى من على الشاطئ ويجرى بها بينما كان عليه السلام يستحم فى البحر، وكالحديث الذى يأمر الرسول فيه شجرة بمغادرة مكانها والإقبال إليه فتطيعه، وكذراع الشاة المسموم الذى قدمتها له امرأة يهودية فما إن قربها صلى الله عليه وسلم من فمه حتى نحاها ولم يطعمها قائلا: هذه الشاة (ذراعها طبعا لأن الشاة كانت قد نُحِرَت، وليس فى يده سوى الذراع) تخبرنى أنها مسمومة، وكالحديث الذى يَنْسُب إليه عليه السلام قوله لأُحُد: هذا جبلٌ يحبنا ونحبه، وكقوله فى حديث آخر موجها خطابه إلى مكة: لولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت، وكذلك الحديث الذى يصف ما وقع حين انتقل فى خطبة الجمعة بالمدينة من جذع النخلة الذى كان يقوم فوقه

إلى منبر صنع خصيصا ليخطب عليه بدلا من الجذع، إذ تقول الرواية إن الجذع قد حن إليه صلى الله عليه وسلم ولم يهدأ ويسكت إلا بعدما ربت الرسول عليه أو احتضنه تعاطفا معه، وكذلك الحديث الذى يقول فيه عليه الصلاة والسلام متنبئا بمعركة تدور مستقبلا بين المسلمين واليهود فيختبئ اليهود عند هزيمتهم وراء الأحجار فينطق الحجر قائلا: يا مسلم، هذا يهودى ورائى، فتعال اقتله، وكالحديث الذى يتحدث عن تسبيح الحصا فى كفه صلى الله عليه وسلم، والحديث الذى يذكر أنه كان بمكة حجر يسلم قبل البعثة عليه كلما مر به.

وهذه أول مرة أقرأ رواية للكبار يقوم بالسرد فيها جماعة من الأقلام المختلفة. وإلى القارئ العزيز مدخل الرواية، وعنوانه "القلم الذكى"، وكله عن تلك الأقلام المتنوعة، والمتحدث فيه هو "القلم الذَّكي". قال: "استقبلتني الأقلام التي بالمكتبة عند السابعة من مساء الاثنين ١٤ من فبراير ٢٠٢٣ مبهورة بفصوص اللؤلؤ التي تلمع فوق جسدي الذهبي. زادت الدهشة بعدما عرفوا أنيّ متصل بالشبكة العنكبوتية، أستطيع قراءة الكتب بكاميرا خاصة مثبّتة في رأسي، لديَّ قدرة على نسخ كل ما أراه على هيئة ملف "وورد" في ذاكرتي الإلكترونية، أمتلك عدّة حسابات على مواقع التواصل الاجتماعي أكتب عليها ما يجول بخاطري من موضوعات.

أخبرت الأقلام، بأنني قد وُلدتُ في بلاد الصين منذ ثلاثة أعوام؛ اشتراني صاحب هذا القصر الكبير "جميل أبو الذهب"، للتوقيع على العقود بالصفقات الكبرى، لم يوقِّع بي إلا صفقة واحدة، ثم أصيب بعدها بمرض عضال؛ لذا وضعني أولاده بهذه المكتبة المهجورة منذ ساعات.

أصابني الانبهار من كثرة الأقلام الأثرية، يبدو من البطاقة الملصقة على "حافظة الأقلام" أنه تم شراؤها من مزاد للمقتنيات النادرة، لاحظ "القلم المسماري" ارتباكي، تقدَّم نحوي قائلًا:

- بصفتي أول قلم للكتابة في التاريخ أرحب بك في بيتنا، لا داعي للحرج أو القلق، كل الأقلام هنا ترحب بأي قلم ينضم إلينا. لا توجد بيننا أفكار طبقية.

- أشكرك يا سيدي.

- عقيدتنا قائمة على احترام الآخر أيًّا كان أصله.

نظرت نحو القلم المسماري. قلت بامتنان:

- الأسلوب الراقي ليس بغريب عليك، أشكرك على حسن الاستقبال وعلى ما قدّمته من معلومات بالنقش على الأحجار.

هزّ "القلم المسماري" رأسه بحزن، ثم قال:

- منذ ولادتي بمدينة سومر العراقية قبل الميلاد، سنة ٣٥٠٠، وأنا في شقاء مستمر.

- أي شقاء تقصد؟

- كم دقَّ الإنسان بالمطرقة فوق أم رأسي، تحمَّلت قسوة الطرق من أجل تدوين التاريخ. إثبات الحقيقة يا ولدي مقترن بكل الأوجاع.

قلت مواسيًا:

- وها أنت قد استرحت من كل ذلك العناء.

ردَّ بسخرية:

-أي راحة تلك؟ ألم الفراغ لا يقل عن ألم الدَّق فوق الرأس.

عقب هذه الجملة طرأت في رأسي فكرة لعلها تخرجنا جميعًا من شبح البطالة، قلت مبتسمًا:

- لديَّ وسيلة لقتل هذا الفراغ يا سيدي.

قفز نحوي بشغف:

- ما هي يا ولدي؟

- أن تساعدني مع باقي الأقلام على قراءة هذه الكتب لرفع الموضوعات النادرة بها، على موقع "حكايات الشعوب".

رقص القلم المسماري فَرِحًا، أذاع الخبر بين زملائه، مال القلم الخشبي يُقبلني، كذلك فعل "القلم العربي" المصنوع من جريد النخيل، تقدَّم "القلم الحبر" مُرحِبًا بالفكرة، ثم قال:

- بصفتي ثاني قلم مصري ظهر في عالم الكتابة بعد "قلم الريشة" الفرعوني سوف أقف بجوار مشروعك الثقافي بكل قوة.

انحنيت له احترامًا، ثم قلت:

- هكذا أنت عظيمًا منذ ولادتك بالعصر الفاطمي عام ٩٦٩ ميلادية.

ردَّ بتواضعٍ شديدٍ:

- لا وقت للمجاملات، دعني أخبرك. طبقًا لمعيار الكفاءة سوف أبايعك أميرًا للأقلام بدلًا مني.

أنجلني إنكار الذات. قبل أن أنطق بكلمة واحدة تقدَّم القلم الرصاص قائلًا:

- وأنا أيضًا أبايعك على ذلك.

أوَّل قلم رصاص بالعالم يبايعني. ما أثار دهشتي عدم فنائه، فكل الأقلام الرصاص تُقْصَف أثناء الكتابة إلا هو. عندما سألته عن السبب ردَّ قائلًا:

- عندما صُنِعْتُ في إنجلترا عام ١٥٦٤م لم يتم استخدامي، حُفظت في القصر الملكي قرابة قرنين، سرقني بعدها عامل النظافة ثم باعني.

- هل أنت سعيد بعدم الفناء؟

- لا. ما يحزنني أنني عاطل منذ ولادتي. كم تمنيتُ أن أعمل حتى لو قُصِف عمري.

لم تمر ساعة حتى نصَّبوني أميرًا للأقلام. أقسم جميعهم على السمع والطاعة. عندما أشار مؤشر الساعة الرقمية إلى الثامنة قررت الانغماس في العمل. ربما يؤدي النشاط إلى سريان الدفء في أوصالي.

الأتربة الناعمة عرقلت مهمتي، كادت أن تغطي عدسة القراءة والتصوير المثبَّتة فوق رأسي. بمجرد أن شاهدني قلم الريشة مرتبكًا جاء يهرول، مسح التراب من فوقي، شعرت بأنني سوف أنجح، لأننا سوف نعمل بروح الفريق.

لفت نظري وجود رواية تحمل عنوان "زهرة من حي الغجر"، كل الأقلام متحفزة للانتهاء من القراءة في هذه الليلة لمعرفة علاقة هذه الفتاة بكل أبطال الرواية، وخاصة صاحب المكتبة".

ولا شك أن هذه جرأة فنية من د. صلاح شعير: أن يجعل سُرَّاد روايته كلها تقريبا أقلاما بحيث كل قلم يحكى ما حدث فى عصره أو قريبا منه: فالقلم

المسمارى يروى ما وقع فى العصور القديمة، والقلم الذكى يسرد ما يحدث فى عصرنا.

ولقد أعجبنى الحوار الذى دار بين القلم المسمارى والقلم الذكى كما قرأنا فى النص السابق، إذ يقول الذكى للمسمارى: "لدىَّ وسيلة لقتل هذا الفراغ يا سيِّدى" ليرد عليه المسمارى: "ما هى يا ولدى؟". فالقلم الحديث يقول للقلم القديم: "يا سيدى" احتراما وإجلالا لأنه أطول منه عمرا، والقديم يقول للحديث: "يا ولدى" على سبيل العطف والاستلطاف. وهى التفاتة ذكية وظريفة جدا من المؤلف. ومثلها قول قلم الرصاص: "كم تمنيت أن أعمل حتى لو قُصِفَ عمرى". فقلم الرصاص معرض للقصف كثيرا أثناء الكتابة به، فاستعار المؤلف قصف سِنِّه لقصف عُمْره. وهذا تلاعب فنى بارع بالألفاظ تم فى هدوء وتلقائية وخفة يد.

بَيْدَ أنّ د. شعير يتصور أن القلم المسمارى هو قلم معدنى كان يحفر به الكاتبون فى الدولة السومرية بالعراق على الحجر، بينما حقيقة الأمر أن السومريين كانوا يستعملون قلما من القصب (أى البوص) له سن مدبب لا مفلطح مقطوط، وكانوا يكتبون به على ألواح طينية لينة ثم تجفف بعد ذلك وتصير صلبة فتحتفظ بما هو مكتوب عليها كما احتفظت جدران المعابد والمسلات الفرعونية بالكتابة المحفورة فيها. وبالمناسبة فكثير منا أيضا يظن أن الكتابة المسمارية قد سميت كذلك نظرا إلى أن أداة كتابتها هى المسمار، فى حين أن تلك التسمية ترجع إلى أن الأشكال التى يحفرها الكاتب العراقى القديم تشبه المسامير لا أنها كانت تُكْتَب بالمسمار. ومن ثم كان اسمها بالإنجليزية

"Cuneiform"،أى الشكل المسمارى. فالكتابة المسمارية سميت بهذا الاسم لشكلها المسمارى لا لأنها تحفر بالمسمار. كذلك يذكر د. شعير أن قلم الحبر اختراع فاطمى. وقد قرأت فعلا منذ وقت طويل أن الخليفة المعز لدين الله الفاطمى أبدى تشوقه إلى صنع قلم حبر يوضع فى الجيب أو فى الكم أو يمسك باليد فلا تتسرب منه قطرة تلوث الملابس والأيدى والمكاتب، فصنعه له أحد الحرفيين وجاء على أحسن ما يرام. لكنى الليلة عدت للبحث فى ذلك الموضوع فقرأت فى عدة مواقع مشباكية (إنترنتية) أن أول من صنع قلم الحبر عباس بن فرناس، وهو عالم ومخترع أندلسى من أهل القرن التاسع الميلادى، وكان القلم الذي صنعه يتكون من أسطوانة متصلة بحاوية صغيرة يتدفق منها الحبر خلال هذه الأسطوانة إلى سنها الجاهز للكتابة.

ومما لا ينبغى إهماله فى هذا المدخل قول القلم المسمارى للقلم الذكى إن كل الأقلام فى المكتبة التى كانا يتحدثان فيها ترحب بأى قلم قادم عليها مهما كان شأنه أو المادة المصنوع منها، ولا توجد بينها أفكار طبقية. وأهمية هذه العبارة الأخيرة أنها إرهاص بما يريد المؤلف من روايته التى من الواضح أنه كتبها دفاعًا عن الغجر فى كل أنحاء العالم ودعوةً إلى عدم النظر إليهم بعين الاحتقار، فهم بشر كأى بشر متى أتيحت لأى منهم الفرصة نجح وتألق وبلغ مستوى عاليا من التحضر.

وهذا كلام رائع ويصدق على كل طائفة أو شعب أو جماعة من بنى الإنسان، فنحن البشر من صنع إله واحد، وقد زود هذا الإله الأجناس البشرية جميعا بنفس الخصائص والمزايا والمواهب، وكل ما هنالك أن الظروف

قد تكون مواتية لبعض الأقوام فتتفتح ملكاتها وتنطلق إلى الأمام وتسمو إلى الأعالى فى حين تقسو الظروف على بعض البشر فيتصور أصحاب الظروف المواتية أن هؤلاء المتخلفين هكذا كانوا منذ الأزل، وهكذا سيظلون إلى الأبد، ناسين أنهم هم أيضا كانوا حتى وقت ليس ببعيد متخلفين تحت تأثير الظروف المناوئة. والغربيون الآن ينظرون إلى المسلمين على أنهم متخلفون ولن يمكنهم الارتقاء أبدا متجاهلين أنهم هم أنفسهم كانوا قبل عدة قرون جهلاء فقراء قذرين متوحشين خانعين لملوكهم ورجال دينهم كأنهم آلهة، فى الوقت الذى كان المسلمون فيه متحضرين منعمين، ثم مرت مياه كثيرة فى النهر تغيرت معها أشياء كثيرة رفعت الوضيع وحطت من شأن الرفيع. وشىء آخر لا بد من ذكره هنا، ألا وهو أن الغربيين يعملون على جذب العقول الإسلامية وغيرها وإغرائهم بالبقاء معهم للانتفاع بتفوقهم رغم أن أصحاب تلك العقول هم من القوم الذين يتهمهم الغربيون بأبشع النعوت.

ولكى نعرف كيف تسرد الأقلام وقائع الرواية وكيف تتعاون فى ذلك بسؤال كل منهم صاحبه المنتمى إلى عصر ما عما لا يعرف من جوانب الرواية التى تتصل بعصر ذلك الصاحب، وذلك جريا على ما اتفقت الأقلام عليه من العمل معا بروح الفريق الواحد، لكى نعرف ذلك أشير إلى ما قصه علينا القلم الذكى ابن عصرنا الذى كان يقرأ حكاية زهرة وجابر محارب وإعجابه بها فور مشاهدته لها مصادفة فى ندوة علمية حضرها من باب الوجاهة الاجتماعية ودرءا للملل على ما سيأتى حالا، إذ قال القلم الذكى: " عند هذا الحد توقفتُ

عن القراءة للبحث عن بعض المعلومات التي سوف تساعدني على معرفة جذور هذا الرجل الخائن.

قررتُ استعمال قدرتي كـ "قلم ذكي"، أنا أستطيع الدخول على شبكة الإنترنت لمعرفة ما أريده، خرجت من الرواية أتصفح بذاكرتي الاصطناعية الملفات المحمَّلة على المواقع المتخصصة، عرفت أن "جابر" هو حفيد محارب الكبير، الذي عاش مع الرعاة في الصحراء الشرقية بالقرب من وادي "حماطة" بجوار قبيلة "العبابدة" بالقرب من "مرسى علم" جنوب محافظة البحر الأحمر حاليا.

لم أجد فوق الشبكة العنكبوتية إلا ذلك، دفعني الفضول إلى البحث لمعرفة المزيد، توجهت إلى القلم العربي المصنوع من الجريد لعلي أجد لديه بعض المعلومات لأنه قد عاصر هذه الحِقبة الزمنية. استقبلني بكل ترحاب، عندما سألته عن "محارب الكبير" صمت يفكر لبرهة، ثم نظر نحوي وقال بثقة:

- أذكر هذا الرجل جيدًا، أنا أكرهه بشدة.

قلت له:

- لماذا تكرهه؟

- لأنه اللص, دونت حكايته على ورقة كبيرة قرب نهاية حكم السلطان قنصوه الغوري لمصر.

نظرتُ إليه بشغف لأعرف القصة، أخبرني بأن قصة محارب الكبير من القصص النادرة، فمن المعروف أن الغجر مولعين بالخيل إلى حد التقديس، لا يتورعون عن الاستيلاء على أي حصان يعجبهم وسرقته والفرار به.

بّيد أن شيخ الغجر في هذا المكان خرج على أعرافهم، اختص نفسه ببغلة كبيرة يركبها في مواكب السير، أو يؤجرها في بعض الأحايين رغم ثرائه الفاحش. هذا يثير سخرية قبيلته التي تقطن وادي "حماطة"، فهم لا يرضون لكبيرهم أن يركب بغله جاءت إلى الحياة عندما لقح حصان قبيلة العبابدة حمارة الغجر السوداء خلف الجبل الصخري. كانوا يتمنون موتها أو قتلها، فقد كانت هذه البغلة في رأيهم تنتقص من هيبة كبيرهم، الذي استبدل الذي هو أدني بالذي هو خير.

في يوم من الأيام دارت مشاجرة بين محارب الكبير وبين جواد ابن عمه الثري بسبب رغبة كليهما في الزواج من ميسون ضاربة الودع.

قبل أن يقتل أحدهما الآخر بسيفه تجّمع الناس، تمَّ فض المشاجرة، حضر شيخ الغجر فوق بغلته على الفور، للبت في الأمر. بعد أن سمع الحكاية أمر بانعقاد "مجلس المغارم" على أن تتم المبارزة بين الطرفين بالمال على شاطئ البحر الأحمر، على أن تُزف العروس إلى الفائز". فانظر كيف تتعاون الأقلام فى نسج خيوط الرواية بحيث يضيف كل منها ما يعرفه عن عصره من حوادثها وشخوصها. وهذا، بطبيعة الحال، من عمل خيال المؤلف، إذ لا يوجد فى الواقع جابر محارب ولا جده اللص ولا ميسون الغجرية الذين لا أظن أن أحدا منهم قد ورد اسمه فى أى كتاب حتى ولا كتاب "القراءة الرشيدة"، ولا كانت لهم صلة بعصر قنصوه الغورى حتى إنه لو بعث بيننا الآن وواجهناه بالدكتور صلاح شعير وما قاله عن عصره وأنه كان بين رعاياه غجر لغضب غضبا شديدا وحاول تجريد سيفه على صاحبنا الذى نفتديه بأعمارنا جميعا نحن أعضاء منتدى

"أقلام ثقافية" فنحجز بين الاثنين ونهدئ ثورة الغورى وكوب من عصير الليمون، ونروّق مزاج مؤلفنا الهمام بواحد قهوة مظبوط، ونصلح بينه وبين السلطان ونعرّف الأخير أن الأمر كله خيال فى خيال، ولا داعى لكل هذه الحمقة، والصلح خير كما تقول نادية مصطفى. واستهدِ بالله يا عم غورى. هذا فنان أديب، ومثله لا يؤخذ كلامه على محمل الجد، وإلا لألغينا بند القصص من دنيا الأدب، والناس هذه الأيام لا تقرأ، إذا قرأت، وهى لا تقرأ، سوى الأقاصيص والروايات.

وبالمناسبة لا يقصد الكاتب بقوله: "قبل أن يقتل أحدهما الآخر تجمع الناس. تم فض المشاجرة" أن المتشاجرَيْن قد قتل كلاهما الآخر بعدما انفضت المشاجرة على ما يمكن أن توحى عبارة المؤلف التى جرى فيها على الأسلوب العامى فى الكلام كقولنا مثلا: "لحقوهم قبل ما يقتلوا بعض"، بل المقصود أن الناس خشية أن يقتل كلاهما الآخر تدخلوا وفضوا المشاجرة، ولم يقتل كلاهما ولا أي منهما غريمه.

وكل الحكايات فى الرواية هى فى الواقع، مهما بدأت بغير ذلك، قصص حب وجنس. ويتناول المؤلف الجنس فيها باهتمام وتركيز شديد، وإن كنت لا أرى أن هذا التناول يثيرة الشهوات، أو هكذا أحس رغم حساسيتى عادة أمام هذا الموضوع. ومثالا على ما أقول أورد هذا النص الصغير، وهو من صفحات الرواية الأولى: "هذه المرأة الفاتنة ربما تهز قناعاته، وربما تجعله يتنازل من أجلها، ربما يستسلم ولو مؤقتاً من أجل الفوز بها. عرفها للمرة الأولى، عندما ذهب من باب التجمل الاجتماعي، لحضور أمسية علمية عقدتها اللجنة

الثقافية بنادي " الماسة الزرقاء" لشرح التطور في جراحة العيون. جلس بالمقعد الأمامي، شاهد عبق الأنوثة الطاغية يفوح منها، ملكت تفكيره من أول وهلة. سحرها يخطف القلوب، فوق وجهها الملائكي المستدير جاذبية تداعب الخيال، نظر نحوها بشغف دون أن تراه، شفتاها الحمراوان تنفرجان عن ابتسامة رقيقة لكل الحضور.

يا لها من امرأة كاملة النضج، من ينجو من عينيها السوداوين يتلقفه نداء صدرها النافر. استدارتْ بجسدها الممشوق لتصعد فوق المنصة، فإذا بها من الخلف أشد فتكًا من الأمام، تلاشت قدرته على المقاومة. لن يرتوي إلا إذا شرب من مائها الذي يُبْرِئ الأسقام، شعر بأنه لو عاش طوال عمره مغمض العينين صورتها لن تُمْحَى من الذاكرة. قبل أن تجلس فوق مقعدها الأوسط غرست في قلبه شعاعًا من نور، نكَّس رأسه هربًا لعل غض النظر يكبح الأشواق التي انفجرت ملتهبة بداخله". فها أنت ترى أن وصف تلك المرأة الفاتنة لم يستعمل أى لفظة مباشرة أو تخدش الحياء، ولا أدرى من أين تأتَّى له ذلك. ما علينا!

إلا أن السطور الجنسية التالية مزعجة جدا لا فى أنها تثير الشهوة بل تصادم الذوق ولا تناسب على أى نحو من الأنحاء عمر البنت الصغيرة التى افترسها بسيونى المجرم المنحط: "مرَّ عام وبسيوني مُحاصَر في سجن الرغبة، أصبح يرى في "زهرة" (البنت الصغيرة) صورة الأم (أمها). فمنذ أن اقتربت الطفلة من السنة السادسة بدأت ملامح الأنوثة تفور في جسدها بسرعة، تكورت الإليتين (الإليتان) قليلًا، الشفاه الحمراء مكتنزة، الوجه المستدير يشع بالضياء. راح

الذئب يتودد إليها برفق، يحضر لها كل يوم كوز العسل أو الحلوى المصنوعة من أحد مشتقات العسل الأسود والمنتشرة بجنوب الصعيد.

يلاعبها برقة الثعلب الماكر. عندما شعرت الطفلة بالأمان الزائف اقتربت منه، بدأ يمرر أنامله فوق جسدها برفق، أفهمها أن ما يفعله هو لعبة سرية، وعليها ألا تخبر أحدًا بها. كلما زاد الصمت والاستجابة منحها مزيدًا من الحلوى. في ذات صباح بعد أن تأكد من خروج الأبوين من المنزل دعاها للعب معه في منزله، دخلت معه، جلست بجواره، أعطاها قطعة من الحلوى، دعاها إلى لعبة جديدة لا تتم إلا بخلع الملابس، نزع ملابس الطفلة، خلع سرواله أمامها، نظرت إلى جسده العاري، وقالت وهي تضحك متعجبة:

- ما هذا يا عم بسيوني؟ ألك أصبع كبير بأسفل البطن؟

ردَّ بدهاء وقال:

- هذا أصبع سري سوف نلعب به بدلًا من أصبع يدي.

طرحها على وجهها فوق الفراش وهي تضحك بالحلوى في فمها، تحول الضحك إلى صراخ وعويل، صفعها وكتم فمها بيدها، كان يتلذذ بالدم الذي يدفق منها، اللون الأحمر يثيره بشدة، لم يتوقف الحيوان إلا بعد انتهاء مهمته، خرجت الطلفة زهرة عارية تصرخ في الشارع، كان الدم يسيل فوق فخذيها، تجمَّع أهل الحي لنجدتها، لقد فهموا ما حدث. هذا الحادث يتكرر في الحي كل فترة، عادة ما يكون الضحايا من الأطفال أو بسماع صراخ امرأة ناضجة من اللاوتي (اللواتى) يجلبهن الفاجر إلى منزله بالليل.

عادت نوارة تلطم خديها، أمسكت ابنتها تتفحصها، ذهبت على الفور إلى الطبيب في جرجا في عيادته الخاصة، قام بخياطة الجرح بعدة غرز، ومنحها علاجًا مؤقتًا، وطلب منها أن تعود إليه باليوم التالي بالمستشفى الحكومي لحجزها واستكمال العلاج.

عاد الأب من عمله يسحب القرد، الذي يطوف به القرى مقابل الحصول على القروش القليلة من أهالي الأطفال الذين يفرحون بمشاهدة القرد وهو يرقص، علم بما حدث لابنته، حمل عصا غليظة ودخل على الذئب في داره، ظل يضربه حتى تكسرت عظامه، وشُجَّت رأسه، ولولا تدخل الجيران لقتله.

انعقد مجلس المغارم للبت في القضية في ذات اليوم بعيدًا عن مؤسسات الحكومة كعادة هؤلاء البشر. في هذه المرة لم تعقد المنازلة بالمال، فقد حكموا على بشندي الحل (والد زهرة) بمغادرة القرية، بينما نقلوا بسيوني إلى المستشفى للعلاج. لقد أخبرهم الطبيب أنه يعاني من كسور في الحوض والذراع واليد اليسرى، وسوف يظل عدة أشهر في الجبس طريح الفراش.

على الفور اشترى قاضي الغجر العرفي المنزل والقرد والأثاث بمبلغ زهيد. ليس للضعفاء موطئ قدم في هذا الحي. خرجت الأسرة تنفيذًا للحكم الظالم.

فراق الوطن لحظات مؤلمة، اختلطت سخونة الدموع بمرارة العجز، الفرار يشبه طعم الاحتضار رغم أن هذا المنزل مُشيَّد بالطوب اللبِن، ولكن الخروج منه كخروج الروح من الجسد، انتزاع الإنسان من جذوره يشبه الموت. هذه الأطلال الفقيرة أغلى ما في ذكريات الطفولة.

لقد طبعت المواقف المؤلمة على قلب زهرة الكثير، وترسَّخ في ذهنها منذ الصغر الحذر من الرجال الأوغاد. أدركت، وهي تبكي فوق كتف أمها، أن القبور أسفل الأرض أرحب من العيش فوقها بالقهر. الاعتداء على طفلة في الصغر ألم لا يُحتمل".

نعم نحن نعلم أن فى الحياة ما هو أشنع وأبشع من هذا، وأن فى المجتمعات الإنسانية مجرمين أشد انحطاطا وشيطانية وجلافة وعتواًّ من بسيونى، لكن كان ينبغى للمؤلف أن يَعْبُر هذا المشهد بأسرع ما يمكن وأن يكتفى بالإشارة إلى أن بسيونى ضحك على البنت المسكينة وأعطاها بعض الحلوى واختلى بها وأوهمها أنه سيلعب معها ثم اعتدى عليها وافترس براءتها وهى تبكى من الألم ومن غرابة هذا النوع من اللعب... إلخ. إنى أشعر وأنا أقرأ تلك السطور أننى أشاهد الأمر على الطبيعة. وهذه أول مرة أجدا قصاصا يضع طفلة بنت ست سنوات فى مثل هذا المشهد ويجرى مثل هذا الحوار بينها وبين مفترسها. والواقعية لا تسوّغ وضع بنت صغيرة فى هذه السن فى موقف كهذا. إن الصدمة هنا مضاعفة حتى لو كنا لا نهتم باستنكار المشاهد الجنسية عن مبدإ، فكون الطرف الأنثوى فى هذا المشهد بنتا لا تفهم شيئا البتة فى هذا الموضوع، ومع وحش بشرى كبسيونى الفظ الغليظ العقل والقلب والضمير والذوق، يجعل المشهد أكثر إيلاما وإثارة للاشمئزاز. والعجيب أن البنت المعتدى عليها ليست أحدا آخر غير زهرة بطلة الرواية وصاحبة الصورة الجميلة على الغلاف والمرأة التى وقع فى غرامها كل من رآها... وكله كوم، وتسمية العضو الذكورى إصبعا،

وعلى لسان المسكينة، وموافقة الجلف بسيونى على أنها إصبع سوف يلعبان به لعبة جديدة كوم آخر وكارثة فى حد ذاتها.

ومرة أخرى نجد فى هذا النص عبارة "مجلس المغارم" ونرى كيف يسوون مشاكلهم فيما بينهم وكيف أن الظلم الواقع عليهم كطائفة لم يمنع الأقوياء فيهم أن يظلموا ضعفاءهم دون خلجة من ضمير. وهو ما يرينا أن العدل فى الدنيا مطلب عظيم، بيد أنه فى ذات الوقت مطلب مستحيل أو شبه مستحيل. أقول هذا تعقيبا على قول المؤلف فى كلمة "الإهداء" فى أول الرواية: "إلى العدل في القلوب الخضراء لعلَّ النور يُشرق بالخير والحق والجمال"، وأتساءل: أين يا ترى القلوب الخضراء فى الرواية؟ إنها، إن وجدت، فمنزوية ولا يكاد يسمع لها صوت. كما أنها مجردة من القوة.

والرواية، كما قلت، تدور حول الغجر، وكلما ظهر على مسرح أحداثها شخص تبين لنا فى النهاية أن أصله غجرى حتى لقد شككت فى نفسى من كثرة ما تكرر ذلك وفكرت فى قطع القراءة والتطويح بالرواية بعيدا خشية أن يباغتنى المؤلف فى أثنائها بأنه قد اتضح لديه أننى أنا أيضا غجرى الأصل. بيد أنى قلت لنفسى أهدّئها: لا أظن د. شعير يفعل هذا، فبينى وبينه لا عيش وملح فقط بل شاى وقهوة، وبوفيه نقابة الصحفيين بالدور الرابع يشهد على ذلك، ولا أظنه، وهو الصعيدى الأصيل المجْدَع، يمكن أن يفعل شيئا من هذا ضدى، وبخاصة أن جذورى من ناحية جدى الأبوىّ صعيدية أيضا مثله، والصعايدة كما هو معروف يتعصب بعضهم لبعض تعصبا لا رحمة فيه ولا تهاون ولا هوادة ولا يعرف "يا أماه ارحمينى"، فهم من هذه الجهة أجدع ناس.

والملاحظ أن المؤلف يتتبع كل شخصية تقريبا فى الرواية قرونا إلى الوراء للوصول إلى أصلها الذى نبتت منه، وهو دائما أصل غجرى. ومنهجه هو الحديث عن هذا الأصل البعيد قليلا ثم الإشارة إلى مرور الزمن الفاصل بين ذلك الأصل البعيد والوقت الحالى. وقد يكون الأصل عربيا، وقد يكون أجنبيا. وطريقته فى السرد ورسم الشخصيات وإدارة الحوار تجعلك تظن أن ما تقرؤه صحيح تاريخيا. وطبعا هذا لا يمكن أن يكون، إذ ليس عند المؤلف ولا عند أى إنسان خريطة تاريخية وجغرافية مفصلة بما وقع يعتمد عليها فى ذلك. بيد أن براعته فى القص هى التى تعطينا هذا الإيحاء. وأنا نفسى كنت أقرأ ما يقوله فى هذا الصدد عن كل شخصية وأنا منوَّم أتخيل ما أقرؤه حقيقة واقعة، إلى أن أنتهى من الرواية (أو فلنقل: إلى أن أصحو من النوم وأفيق من الأحلام وأرتد إلى أرض الواقع)، وأنسى أننى قارئ وأتذكر أننى ناقد، أو هكذا يقال،فأتساءل: كيف استطاع المؤلف أن يعمل عملته الظريفة تلك؟ ومع هذا فإن عمله فى روايتنا هذه أقوى مما عمله فى "توتة محبوبة"، إذ جعل بطلة تلك الرواية تحكى لنا فترة تاريخية طويلة من تاريخ أهلها بوقائعها وأماكنها وأوصافها وشخصياتها وعلاقاتها وحواراتها... إلخ، وكأنها كانت معاصرة لهذا كله وعاشت فى تلك الأماكن المتباعدة وسمعت كل شىء حتى لقد وصفت لنا وصف المشاهد الملتقط لكل حركة وكل لفظة وكل إحساس واقعة جماع رجل لامرأة فى مياه قناة السويس عقب أو أثناء حفرها بكل ما جاش فى أعماقهما واختلج من جسديهما... وقد ثار السؤال آنذاك عندى: كيف عاشت تلك البنت جميع تلك الأحداث ورأت كل أولئك الأشخاص على مدى أكثر من قرن، أى

لعدة أجيال؟ أما فى روايتنا الحالية فالرواة هم الأقلام: كل قلم يروى ما وقع فى العصر الذى صُنِع فيه ذلك القلم. والأقلام تمثل معا التاريخ نفسه أو فلنقل: تمثل الراوى الشامل العلم الذى لا تفوته شاردة ولا واردة مما يقع فى الحياة.

وهذا مثال آخرعلى ذلك. فقد أراد القلم الذكى أن يعرف سلسال زهرة، فلجأ إلى قلم الحبر طلبا للمساعدة. يقول القلم الذكى: "تمنيت "كقلم ذكي" أن أشعر بمثل هذه المشاعر الدافئة، ما أجمل حالات الحب التي يعشها البشر، ولكن السؤال الحائر الآن: ما هي حكاية الغجر "الحلب" بمصر الذي تنتمي إليهم "زهرة"؟ ...

بالبحث على الشبكة العنكبوتية، عرفت أنهم فئة مختلفة من الشعب الغجري، قَدِموا من مدينة حلب الشامية سكنوا صعيد مصر، لكن هذه المعلومات غير كافية، التفتُّ نحو القلم الحبر، الذي ظهر في العصر الفاطمي لعلي أجد لديه ما يفيد، تجاوب بترحاب شديد وقال:

- سَجّلتُ أحدَ (الصواب "إحدى") القصص بمدينة حلب في عهد نور الدين محمود.

- بأي عام حدثت هذه القصة؟

- بعام ١١٧١ ميلاديًّا. هذه القصة الفريدة جعلتني أشعر بالألم.

- لماذا؟

ردَّ القلم الحبر حزينًا:

- أذهلني ما شاهدته من قتل ونهب.

أخبرني القلم الحبر أن عدم الاستقرار بالشام بسبب الحرب الدائرة، دفع طاهر الحلبي الجد البعيد لـ زهرة إلى مغادرة مدينة حلب نحو مصر عندما كان في الثانية والأربعين من عمره، اصطحب زوجاته الأربع وأولاده العشرين. كانوا تسع بنات، وأحد عشر رجلًا أصغرهم في العاشرة من عمره.

لم يكن معهم سوى جملين وحمار. عندما ضربهم الجوع في الطرق ذبحوا الجمل الأول ليقتاتوا به، بالقرب من مدينة "غزة" ذبحوا الثاني، بعد سبعة أيام نَفَدَ ما بحوزتهم من طعام، فقرروا السطو على إحدى المزارع قرب مدينة العريش المصرية. كانوا بمثابة فصيلة عسكرية: النساء مدربات على الرمي بالسهام، والرجال تجيد الضرب بالسيف، دخلوا إلى المزرعة، قتلوا ثلاثة من الحراس وقيدوا الآخرين، أخذوا ما بها من أغنام وخيول، فروا بسرعة البرق، اختفوا في صحراء سيناء، ظلوا هكذا كلما وجدوا راعيًا بالطريق قتلوه وسرقوا أغنامه حتى وصلوا إلى صعيد مصر بقطيع كبير من الأغنام والخيل، استقروا على أطراف مدينة جرجا الحالية حيث استمر الجد الكبير في ممارسة السطو على مزارع الخيل وبيعها في الأسواق.

تمرَّس طاهر الحلبي على عبور دروب الصحراء القاحلة بجانب الطرق الزراعية، وثق علاقته مع القبائل الغجرية والعربية التي على طول الطريق، أصبح بعد عدّة سنوات خبيرًا في التنقل من مكان لآخر.

عندما ذهب إلى القاهرة بصحبة ولديه الظافر والبتّار باع عشرة خيول في سوق الخيل بميدان الرميلة، بعدها رحل ولديه إلى مضاربهم بالقرب من جرجا، وبقي عدة أيام في خيمة نصبها بالقرب من نهر النيل بجوار شجرة عتيقة.

أبقى معه فرسين: أحدهما لوضع المتاع فوق ظهره، والآخر لركوبه حتى ينتهي من شراء بعض الأقمشة لأولاده ونسائه.

قبل الغروب خلع ملابسه، هبط إلى النهر ليستحم، تصادف نزوله بالماء مع موعد خروج وَجْد جارية الخليفة العاضد لدين الله الفاطمي للتريض، التي تعودت الخروج في هذا التوقيت كل يوم للاستمتاع بالطبيعة. تبدو الفتاة الساحرة في عقدها الثالث، جُلِبَتْ من بلاد الصرب بوسط أوروبا منذ عامين، لم يدخل بها الخليفة إلا مرة واحدة في هذه المدة رغم أنوثتها الطاغية. عاشت بالقصر كالمعلّقة محرومة من الرجال. لم يجرُؤ أحد على الاقتراب منها خوفًا من بطش الخليفة.

عندما لمحت الجارية طاهر الحلبي يعوم بخفة في الماء دفعها الفضول إلى مشاهدة رشاقة هذا السّباح الماهر، الذي يتحرك بخفة رغم أنه بالعقد الخامس من العمر. ظلت تراقبه خلسة من خلف الشجرة، أعجبها الجسد المتناسق والعضلات المفتولة، خرج من الماء عاريًا، شاهدها تحملق إليه باشتهاء.

عندما وقعت عيناها في عينيه، أدارت وجهها خجلًا، هرول يرتدي ملابسه بسرعة، تقدّم نحوها مبهورًا بالجمال النادر، الجاذبية تكمن في عيونها الزرقاء الواسعة، نظراتها تفتت قدرة الرجال على المقاومة، تراجعت ببطء مترددة في الانصراف، تخاف الاقتراب حتى لا يراها أحد، لا تريد المغادرة تعلّقًا بفحولته. قالت بصوت خافت يغلفه الرجاء:

- أنا من جواري الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله.

تقدَّم بالشوق الجارف حتى أصبح على بعد خطوة منها:

- لن أتركك مهما حدث.

اجتاز الخطوة الفاصلة بشجاعة، ضمها بين ذراعيه، فقدت السيطرة على نفسها، ألجمتها الرغبة عن تدبر العاقبة، ألقى بها الصعلوك فوق الأرض، غاصت في بحار العشق الممنوع.

لم يمهلها القدر فرصة لاختلاس هذه المتعة، كبيرة الجواري على بعد خطوات تراقب ما يحدث. بعد انتهاء الجولة الملتهبة تقدَّمت نحوهما بذهول:

- جارية الخليفة في حضن هذا الصعلوك؟

همست وجْد تستعطفها بانكسار:

- أرجوكِ. لا تخبري أحدًا بما رأيتِ، رقبتي سوف تطير.

- وسوف تطير رقبة هذا الصعلوك أيضًا.

هرولت كبيرة الجواري لتُبْلِـغ رئيس الحراس، بينما طاهر الحلبي نهض بسرعة، وضع متاعه فوق الحصان الأبيض، ثم جذب وَجْد من يدها بقوة، أردفها فوق الحصان الأسود، انطلق بها نحو الجنوب.

غادرا حدود بداية الجيزة قرب منتصف الليل، شعرا بالإعياء والجوع، أبطأ طاهر الحلبي السير بالقرب من الحظيرة التي تقع على مشارف الطريق، خطف عنزة بخفة اللص المحترف، وضعها فوق الحصان، اتجه نحو بئر ماء في عمق الصحراء، نزلت وَجْد ترتعد بجواره، تخشى من ملاحقة الجنود، لم تهدأ إلا بعد أن أخبرها بأنها بعيدة عن الخليفة وعساكره. اطمأنت، قامت تساعده في نصب الخيمة، بعدها ذبح العنزة، بعد الانتهاء من الشواء قالت وهي تقضم اللحم من شدة الجوع:

- أخشى أن يدلّهم تجار الخيل على مكانك، ويأتي الجند خلفنا.

ضحك بسخرية:

- لقد تعاملتُ مع تجار الخيل باسم مستعار، هم الآن يبحثون عن شخص مجهول اسمه صفوان من محافظة الشرقية، ولن يجدوه أبدًا.

نظرت إليه وجْد بدهشة وإعجاب:

- يا لك من مخل ماكر!

نزع قطعة لحم كبيرة، مد يده نحوها، أخذتها مبتسمة، بعد الانتهاء من الطعام، جذبها إلى صدره ظلا يتبادلان الحب حتى الشروق، مكث معها أسبوعًا في ذاك المكان حتى ارتوت بعد حرمان، عاد إلى "جرجا" بامرأة بيضاء ناعمة، جسدها ممشوق، تزوجها بعد أن طلّق إحدى زوجاته الأربعة، ثم هجر الباقيات ليتفرغ للحسناء الفاتنة.

حملت وجْد منذ أن وطأها فوق ضفة النهر، ظلت تنجب كل عام طفلًا حتى تركت بعد وفاتها سبعة ذكور وثماني إناث جميعهم ورثوا عن أمهم نعمة الجمال، فأطلق الغجر على أولادها سلسال السنيورة.

تبدو هذه التفاصيل الجديدة مدهشة. لذا رفعتُها على موقع "حكايات الشعوب" في تمام الساعة الحادية عشر مساءً من نفس الليلة. سوف أعود للرواية لأستكمل القراءة حتى أعرف ماذا فعل جميل أبو الذهب مع الحسناء الفاتنة زهرة".

وهكذا يرى القارئ كيف تتبعت الرواية أصل زهرة على مدى عدة قرون حتى وصلت إلى عصرنا هذا، وهو ما شرحته قبلا فى هذه الدراسة. ونفس

الشيء سوف يفعله القلم الذكى مع جميل أبو الذهب، الذى كان مهووسا بزهرة ويعمل على نيلها بكل وسيلة ولو بالزواج والمهر الشاهق، لكنا كانت تتأبى عليه رغم كل ما أغدقه عليها من أموال وهدايا باهظة الثمن وخدمات عظيمة لا تقدر بفلوس.

ونعود للرواية وما ترصده من عادات الغجر وتقاليدهم ومهنهم وطريقة عيشهم وأماكن سكناهم مما يتميزون به عمن حولهم، فنقول إن دراستها فرصة سانحة لتناولها فى ضوء ما يسمى بـ"النقد الثقافى"، وهو النقد الاجتماعى الذى يهتم برصد العادات والتقاليد والشعائر الدينية والمهن والأنظمة الاجتماعية وطقوسها كالزواج والطلاق والولادة والدفن والمناسبات الدينية والقومية وألوان الطعام والألعاب وما إلى ذلك مضافا إليه شوية "حبشتكات" لا معنى ولا أساس لها لزوم الإبهار، ومنها مصطلحات "النسق والسياق والمهمشون والمسكوت عنه..."، وهو كلام لا محصَّل من ورائه لأنه كلام لا وجود له إلا فى خيال بعض المتفيهقين الذين يختبئون خلف كل غريب آت من أوربا وأمريكا يغطون به سوآتهم الفكرية والذوقية. إنهم مثلا يصورون لنا الأديب وكأنه إنسان كاذب بوجهين ولونين، فهو يقول شيئا ويخفى فى نفسه شيئا بل أشياء أخرى. ووظيفة الناقد "الفحفرة" فى كلام الأديب حتى يصل إلى الحقائق المسكوت عنها، أى ما أخفاه وصرح بعكسه.

ونورد على ما نقول مثالا يتلخص فى أن أحد هؤلاء النقاد البكاشين وقف أمام مدح الجاحظ للعصا التى كان يمسكها الخطباء العرب قديما وسخر منها الشعوبيون، فهب الجاحظ يدافع بكل شراسة عن هذا التقليد الخطابى

الجميل، لكن صاحبنا البكاش لم يعجبه هذا الدفاع المشروع والمفهوم، وبخاصة أنه تقليد لا ضرر فيه ولا شيء يدعو للتهكم به أو الخجل منه، وأخذ على عاتقه (وكاهله وكتفه ورأسه وكل عضو فى جسده يمكن أن يشترك فى حمل الأثقال) أن يحقر من شأن العصا لكراهيته للعروبة والإسلام رغم إعلانه دوما أنه يؤمن بهما أشد الإيمان. فظل يتابع الجاحظ وهو يضرب الأمثال على أهمية العصا الكبيرة إلى أن وصل إلى قصة تحطم فيها العصا وتصير تفاريق صغيرة، ومع هذا يستمر الجاحظ فى الثناء على العصا ودورها ومنافعها فى الحياة حتى وهى مكسرة... لكن الناقد البكاش يقف فجأة لدن هذه القصة الأخيرة متخذا منها منصة للقفز إلى الهدف الذى وضعه نصب عينيه طوال الوقت بل دخل المناقشة وفى ذهنه ذلك الهدف مصمما أن يبلغه فى النهاية بعد كل ذلك اللف والدوران، فقال ما معناه أنه إذا كان الجاحظ قد أعلن على الدنيا جميعا مديحه للعصا فلا تصدقوه، فإنما هذا كلام يخفى تحته الرأى الحقيقى فى العصا، وهى أنها شيء مهين محتقر. أى أن ما قاله الشعوبيون فيها هو الكلام الحق، وأن ما دافع به الجاحظ عنها هو مجرد شقشقة لسان لا قيمة لها. وهذا هو النقد الثقافى عند ذلك البكاش وأمثاله.

ومن زاوية النقد الثقافى (أو إن شئت فقل: "النقد الاجتماعى" لكن من دون "الحَبَشْتَكَات" المُومَى إليها آنفا) نورد من الرواية التى فى أيدينا بعض النصوص التى تتعرض لحياة الغجر هنا وهناك فى بلاد الله الواسعة على سطح البسيطة. ولنأخذ مثلا النص التالى، والكلام فيه عن جابر محارب، وكان يشتغل فى مكتب صادق الجندى المحامى الشهير النبيل: "ذُلّ الحرمان الذي

تجرعه أقوى من فكرة الشعور بالذنب. رغم أن العمل الشريف لا يعيب صاحبه إلا أنه (الصواب "فإنه") لا يحب أن يتذكر مهنة أبيه البسيطة في صناعة المناخل من جلود الحمير، والتي لا تدر عائدًا يُذكر. لا يريد أن يتذكر أن أمه كانت تتسول من الفلاحين للحصول على بعض الحبوب خلال مواسم الحصاد.

رغم الثراء الذي يعيشه حاليا إلا أن (الصواب "فإنّ") مرارة الفقر مازالت عالقة في حلقه، منذ الطفولة المبكرة كان يتجول في قرية كفر الطبالين عاريًا مع الأطفال المعدمين. تسكن أسرته أسفل خيمة من "الخيش" الممزق تخترقها الأمطار في فصل الشتاء، يقضي الليل مع بني جنسه مغروسًا في الوحل بسبب ذوبان التراب في الماء، ملابسه البالية معجونة بالطين، تشرق الشمس عليه وهو يرتعد، يتسلل مبكرًا بين الرجال الذين يقاومون البرد بالنفخ في الكير لصهر الحديد لصناعة الفؤوس أو غيرها من مخرجات الحدادة التي يحتاج إليها الفلاحون.

تكتشف أمه بعد توقف المطر أن الدقيق قد أصابه العفن، إلا أنها تصنع منه الخبز لمقاومة الجوع الكافر، يفشل الملح في محو مرارة اللقيمات التي تفوح منها رائحة العطن.

بالصيف ينتشر أعمامه من الرجال لترقيص الأفاعي بالموالد والمناسبات بالقرى المجاورة، أما النساء فيتجولن لقراءة الكف أو الرقص في الأفراح وحفلات الأثرياء. الكل يعود في المساء بمبالغ زهيدة تكفي بالكاد لشراء الدقيق والسمن والشاي.

أدخلته أمَّه (الصواب "أُمُّه" بالرفع لأنها فاعل) المدرسة رغمًا عن أبيه على عكس عادات الغجر آنذاك. منذ الصف الأول الابتدائي تحاصره نظرات التعالي الاجتماعي من قِبَل التلاميذ. رغم تفوقه في تلقي العلوم إلا أن (الصواب "فإن") الأطفال ينفرون منه كأنه فأر أجرب. الكثير من الناس لا يثقون في الغجر، يتعاملون معهم على أنهم قطيع ضال. ميراث الأب الهزيل هو الافتخار بأنه حفيد سارق بغلة شيخ الغجر منذ عدَّة قرون. هل يوجد أبشع من الزهو باللصوصية في هذا العالم؟ هكذا نشأ في مجتمع متناقض.

هذا المجتمع الفقير المطحون منغلق على نفسه على أساس العِرْق، فلا يتزوجون إلا من بعضهم البعض. يعتقدون أنهم الأطهار فقط في هذا العالم. عندما يتحدثون أمام القرويين يتكلمون باللغة الغجرية الخاصة بهم حتى لا يفهمها أحد غيرهم".

ففى النص ذكر للمستوى المادى والاجتماعى الذى كان يعيش فيه جابر محارب. لقد كانت أسرته فقيرة لا تسكن منزلا بل خيمة مهترئة على أطراف القرية لا تقى أصحابها بردا ولا مطرا، وكان يخرج ويلعب مع لداته عاريا لا يجد حرجا لا هو ولا أسرته فى ذلك، ولم تكن لدى أسرته من الرفاهية ما يجعلها تتأبى على صنع الخبز من الدقيق العفن لأنهم لا يملكون سواه. وكانت أسرته تشتغل بسلخ جلود الحمير وصناعة الغرابيل منها ("الغرابيل" لا "المناخل" كما تقول الرواية، فالمناخل لا يمكن صناعتها من خيوط جلد الحمار الغليظة بل من السلك الرقيق) أو صناعة الفؤوس أو الاشتغال بأعمال الحواة وقراءة الكف ورقص النساء فى الأفراح وما إلى هذا. ونفهم من النص أن للغجر

لغتهم الخاصة، ولم يكونوا يحبون أن يرسلوا أولادهم إلى المدارس. ومع هذا كانوا يتصورون أنهم أفضل كثيرا ممن حولهم. لكن وضع جابر محارب كان استثنائيا، إذ رأت والدته أنه لا بد من ذهابه للمدرسة ليتعلم. وكان ذلك قبل ثورة يوليه المصرية، التى غيرت بعض أوضاع المجتمع مما هيأ السبيل أمام الغجر ليندمجوا فى المجتمع من حولهم ويتخلَّوْا عن عاداتهم وتقاليدهم شيئا فشيئا.

وفى هذا النص أيضا نطَّلع على أسلوب الغجر فى فض النزاع والخصومات بين أفراد جماعتهم. لقد شبت معركة فى وادى النطرون بين جده والد أمه وبين غجرى آخر قريب له من الأغنياء: "يتذكر أن أمه ابنة أحد أعيان الغجر، يلوم الماضي بكل عنف. لقد أفلس أبيها (الصواب "أبوها") بعد مشاجرة عنيفة مع ابن عمه الثري في البادية بسبب الخلاف على الرعي بقطعة أرض وفيرة الحشائش بالصحراء الغربية قُرْبَ وادي النطرون، شُجَّتْ رأس الجد بسبب ضربه بعصا غليظة، حضر شيخ الغجر على حصانه للفصل في النزاع كعادة القبيلة.

في مثل هذه الحالات يتم فض النزاعات من خلال المبارزة بالمال بين الطرفين، يستدعي مجلس المغارم كل طرف، وبحوزته ما يمتلك، نظرًا لأن الخصمين من الرُّعاة. تمت المبارزة بالأغنام، قام كل فرد بالوقوف أمام أغنامه، عندما يقوم أحدهما بذبح شاة من أغنامه يقوم الآخر بذبح شاة مثلها. استمر الحال على هذا النحو إلى أن فنيت ثروة جده أولًا، وهذا يعني هزيمته.

بعدها قام مجلس المغارم الأحمق بحصر رؤوس الأغنام المذبوحة من قِبَل الطرفين، أصبحت القيمة كلها دَيْنًا على الأقل مالًا، عجز المسكين عن سداد

دَيْنه، هرب بزوجته وبنتيه من المراعي إلى قرية كفر الطبالين، ثم مات وترك أسرته المعدمة تقاسي آلام الفقر".

وطبعا هذه ليست محاكمة بل تدميرا لمن كان من طرفى الخصومة أفقر من صاحبه. وواضح أَنْ ليس هاهنا عدل ولا حكمة ولا منطق ولا دين ولا إنسانية. غير أن هذا هو قانون الغجر. وبطبيعة الحال أنا لا أعرف عن أحوال الغجر شيئا بل أثق فى أن المؤلف لا يقول إلا ما يعرف، وهو قد أقرَّ بأنه رجع إلى بعض المؤلفات التى كتبت عن الغجر، وإن لم يورد منها سوى اسم كتاب واحد هو "البناء الاجتماعى والثقافى لمجتمع الغجر" لنبيل صبحى حنا. وفى هذه النقطة الخاصة بالمجتمعات الغجرية، فيما أرى، يتركز جزء هام من قيمة الرواية، التى ترينا كيف كانت تمضى حياة أولئك القوم. ويمكن فى هذا السياق الإشارة إلى تقليد عربى قديم فيه بعض الشبه البعيد بأسلوب فض النزاع عند الغجر، وهو المنافرة حيث يذهب المتنافسان على الشرف والرئاسة والصيت إلى كاهن يقفان أمامه ويتباهى كل منهما بكثرة عداد أفراد قبيلته وبما يحوزونه من مال وبأنسابهم وأسلافهم وأمجادهم وكرمهم وانتصاراتهم على أعدائهم.. إلخ فى كلام مسجوع عام تغشّيه المبالغات والإحساس المتفجر بالذات، وبعد أن يستمع الكاهن المنفِّر للطرفين يحكم لأحدهما بناء على ما افتخر به، إذ يراه لهذا السبب أو ذاك أفضل من افتخار خصمه،فيعود الفائز إلى دياره لا تسعه الفرحة وينتشر الخبر بين العرب. وليس هذا ميزانا عادلا ولا حكيما ولا إنسانيا. بل ليس للأمر كله أية قيمة من الأساس. وقد وقف فى وجهه الإسلام وحطّ من شأنه وحمل على المتنافرين حملة شعواء وبين أن

التنافس إنما يكون فى العمل الصالح وفى الإيمان الخالص ودون ضجيج أو رغبة فى اكتساب السمعة بين الناس لا التماس الأجر من الله. ولكن هكذا كانت تجرى الأمور بين العرب فى مثل تلك الظروف.

وهنا أحب أن أضغط على أن الغجر هم، كغيرهم من خلق الله، مملوؤون عيوبا، ويظلم بعضهم بعضا ويضيع حق الفقير والضعيف بينهم، ويمتهنون السرقة ويفتخرون بذلك، ويعيش كثير منهم على ممارسة الأعمال الحقيرة كترقيص القرود وضرب الودع وملاعبة الثعابين، فضلا عن قيام نسائهم بالرقص فى الأفراح ممن يطلق عليهن: "الغوازى"، وما أدراك ما الغوازى؟ وللمفارقة الطريفة بل العجيبة فهم، رغم ذلك كله، يرون أنهم أفضل ممن حولهم. كذلك لا ينبغى أبدا أن ننسى نفورهم من العلم والتعليم. صحيح أنهم يثيرون تعاطفنا لنظرة المجتمع المتعالية إليهم، لكنهم ليسوا ملائكة بأى حال وعلى أى معنى. كما أن الظلم من الناحية الأخرى واقع بغير الغجر من الغجر وليس مقصورا عليهم. ألا يسرقون مواشيهم؟ ألا يخطفون أولادهم؟ ومرة أخرى كلنا نرنو إلى تحقيق العدل فى مجتمعات البشر، لكن تحقيق العدل حسبما نرجوه ونتصور أنه يمكن أن يكون هو ضرب من ضروب المستحيل كما يعلمنا الواقع من حولنا والتاريخ الذى نقرؤه فى الكتب.

ومما تقدمه لنا روايتنا أيضا من معتقدات وتقاليد من حياة الغجر ما نقرؤه عما يلجأ إليه الناس من سحر لترقيق قلب المحبوبة أو المعشوقة وجلبها إلى حبيبها أو عاشقها بسلاسة تامة، إذ كان بسيونى (الحيوان الذى اغتصب زهرة بنت السنوات الست) يموت قبل ذلك شهوة فى أمّها نوارة لجمالها الشاهق التى

تعرضت بسببه لإغراءات كثيرة! لكنها تقاوم بقوة، وتأبى أن تسلِّم نفسها لأحد لأنها تحب زوجها حُبًا كبيرًا. لقد فضَّلته رغم فقره على كل أثرياء الغجر الذين تقدموا للزواج بها. وقد ظل بسيونى لفترة طويلة يدعوها إلى الفراش دون جدوى، وعندما فشل في هدفه لجأ إلى السحر، فأخبرته إحدى الساحرات بطريقةٍ لجلبها إليه مقابل أن يعطيها دجاجة وسبع بيضات يوميًّا حتى يتم إنجاز المهمة. وفي اليوم الأول خرجت الساحرة معه في الصباح الباكر، وقامت بالتقاط ورقة كبيرة من شجرة الجميز العتيقة التي تقع على حافة الجسر الكبير، ثم ذهبتْ به إلى مجرى النهر، وأمرته بكشف ساعده الأيمن وأخرجت إبرة مشبوكة بكم جلبابها ووخزته عدة مرات حتى تساقطت قطرات من الدماء فوق الورقة الخضراء، وطلبتْ منه أن يردد اسم معشوقته سبع مرات، فأخذ يهمس للورقة: نوارة، نوارة، نوارة... بينما تتمتم هى خلفه ببعض التعويذات، ثم أمرته أن يلقي بورقة الجميز الملطخة بالدماء في نهر النيل حتى يقوم الجن الموكَّل بقلوب النساء بغرس الحب والرغبة في قلب المرأة التي يشتهيها. وطفق يكرر هذا العمل سبعة أيام تباعا، ثم مكث أسبوعين في البيت يردد اسمها سبع مرات عند الشروق حتى يأتي السحر بمفعوله. ثم قرر بعد ذلك أن يختبر نتائج هذه الطقوس السحرية فانتظر ذات يوم حتى خرج الزوج من المنزل، فقفز من سطح منزله إلى سطح منزلها المجاور، وهبط متسللاً فوق السلم الطيني إلى أن وصل إلى "القاعة" حيث وجدها نائمة على مرتبة بالية من القطن فوق المصطبة الطينية، ووجهها إلى الحائط، فبدأ يداعبها برفق، وظنّت هى فى البداية أنه زوجها، لكن سرعان ما تنبهت إلى أنه رجل غريب، وأصابتها الصدمة

عندما رأت بسيونى وقاومته، وفشل هو في السيطرة عليها أو كتم صراخها المستغيث، وهرب الخبيث أبو ذيل نجس قبل أن يتجمَّع الناس. فهذا اعتقادهم فى السحر، وهذه نتائجه التى لا يخر منها الماء. ها ها ها. وبالمناسبة فالاعتقاد فى السحر على هذا النحو لا يزال منتشرا على نحو رهيب بين الناس فى الريف والطبقات الشعبية فى المدن. وكلنا نسمع إعلانات التلفاز عن الشيخ والشيخة المغربيين النصابين اللذين يتحدث الإعلان عينى عينك عن قدرتهما على جلب الحبيب النافر إلى صدر حبيبته المتيمة. ولله فى خلقه المغفلين شؤون، وكما يقال فالهبل فنون، وأى فنون!

وهناك البشعة، وهى طريقة من الطرق الخرافية المتوحشة التى يظن البله ويزعم الشياطين أنها وسيلة ناجعة لا تخيب أبدا فى تحديد المخطئ من المتخاصمين المتنازعين أمام القاضى العرفى. لقد ذهبت نوارة تشتكي هذا الوغد إلى عمدة الغجر، فاجتمع مجلس المغارم للبت في الشكوى. بدا من طريقته في التداول أنه متواطئ، فقد طلب من الضحية ضرورة إحضار شاهد على الواقعة لأنه بدون الدليل لا يمكن الحكم لها، فصرخت المسكينة:وهل يغتصب الرجل المرأة أمام الناس؟ وهنا نرى القاضي العرفي العاجز جنسيا يتظاهر بالتعاطف مع نوارة فيقترح على مجلس المغارم ضرورة استخدام "البَشْعَة" للكشف عن الحقيقة نظرا لصعوبة الحصول على شاهد في مثل هذه الأمور. و"البَشْعة"، حسبما يعرفها العوام، عبارة عن قطعة حديدية مسطّحة ككف اليد توضع على النار حتى تلتهب وتحمر، فيرفعها شخص يدعى: المُبشع، ثم يطلب من المتهم أن يضع لسانه فوق الكف الملتهب، فإذا كان بريئًا فلن يصيبه مكروه، أما إذا

كان مجرمًا فإن لسانه سوف يحترق. لكن بسيونى المجرم احتال مع عمدة الغجر وأبطل الاحتكام إلى طقس البشعة. وهكذا يرى القارئ كيف تمضى الحياة بالناس فى عالم الغجر.

ولعل الشخصية المحورية فى الرواية هى شخصية "زهرة"، وأصلها غجرى بطبيعة الحال، وهى البنت الصغيرة التى اغتصبها الحيوان الوحشى بسيونى، وعمرها ست سنوات، ثم اضطرت أسرتها بعد سلسلة من الأحداث إلى مغادرة القرية والفرار إلى القاهرة حيث اشتغل الأب فى نهاية المطاف بعد عناء شديد بوابا لدارة رجل طيب صاحب شركة استثمارية كبيرة يدعى: صادق الجندى أصله البعيد غجرى أيضا لكنه صار خلقا آخر لا يمت إلى الغجر بصلة، وإن كانت أقلام الكاتب الذين يأتونه بالتائهة قد نبشوا ماضى الرجل فعرفنا أنه غجرى الأصل رغم حاضره الطيب النبيل، فكان يعطف على أسرة البواب ويكرمهم، وانعقدت صداقة بين ابنته الصغيرة سحر وبين زهرة، التى كانت تقطن مع أسرتها شقة صغيرة من غرفتين فوق سطح الدارة، وانتهى بها المطاف إلى أن تدخل المدرسة مع سحر التى كانت تحبها ولا تريد مفارقتها، فتكفل الأب بمصاريف تعليم زهرة حتى صارت طبيبة، وكان أبوها قد مات، وتزوج صاحب الشركة أمها فى السر لجمالها وشخصيتها الفاتنة بدلا من الوقوع فى الحرام. كما وقع ابنه طارق من جهته فى غرام زهرة لكنها لم تسلم نفسها له بل تخلصت من حضنه وقبلاته حين فاجأها فى شقتهم فوق السطح وهى بملابس النوم. ثم سافر هو وأخته للخارج لاستكمال دراساتهما العليا بينما بقيت زهرة

بجانب أمها فى مصر، وكان كل من الشاب والفتاة يتشوق شوقا جارفا إلى الآخر أثناء هذا الغياب.

وكان جميل أبو الذهب، وهو من رجال الأعمال الأثرياء، قد سقط أثناء فى غرام زهرة أيما سقوط، وتودد إليها بكل السبل، وهى تثير آماله بتقريبه إليها، ثم تصد عنه، فتكاد أن تجننه،وهو فى خلال ذلك يجعل الحصول عليها بأى ثمن حلم عمره. ثم ظهر فى حياتها جابر محارب، الذى خدع الرجل الطيب النبيل صاحب الدارة، وكان قد ألحقه بالعمل لديه محاميا لشركته وأولاه ثقته المطلقة، لكن المحامى لم ينس أيام فقره الذكر، واستطاع تزوير أوراق بطريقة محترفة نقل بها ملكية الشركة إليه وصار من كبار الأغنياء. واستغلت زهرة تعلق جابر محارب الشديد بها وخططت المؤامرات ضده بنعومة ودهاء حتى أعادت إلى طارق وأخته ما كان قد استولى عليه من مال أبيهما صاحب الشركة الذى تزوج أمها وأنفق عليها هى حتى تخرجت من الجامعة وأصبحت طبيبة. وكان طارق قد عاد من بريطانيا متشوقا إليها فعلم بخطبتها لجابر محارب وظن بها الخيانة والتنكر لحبه لها ولمروءة والده معها، لكنه فوجئ بها تلقاه يوما وتنبئه بأنها إنما فعلت ما فعلت كى تؤتى مؤامرتها ضد جابر محارب ثمرتها وتعيد إلى أسرته حقهم المسروق، وتزوجا. وفى هذه الحكاية تكثر الأحداث ونفتقر إلى حد ما المنطق فى تصرفات زهرة، ونشعر أننا بصدد قصة بوليسية. إلا أن الحب والجنس، كما قلت، هما العنصر البارز المسيطر على الرواية حتى إننا لو عصرناها كما نعصر الثياب المبلولة لسال الجنس منها جداول وأنهارا.

وهناك فى هذا السياق نقطة جديرة بالوقوف إزاءها من ناحية النقد النفسى فى تناول النصوص الأدبية. ألا وهى الرعب الذى استولى على كيان زهرة وهى مع أسرتها بالقطار فى الطريق إلى القاهرة هربا من مجتمع الغجر الذى ينتمون إليه حين وقع عليهم الغبن والإجحاف بعد اعتداء الوحش بسيونى عليها وعلى أمها، وبدلا من أن يعاقَب عوقبوا هم وطُرِدوا من المكان، فغادروه نهائيا وبحثوا عن الرزق فى مكان جديد. لقد كان البائع فى القطار ينادى على بضاعته من أكواز العسل بصوته العالى كالعادة، وكانت هى تصرخ كلما رأت ما يبيعه وينادى عليه، إذ كان يذكّرها بالوحش وما أتاه معها حين كان يضحك عليها بما يشتريه لها من هذه الحلوى الشعبية كى يجذبها إليه ويُذْهِب عنها الخوف فيتمكن من اغتصابها فى هدوء، وهو ما فعله بكل وحشية وجلافة وغلظة وسفالة. ولما تبين للشبان الواقفين فى طرقة عربة القطار فزعها الشديد، كلما رأت البائع وسمعت كلمة "كوز العسل" فصرخت، وقفوا فى مدخل العربة وشكلوا سدا فى وجهه حتى لا تراه ولا تسمعه. إنهم بطبيعة الحال لم يفهموا السبب الحقيقى لرعبها وصراخها، ولكنه فهموا أنها ترتعب من ذلك البائع. أما التفسير النفسى لذلك فمن الممكن الإشارة إلى حكاية كلب بافلوف وما خرج به ذلك العالم الروسى من أنه إذا تعود الكلب مثلا سماع جرس لدن تقديم اللحم إليه فإنه سوف يفرز اللعاب عند سماعه صوت الجرس حتى لو لم يكن مصاحبا لتقديم الطعام، إلى أن يضعف تأثير صوت الجرس بعدم تقديم الطعام معه لمرات متعددة. وعلى هذا فإن رؤية زهرة الصغيرة لكوز العسل فى القطار وسماعها صوت البائع ينادى عليه هاج رعبها الذى لم تكن قد مضت

عليه فترة طويلة. ثم لما كبرت وتعلمت وشاهدت بالمصادفة أمها تمارس الجنس مع زوجها صاحب الدارة وهى مبتهجة متلذذة، وخبرت رقة ابن هذا الرجل وهو يعاملها ويقبلها بحب وحنان، تخلصت من آثار اغتصاب بسيونى لها، وعرفت أن التقاء الرجل والمرأة ليس مؤلما ولا مرعبا كما قرّ فى خاطرها. كما أنها، بعدما كبرت وصرات طبيبة، رأت فى عيون الرجال وتصرفاتهم شدة التعلق بها والتطلع لجمالها لكن دون أن يجرؤ أحد على تخطى حدوده معها، فضلا عن أن يكون فظا ولو فى كلمة منه إليها. فبهذا وأمثاله تخلصت من الرعب الذى كانت تشعر به آليا حين تسمع صوت "الجرس".

كذلك فإن امتلاء الرواية بالجنس يدفعنى إلى مناقشة ما يعتقده بعض علماء النفس وكثير ممن ليسوا بعلماء نفس، وبخاصة فى الغرب، من الذين يتصورون أن الجنس هو الغريزة الأساسية الجوهرية بين الغرائز، وأنه محور تصرفات البشر. وأنا لست من أنصار هذا الرأى رغم إقرارى بأهمية الجنس وخطورته وحلاوته وجماله وما يسربل به حياتنا من أخيلة وأحلام. هناك الطعام والشراب والملبس والمسكن والمكانة العلمية والاجتماعية والصداقة وحب الأولاد والسعى وراء تحصيل ما يحتاجونه وحب الناس والوطن والإنسانية. هناك أشياء كثيرة وليس الجنس وحده. ولا مراء فى أن الطعام يأتى قبل الجنس لأن الحياة لا يمكن أن تكون إلا بالأكل والشرب. لقد جعل بعض علماء النفس الجنس هو المسيطر على كل شىء فى حياة البشر بما فى ذلك الأطفال الرضع. وهم يقولون إن الطفل يمر بمراحل مختلفة من الرغبة الجنسية، ومنها المرحلة فكيف يقولون ذلك؟ إنه الهوس بالجنس، كالذى يخاف

العفريت فهو يراه فى كل شىء من حوله وفى داخله. الشرجية والمرحلة الفموية مع أن هؤلاء العلماء البكاشين لم يكونوا يعرفون بم كانوا يشعرون فى ذلك الوقت ولا الأطفال أخبروهم بما كانوا به يشعرون.

ونقطة أخرى لا أستطيع أن أسكت عنها، وهى أن الرواية لا تخطئ أبدا فتشير إلى المسجد أو الأذان أو المئذنة أو الصلاة أو المصلين وكأنها تدور فى بيئة غير مسلمة ولا علاقة لها بالإسلام البتة. وهذا أمر غريب. فالناس فى مصر يسمعون الأذان عدة مرات فى اليوم أيا يكن المكان الذى يعيشون فيه. كما أن معظم الناس يصلون بغض النظر عن ثمرة هذه الصلاة فى حياتهم وبغض النظر عن مدى إخلاصهم فيها وبغض النظر أصلا عن تدينهم أو تأديتهم لها تأدية آلية غير واعية. لكننا ننظر فلا نجد ولا كلمة واحدة عنها ولو عرضا غير مقصود. وهذا ليس من الواقعية فى شىء، وبخاصة أن المؤلف حريص على الصلاة، ولا أظنه يؤديها على سبيل التظاهر. بل إنه فى كلامه معنا لا يتطرق إلى الجنس رغم أن بيننا من التقارب ما يزيل الكلفة. ومن هنا استغرابى لهذه الملاحظة. والصلاة هنا مجرد رمز على وجود الدين فى حياة مجتمعنا نحن المصريين. ومن ناحية اللغة هناك نقطتان: فمن جهة نجد أن أسلوب الكاتب سلس ومنساب إلى حد كبير. أقصد أن رص اللفظة لصق اللفظة، والجملة بجوار الجملة، والفقرة عقب الفقرة متماسك وقوى، فلا تقديم لما كان ينبغى تأخيره أو العكس ولا حذف لما يجب ذكره أو العكس، فضلا عن أن اختيار المفردات موفق إلى حد بعيد، كما أن المعجم اللفظى بوجه عام لا يشكو فقرا أو ضعفا. بيد أن الأساليب اللغوية لا تقف عند هذا الحد، بل

هناك الصحة النحوية والصرفية. والأخطاء المتصلة بالقواعد موجودة. ودائما ما أستغرب كيف أن القصاصين الجيدين لا يستكملون هذا الجانب حتى لا نسمع: "يا خسارة! الحلو لا يكتمل!".

إن الأمر لا يتطلب جهدا كبيرا ما دمنا قد تعلمنا القواعد اللغوية طوال حياتا التعليمية فى المراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية. أيعقل أننا يمكن أن ننسى أن الفاعل يرفع، وأن الأسماء الخمسة ترفع بالواو لا بالياء كما فى المثال التالى من الرواية: "لقد أفلس أبيها" أو أن هذه الأسماء تجر بالياء لا بالواو كما فى هذه الجملة "وقعت عيناها على رجل مائل إلى الطول ذو بشرة قمحية"؟ أترى من الصعب أن يتجنب الكاتب منا نصب خبر "أن" كما فى "من المعروف أن الغجر مولعين بالخيل إلى حد التقديس"؟ معنى هذا بكل بساطة أن تعليم النحو والصرف فى مدارسنا وجامعاتنا مثل عدمه! وإذا كان الأديب الجيد منا يقع فى مثل تلك الأشياء البدائية فماذا ترك لغير الأديب؟ أذكر، وأرجو ألا تكون الذاكرة قد عبثت بى كثيرا، أن يوسف إدريس فى أولى أقاصيصه كان يقع فى أخطاء كثيرة وأن بعض معارفه أخذ عليه ذلك، فكان رد فعله عجيبا وغريبا، إذ قال: لقد كان تدارك هذا من السهولة بحيث لم يكن ليكلفه أكثر من عشرة قروش يعطيها شيخا أزهريا يصحح له أخطاءه. قالها غير شاعر بالخجل من مستواه فى اللغة التى يكتب بها. وفضلا عن ذلك لم يكن أسلوبه فى بداياته سلسا بل كنت أحس وأنا أقرأ أقاصيصه بالجامعة بأن لغته تشبه حجارة حادة نائتة الحواف غير مستوية.

ومن الأخطاء اللغوية فى روايتنا الأمثلة التالية: "تعرف أنه محامى (صوابها "محامٍ") حقير"، "كانا يلعبان (الصواب "كانتا تلعبان" لأن الكلام عن بنتين لا ولدين) سويا أمام الدار"، "البقاء بالقرب من هذا الحى كابوسا (الصواب "كابوسٌ "لأنه خبر للمبتدإ)، "انفرجت شفتيها (الصواب "شفتاها" لأنها فاعل مرفوع بالألف للتثنية) عن ابتسامة حالمة"، "يحلو لهما أن يجلسان (الصواب "يجلسا" لأنه من الأفعال الخمسة التى تنصب بحذف النون) فوق المقاعد المخصصة للمتفرجين"... وهكذا. ولو اهتم الأديب منا بلغته شيئا من الاهتمام لكان له شأن فوق شأنه. وأعتقد أن أى كاتب، لو وضع هذا الأمر نصب عينيه، لما احتاج أكثر من مراجعة كتب القواعد المدرسية فى أسبوعين أو ثلاثة. ولو خلت روايتنا التى فى أيدينا من هذه الملاحظات اللغوية لزادت درجتها فى الجودة الفنية. لكن لا بد مع هذا من الإشارة إلى ما تتمتع به الرواية من تشويق، وإن كانت حكاياتها متشابكة وتجرى أحداثها على مدار قرون وفى بلاد مختلفة حتى ليشعر القارئ بأنه عالق فى هذه الشبكة. إلا أن الكاتب لم يرتبك مع هذا التشابك، بل ظل قابضا على زمام عمله بقوة تشهد له. كما ينبغى ان نشهد نحن من جانبنا له بحيوية الخيال، الذى أعانه على اختراع كل هذه الحكايات الغجرية الطويلة المتشعبة وربطها بعضها ببعض رغم كثرة الشخصيات وتعدد البلاد وتردد الأحداث بين الحاضر والتاريخ دائما. لقد استمتعت بالرواية بكل ما فيها من إيجابيات ومآخذ وحملنى تيارها العارم حملا فجعلنى أثناء القراءة أنسى ما فيها من تشابك اضطرنى عند كتابة

هذه الدراسة إلى الرجوع إلى صفحاتها مرة أخرى أقلبها كى أفض اشتباكاتها وأربط بين حكاياتها وأبطالها.

مع مسرحية "المُتَلْفِزون"

لإسماعيل بهاء الدين

"المُتَلْفِزون" هو عنوان مسرحية من إبداع د. إسماعيل بهاء الدين سليمان يشير به المؤلف إلى مواطنى الدولة التى تدور فيها أحداث المسرحية، وهم ناس يتخاطبون ويتراءَوْن من خلال التلفاز، إذ على رأس كل منهم خوذة من البلاستيك يعلوها طبق استقبال تلفازى قصير. وقد سبق أن أصدر الكاتب منذ عدة سنوات رواية باسم "المُتَمْثَلون"، وهى أول مرة بالنسبة لى تقابلنى هذه الكلمة، ومعناها الذين صُيِّروا أو أقيمت لهم تماثيل، وهذا الاسم ليس مشتقا من "م ث ل"، الذى هو أصل المادة كلها بل من اسم مشتق من تلك المادة، وهو "التمثال". ومعنى العنوان، وهو اسم مفعول من "تَمْثَلَ"، هو الأشخاص الذين نُصِبَت لهم تماثيل أو صُيِّروا هم أنفسهم تماثيل كما قلت. وقد كنت، حين وقع بصرى على عنوان مسرحيتنا دون تركيز، أظن أنه بفتح الفاء، أى الذين صيروا تليفزيونات جريا على صيغة المفعول فى "المُتَمْثَلون"، لكن المؤلف نبهنى إلى أن الفاء مكسورة. والمقصود أن الحوار يدور بين كثير من أشخاص الرواية تلفازيا عن طريق الهوائيات المثبتة على رؤوسهم بينما يستقبلون الردود على شاشات التلفاز الموجودة فى كل مكان. وربما قبلت الكلمة الضبطين: الكسر والفتح على اعتبار أنهم يتَلْفِزون ويُتَلْفَزون: "تلفز فلانٌ فلانًا". الأول متلفِز (اسم فاعل)، والثانى متلفَز (اسم مفعول)

وتقع أحداث المسرحية فى إمبراطوريةِ السلاحفِ الذهبيةِ العظمى، التى تتكون من عدة دويلات ضئيلة المساحة، وتقع من خريطة الكون فى مكان لا أهمية له، ومع ذلك تصف نفسها بـ"العظمى" مما يذكرنا بتلك الدولة العربية التى لم تكن لها أية قيمة سياسية ولا عسكرية ولا علمية ولا حتى رياضية ويحكمها شخص مستبد جاهل أحمق أو متحامق يعوق سبل التقدم أمام شعبه الذى ابتلى به، وإن لم يكن هو وحده الذى يقف عقبة فى المنطقة فى وجه تقدم مواطنيه، ولكنه أكثرهم حماقة وجهلا.

وقد فرض حكام إمبراطورية السلاحف الذهبية العظمى المتعاقبون عليها الجفاف والتصحّر، فنزعوا أشجارها وزرعوا مكانها أبراج البث التلفزيوني، مع أن الإسلام، وهى بالطبع دولة مسلمة، حرص أشد الحرص على تخضير البيئة وحرم قلع الأشجار بدون سبب. كما حظر أولئك الحكام الكتب والصحف والمجلات إلى أن انقرضت عادة القراءة والكتابة، وأصبح التلفزيون الرسمي الوسيلة الوحيدة للإعلام والتعليم في تلك الدولة مثلما كان هو الواقع حتى وقت قريب فى معظم بلاد العرب والمسلمين. وهو ما يذكرنا برواية "فهرنهايت ٤٥١"، التى وضعها القاص الأمريكي راي برادبري حول نظام شمولي يقوم بغزو العالم في المستقبل ويجعل التلفزيون دعاية سياسية له ويقوم بحرق الكتب على درجة ٤٥١ فهرنهايت. وهذا هو السبب فى عنونتها بهذا العنوان. وبطل الرواية هو رجل الإطفاء مونتياج، الذى يلتقي مصادفة بجارته كلاريس المحبة للقراءة. وقد استطاعت تلك السيدة تحبيبه فى مطالعة قراءة رواية جميلة كانت ثمرتها أن وقع في حب التراث الثقافى الإنسانى الذي كان لا يبالى به بل ربما كان

يجهله قبل التقاء بكلاريس، وتمرد معها على السلطة. ويرى النقاد أن هذه الرواية هي جواب برادبري على الإرهاب المكارثى فى أمريكا فى خمسينات القرن الماضى، ذلك الإرهاب المسمى بـ"المكارثية". ويرى القارئ كيف نجحت كلاريس فى جذب مونتياج إليها من براثن المكارثية إلى حضن الثقافة والوعى، مما يشبه ما حدث فى مسرحيتنا حين استطاع المتمردون الخضر اكتساب عقول الجنود الذين أرسلوا إليهم لتأديبهم وإخضاعهم فى أطراف الإمبراطورية وامتلاخهم من أيدى المستبدين واتخاذهم إياهم ردءا لهم بدلا من أن يكونوا عصا بطش بهم وتهشيم لرؤوسهم.

ويشى اسم الإمبراطورية بأوضاعها الكئيبة، إذ الذهب أصفر، والرمل الذى يسود البلاد أصفر، ومعروف أن السلاحف مضرب المثل فى البطء والبلادة، وهو ما تتصف به تلك البلاد فى الفترة الأخيرة من تاريخها الذى كان مجيدا يوما ما ولقرون طوال ثم تحول المجد مع الزمن إلى خزى وعار. أما "العظمى" فمن باب "الأضداد" مثلما نقول عن "الملدوغ": "السليم"، ونقول عن "الصحراء القاحلة المهلكة": "المَفَازة". وكلنا نعرف الدولة العربية التى لم يشأ حاكمها الهالك تسميتها بـ"الجمهورية" شأن الدول الأخرى فى أرجاء المعمورة بل أصر على تسميتها بـ"الجماهيرية"، ثم لم يكتف بهذا بل زاد فوصفها بعد ذلك بـ"العظمى"، وسمى نفسه: "ملك الملوك". وتتكوَّن المسرحية من ستة مشاهد تشغل ٣٣٧ صفحة من القطع المتوسط.

وتدور المسرحية بوجه عام حول تأمين رحلة الإمبراطور إلى وادى العناكب الوحشية المقدسة حيث يرقد آباؤه وأجداده، ثم يتضح أن المخاطر

تحيط بهذه الرحلة من كل الجوانب سواء تمت جوا أو تمت برا. وتقع مهمة ذلك التأمين على عاتق رئيس الوزراء. ولنستمع إليه وهو يصور هذه المخاطر:

"رئيس الوزراء: ... هناك تقارير مصورة كثيرة تؤكد أن سماءَ وادي العَناكِب الوحشيّة المقدسة مليئةٌ بالمطبات الهوائية التي لم نحدد بعد كيفية وتوقيت التعامل معها، ومن ثَمّ لا يمكن أن نغامر بحياة جلالته في رحلة جوية غير مأمونة العواقب.

كبير الياوَران: (وهو يغلق في وجه رئيس الوزراء باب حجته) رغم أنني لم أشاهد في هذه الصور مطباتٍ هوائية، لكنني أعتذر لدولتك عن خطأ غير مقصود وقعتُ فيه، فقد نسيتٌ أن أخبرك أن صاحب الجلالة لن يستخدم أيًا من سفنه الفضائية الخاصة في تلك الرحلة استجابة وتقديرًا منه لنصائح وتحذيرات وتوسلات عضوات المجلس الإمبراطوري القومي الأعلى لمنجِّمات وعرّافات البلاط الإمبراطوري.

رئيس الوزراء: (بيأس) ولا أعتقد أنه يستطيع استخدام أيٍ من سفنه الأرضية. أقصد أنه لا يستطيع استخدام أيٍ من سياراته المدرعة لإتمام هذه الرحلة في موعدها.

كبير الياوَران: (باهتمام) لماذا؟

رئيس الوزراء: (وهو يشير مرة أخرى إلى محتويات الأسطوانة، التي تظهر على شاشة التليفزيون) أمامي هنا، كما ترى، تقارير كثيرة تؤكد أن مجموعة الطرق البرية التي تصل عاصمتنا الذهبية بوادي العَناكِب الوحشيّة المقدسة غير

ممهَّدة، وهو الأمر الذي يجعلها غير صالحة لاستقبال موكب جلالته. (ثم بصوت خافت) ثانيًا، وهذا هو الأهم (بتركيز شديد) والأخطر...

كبير الياوَران: (مقاطعًا بقلق واضح) الأخطر؟!

رئيس الوزراء: (بأسف شديد) نعم، الأخطر. (ثم يتلفت حوله بخوف وحذر واضحَيْن ويضيف:) لقد أفلح بعض السفلة من المشاغبين والمشاغبات من رَعَاع القوم في تخطّي بوابات أسوارنا الأمنية والتسلل إلى وادي العَناكِب الوحشيّة المقدسة، وقبل أن تُكتشف جريمتهم كانوا قد وضعوا بصماتهم الإجرامية السوقية على المكان.

كبير الياوَران (بقلق متصاعد): أيَّ نوع من البصمات تقصد؟ وكيف يمكن أن تنتشر بصمات مجموعة من رَعَاع القوم في مكان إستراتيجي متسع مثل وادي العَناكِب الوحشيّة المقدسة؟

رئيس الوزراء (بحقد هائل): لقد نسفوا عددًا من أبراج الإرسال التليفزيوني التي أقامها صاحب الجلالة وأسلافه الكرام على نفقتهم الخاصة.

كبير الياوَران (صارخًا بلهجة مسرحية مبالغٍ فيها): يا للجحود الأعمى! (ثم يضيف بأسى:) نسفوا الأبراج؟! نسفوا أبراج الإرسال والاستقبال التليفزيوني؟!

رئيس الوزراء: نعم، نسفوا الأبراج، نسفوا أبراج الإرسال والاستقبال التليفزيوني، وليَتَهُم اكتفوا بذلك!

كبير الياوَران (متصنّعًا الاهتمام): وهل بعد نسف أبراج الإرسال والاستقبال التليفزيوني جرمٌ؟!

كبير الياوَران (يواصل بصوت منخفض): نعم، فبعد أن نسفوا أبراج الإرسال والاستقبال التليفزيوني أعادوا تمهيد الأرض، وغرسوا فيها، بدلًا من الأبراج المنتزَعة، بعض الأشجار الخضراء اللعينة.

كبير الياوران (بغضب هائل): أشجار؟!

رئيس الوزراء (بحزن حقيقي شديد): نعم، أشجار!

كبير الياوَران (وكأنه يرفض أن يصدق أذنيه): أشجار حقيقية؟! طبيعية؟ (ثم، كَمَنْ يوشك على البكاء:) تلك الأشياء الخضراء اللعينة القبيحة التي كانت تشوه جمال صحارينا قبل بدء العهد الذهبي لمؤسس نهضتنا الحديثة شيكو الأول؟!

رئيس الوزراء (وقد تزايدت أحزانه): نعم، يا كبير الياوَران، نعم.

كبير الياوَران (يبكي بحرقة مفتعلة، كَمَنْ يندب عزيزًا ذهب بلا عودة، على طريقة النّدّابات في صعيد مصر، بينما تُعرض على بعض الشاشات التليفزيونية مشاهد تصوِّر معارك حامية ضد الأشجار، حيث تُقتلع أشجارٌ، وتُحرق أخرى، ومعارك أخرى تدوس خلالها جرافات عملاقة مساحات خضراء لتدمرها:) يا للغباء!

ينزعون أبراجَ الإرسالِ والاستقبالِ التليفزيوني...

الرشيقةَ الصُلبة...

الجميلةَ الشامخةَ القوية...

ويغرسون بدلًا منها هذه الأشياءَ القبيحةَ الخضراء...

التي تجذبُ إليها الطيورَ الضالة...

والحشرات الضارة...

ومتى؟

الآن؟

بعد أعوامٍ طويلةٍ من النضالِ المرير...

ضد طُغيان اللونِ الأخضر...

بعد أن وطدت السلاحفُ الذهبيةُ العظمى...

دعائمَ مجدِها...

الآن؟

بعد أن فرض اللونُ الأصفرُ سلطانَ جمالِه...

بعد كل هذا...

يعود هذا الطفحُ الأخضرُ للظهور من جديد؟

وأين؟

على جانبَيْ مجموعة الطرق الإمبراطورية الخاصة...

يا للجرأة!

بل يا للوقاحة...

والخِسّة والنذالة!

رئيس الوزراء (مشاركًا في وصلة الندب): ولَيْتَهم اكتفَوْا بذلك يا كبير الياوَران!

كبير الياوَران: (وقد عاوده قلقه المهني) وماذا فعلوا غير ذلك؟!

رئيس الوزراء (يحاول أن يبعد عن مخيلته تفاصيل ما حدث، فلا يرد)...

كبير الياوَران (وقد تصاعد قلقُه المهني): تكلم يا رئيس الوزراء، ماذا تخفي؟ أيّ شناعة أخرى يدخرها هؤلاء السَفَلة من الرعاع لمولانا سيد الرمال الذهبية؟!

رئيس الوزراء: لقد (يحاول الحديث، لكنه يفشل في التصريح بما يريد، فيدفن وجهه بين كفَّيه ويبكي)...

كبير الياوَران: لقد؟ لقد إيه؟

رئيس الوزراء (يردد بصوت مكتوم): لا، لا. أرجوك. لا أستطيع أن أنطقها. لا أستطيع!

كبير الياوَران (وهو يتظاهر بأن كلمات رئيس الوزراء قد أصابته بالإحباط): آه. لا بد وأن جُرمًا فظيعًا قد ارتُكب. نعم، فأنا أعرف هؤلاء السَّفَلة جيدًا، وأعرف أيّ قدر من القبح يمكن أن يصيبوا به الأرض التي يضعون أيديهم القذرة عليها. تكلم يا دولة رئيس الوزراء.

رئيس الوزراء (وقد شجعه إحباط كبير الياوَران:) لقد أحاطوا كل شجرة من أشجارهم اللعينة (يتوقف لحظات، ثم يضيف وقد عاوده داء التردد:) بـ...

كبير الياوَران (يستحثّه بقلق:) بماذا أحاطوا كل شجرة من أشجارهم اللعينة؟ تكلم!

رئيس الوزراء: (كَمَنْ يلقي قنبلة، أو كَمَنْ ينطق كفراً في صحن مسجد:) لقد أحاطوا كل شجرة من أشجارهم اللعينة بحوض كبير من الزهور الملونة.

كبير الياوَران (يخرّ على ركبتيه مقلِّدًا ما يحدث في المشاهد المسرحية الميلودرامية، وهو يردد في مبالغة واضحة كأنه يستصرخ السماوات أن يتساقطن على الأرض كِسَفًا:) يا للكارثة البيئية المدمرة!

أشجار خضراء وزهور ملونة...

في قلب إمبراطورية السلاحف الذهبية العظمى...

يا للخيانة!

ينزعون أبراجنا الرشيقة الشامخة...

شواهِد مجدِنا...

ويتركون سماءنا عارية؟

يشوهون وجه أعظم صحاري التاريخ...

بالأشجار والزهور؟

يسممون هواءنا...

بما تبثه هذه الأشياء البغيضة...

من أكسجين وغازات سامة أخرى؟

كيف يجرؤون على ذلك؟

وأيّ قومٍ هم؟

أيّ قومٍ هم؟!

رئيس الوزراء (محاولًا أن يخفف من هول الموقف:) شرذمةٌ يا كبير الياوَران.

كبير الياوَران: نعم، شرذمة، لا بد وأنهم شرذمة، مجرد شرذمة حقيرة، لكن من الواضح أن قلوب أفرادها مليئة بقدر هائل من الحقد الأعمى.

رئيس الوزراء (كغريق يتعلق بقشة:) شرذمة حقيرة بقلوب حاقدة عمياء، قلة خسيسة انتهزت فرصة وجود طائرات التجسس عن بُعْد على الأرض، وارتكبت جريمتها.

كبير الياوَران (ينتفض كَمَنْ عاد من غيبوبة:) ماذا قلت؟

رئيس الوزراء: عندما بدأ أفراد تلك الشرذمة الضالة الحاقدة تحركاتهم لم نتمكن من رصد تلك التحركات لأن طائرات التجسس والتحسس التابعة لوزارة الاستشعار الأمني عن بُعد كانت، للأسف، متراصةً في مرابضها على الأرض داخل هناجر فولاذية محصّنة في قلب قواعدنا الجويّة.

كبير الياوَران: ومَن الذي أمر بذلك؟ مَن الذي سمح لطياري طائرات التجسس الإمبراطورية بمغادرة طائراتهم وتركها في مرابضها على الأرض؟ كيف يمكن أن تكون الطائرةُ طائرةً بحق إذا كانت رابضةً على الأرض؟

رئيس الوزراء: لقد أُجبِر الطيارون على ذلك بسبب مشكلة إدارية روتينية بسيطة. صحيح أن تلك المشكلة لم تدم أكثر من بضع سنوات، لكن هذه السنوات القليلة وفّرت لتلك القلة الوقت اللازم لارتكاب فعلتها الدنيئة بعيدًا عن أعيننا التي لا تغفل ولا تنام.

كبير الياوَران: مشكلة روتينية؟

رئيس الوزراء: نعم، خلاف دستوري بين اثنتين من وزارات حضرة صاحب الجلالة على تفسير بعض بنود الميزانية.

كبير الياوَران: بمعنى؟

رئيس الوزراء: أعتقد أنك تعرف أن طائرات التجسس تتبع وزارةَ الاستشعار الأمني عن بُعْد بينما يتبع طيارو تلك الطائرات وزارةَ الطيارين وسائقي الميكروباص.

كبير الياوَران: نعم، وهو ما يعكس تطبيقًا عبقريًّا لمبدإ دستوري مهم هو مبدأ الفصل بين السلطات.

رئيس الوزراء: منذ عدة سنوات وقع خلاف بين الوزارتين حول الجهة التي يتحتم عليها أن تدفع نفقات الباصات والميني باصات والميكروباصات وسيارات التاكسي والتكاتِك التي تنقل هؤلاء الطيارين من بيوتهم إلى المطارات وبالعكس. وعندما فشل الوسطاء الدوليون في التوفيق بين الوزارتين، رغم ما طرحوه من حلول تحقق مصالح الطرفين، اضطر وزير تمويل الوزارات والمصالح الحكومية إلى تجميد ميزانية الوزارتين.

كبير الياوَران (ساخرًا): وبسبب هذا الخلاف الروتيني الغبي ترك الجميع صحارينا مفتوحة أمام قلة حاقدة تنشر القبح في أرجائها، وتعيث فيها فسادًا.

رئيس الوزراء: نعم، هذا هو ما حدث للأسف.

كبير الياوَران (يواصل متجاهلًا تعليق رئيس الوزراء): ومَنْ يدرينا؟ ربما يكون أفراد هذه القلة عملاء مأجورين، ينفذون أجنداتٍ خاصة لبعض الدول أو الجهات الأجنبية. أنت تعلم دون شك أن معظم حكومات العالم تحقد على صفاء وجلال رمال إمبراطوريتنا العظمى، كما أن معظم شعوب هذه الدول

تحسدنا بقوة بسبب عجز حكوماتها عن مجاراة إنجازاتنا العظمى خاصة في مجال نشر ودعم التصحر...".

ولا ريب أن القارئ قد تنبه فى هذا النص الحوارى إلى ما يَسِمُ بل ما يَصِمُ أولئك المسؤولين الكبار فى إمبراطورية السلاحف الذهبية العظمى من طفولية الفكر، وسطحية العقل والتحليل، والتعبد الإدارى للوائح والنصوص والمراسيم الشكلية وتفضيلها على جوهر الأمور ومصلحة الدولة، والقدرة العجيبة على تضييع الوقت فى الثرثرة دفاعا عن الإهمال وتبرير الأخطاء والخطايا التى من شأنها إيقاع الكوارث الشنيعة بالبلاد. والعجيب أن مثل تلك العقليات نفسها هى التى تسارع فى التو واللحظة إلى الإطاحة بكل شيء فى القانون والدستور والقيم الإنسانية والدين والوطنية إذا ما تعلق الأمر بحقوق المواطن المسكين وشكلت تلك الحقوق عائقا أمام الظلم والإجحاف الذى تمارسه السلطة ضد مواطنيها قمعا وضربا واعتقالا وقتلا وتنكيلا بأقاربه نكاية فيه وتيئيسا له ولأمثاله حتى لا يفكروا مرة أخرى فى أن يكون لهم موقف مختلف عن سائر المواطنين الصامتين السائرين جنب الجدران ولو تمثل هذا الاختلاف فى مجرد الكلام أو أحلام اليقظة.

كذلك لا أحسب إلا أن القارئ الكريم قد التقط تلميح المسرحية إلى ما وقع فى يونيه ١٩٦٧ حين تُرِكَتْ طائراتنا رابضة على الأرض فى العراء عرضة (مقصودة؟) للطيران الصهيونى، الذى دمرها كلها تقريبا فى ساعات معدودات وأوقع بمصر هزيمة لم تخبرها طوال تاريخها المتناوح فى حدود معرفتنا. ولا أظن القارئ العزيز قد فاتته أيضا رنة السخرية المريرة فى ذكر

الميكروباصات والتَّكَاسِى والتكاتك بوصفها وسائل المواصلات التى تحمل الطيارين من مطاراتهم إلى منازلهم وبالعكس. ولا أظنه كذلك قد ندَّ عن سمعه ووعيه الحديث عن العرافات اللاتى لهن الكلمة المسموعة فى شؤون الحرب والسلام فى الإمبراطورية السلاحفية مما يذكرنا بما سمعناه وقرأناه عن الاستعانة بتحضير الأرواح فى مخابرات صلاح نصر قبل الهزيمة اليُونْيَوِيّة التى سماها الشياطين بـ"النكسة" تلاعبا بالكلمات لتخفيف الكارثة التى حاقت بنا آنذاك ببركة أولئك المجرمين أنفسهم.

ومن هذا النص أيضا نخرج بأن قمع الفكر لا ينجح إلا لمدى زمنى قصير ولا ينجح إلا مع الأمم الجاهلة الجبانة، وينتهى دائما بالكوارث والمصائب والتخلف والهزيمة القاصمة. ومنه كذلك نخرج بأن الخوذ والهوائيات اللاقطة المضحكة التى وضعوها فوق كل الرؤوس فى الإمبراطورية لم تنفعهم فى شىء، إذ لم تصلح حتى ولا فى داخل مكتب رئيس الوزراء، فقد كان كلما استدار ليرى صورة سكرتيرته عند سماعه صوتها أصاب شاشة التلفاز الخاص بها تشويش فلم ير شيئا، وكلما أراد أن يراها ويحدثها مواجهة إذ كان يشتاق إلى القرب منها تلذذا بأنوثتها ودلالها تعللت بأنها مصابة بالأنفلوانزا وتخشى عليه التقاط العدوى، فيسكت على مضض ساخط معربا عن استغرابه لتغير صوتها عن الصوت الذى ألفه منها. كما أن المتمردين فى أطراف الإمبراطورية الهزء قد نجحوا فى نسف الأبراج التلفازية وفصلوا المناطق التى سيطروا عليها عن باقى البلاد وحيدوا الطيران، وحولوا مناطق القحولة والرمال والأسمنت إلى مناطق

خُضْرةٍ ونباتاتٍ وزهورٍ وكتبٍ وأقلامٍ مفسدين بذلك على الدولة خطة نشر الجدب والعقم فى أرجاء الإمبراطورية.

وعندما تتأزم الأمور وتتعقد المشكلة ولا يجد رئيس الوزراء حلا لمشكلة تأمين الرحلة الإمبراطورية يفكر فى الاستقالة بما يصاحبها من ألم وهوان، بيد أنه فى آخر لحظة يرى الاستعانة بمجلس حكماء الإمبراطورية، وتدور مناقشات طويلة ومرهقة على نفس الشاكلة التى خبرناها فى النص الماضى، زيادة على تغير موقف الحكماء كلَّ قليلٍ تجاه الأمور التى يناقشهم فيها: فهم يتشددون حين لا يجدون لهم مصلحة فى الموافقة، ويتساهلون عندما يلوّح لهم بالمكافآت واللعب فى دفاتر المصاريف الخاصة بحل مشكلة الرحلة. وهو من جانبهم يمنّيهم ويَعِدُهم بما تتحلّب لهم ألسنتهم وأفواههم حتى إذا ما استجابوا لاقتراحاته لَحَسَ وعوده لهم... وهكذا.

وهذا نص لبعض ما دار من حوار بين رئيس الوزراء وبين من تبقَّى من أعضاء مجلس الحكماء، وهم مخلوقات أكل عليهم الدهر وشرب لم يجتمعوا معا منذ عشرين عاما إثر قرار منه هو شخصيا بتفريقهم هنا وهناك إلى أن اضطر الآن إلى استدعائهم للاستعانة بهم فى حل مشكلة التأمين الخاص برحلة الإمبراطور إلى وادى العناكب الوحشية المقدسة:

"رئيس الوزراء (مترددًا بين الإفصاح والكتمان): يؤسفني أن أبلغ حضراتكم أن أحوالَ وأوضاعَ مجموعة الطرق الجوية والبرية التي تربط عاصمتنا المقدسة بوادي العَناكِب الوحشيّة المقدسة سيئةٌ للغاية.

رئيس المجلس: نحن جميعًا نعرف ذلك، ولكنني لا أعرف علاقتنا بهذه الحقيقة. ما هو المطلوب منا بالضبط؟

رئيس الوزراء: أعرف أنكم تعرفون، لكنني أريد حلًّا للمشكلة التي ترتبت على المشكلة التي أعرف أنكم تعرفونها.

رئيس المجلس: أية مشكلة؟

رئيس الوزراء (محاولًا أن يحتفظ بهدوئه): كيف نضمن قيام صاحب الجلالة بالرحلة في موعدها الذي سوف يُحَدَّد لاحقًا؟ أي كيف نضمن وصوله إلى وادي العَناكِب الوحشيّة المقدسة بالسلامة؟ وكيف نضمن عودته إلى قصره العامر بأمان؟

عضو اليسار (وهو يعبث بأصابعه في شاربه المستعار): هل لي أن أعرف مَن هو صاحب الجلالة هذا الذي تتحدثون عنه وعن رحلته منذ أكثر من ساعة؟

رئيس الوزراء (وهو لا يفهم سبب هذا التساؤل): مَن هو صاحب الجلالة؟! الإمبراطور طبعًا!

عضو اليسار (دون أن يكفّ عن العبث بشاربه): أعرف أنه الإمبراطور، لكن أيَّ الأباطرة تقصد، فهُمُ كُثْرٌ؟

رئيس الوزراء (بارتباك واضح): إمبراطورنا نحن، إمبراطورُ السلاحفِ الذهبيةِ العظمى الذي، الذي ...

عضو اليمين (مقاطعًا): هل تقصد الإمبراطور كيمو الثاني؟

رئيس الوزراء (وقد فوجئ بهذا الاسم): كيمو الثاني؟! أعتقد أن إمبراطورنا العظيم يُدْعَى: شيكو، شيكو الثاني عشر.

عضو اليمين (بثقة واضحة): لا، لقد علمت من أحد برامجنا التليفزيونية التوجيهية التعريضية الخاصة أنه يُدعى: كيمو، كيمو الثاني.

رئيس الوزراء (وقد بدأ يشك في معلوماته): التليفزيون قال ذلك؟

عضو اليمين: نعم، التليفزيون الرسمي أذاع ذلك رسمياً.

رئيس المجلس (وقد بدت على وجهه علامات الحيرة): سيادة الجنرال رئيس الوزراء، هل قلت إن إمبراطورنا يدعى: شيكو الثاني عشر؟

رئيس الوزراء (بشك): نعم.

رئيس المجلس (وقد تزايدت حيرته): إذا كان ذلك صحيحًا فأين ذهب الإمبراطور شيكو الأول عشر؟ أقصد شيكو الحادي عشر؟!

رئيس الوزراء (وقد تملَّكه خوف حقيقي): حضرة صاحب المعالي رئيس المجلس الإمبراطوري القومي الأعلى لحكماء إمبراطورية السلاحف الذهبية العظمى، اسمح لي أن أذكِّر نفسي وأن أذكركم مرة أخرى بأن المادة الخمسين من دستورنا المؤقت تحظر على أي مواطن الخوض في تفاصيل الحياة الشخصية لأباطرتنا العظام، كما تحظر مناقشة أية تفاصيل تتعلق بتسلسل حلقات النسب داخل الأسر الإمبراطورية، وقد فُرِض هذا الحظر من منطلق أن تاريخ تلك الأسر أمرٌ لا يهم إلّا الخاصة من أعضائها.

عضو اليمين (بإصرار لا معنى له): مع احترامي للدستور المؤقت وأحكامه أنا لا أزال مُصِرًّا على أن إمبراطورَ السلاحفِ الذهبيةِ العظمى الذي يسكن القصر الإمبراطوري يُدعى: كيمو، كيمو الثاني.

رئيس المجلس (بقلق): وماذا عن أسرة شيكو؟

عضو اليمين (بلامبالاة): لقد سمعت من مذيعة تليفزيونية شهيرة أن هذه الأسرة قد انقرضت منذ عدة أعوام بسبب وباء وراثي غامض رفض العلماء تحديد أسبابه رغم أنهم تعرضوا لضغوط دوليةٍ شديدة.

رئيس الوزراء: لعلك تقصد "فَشِلَ" العلماء في تحديد أسبابه.

عضو اليمين (بإصرار): بل أقصد "رفضوا"، فأنا أعرف جيدًا الفارق اللغوي والعلمي والسياسي بين الرفض والفشل.

رئيس الوزراء (وقد فقد القدرة على النقاش): ربما، ربما يكون ما سمعتَه من هذه المذيعة صحيحًا، فأنا لا أستطيع مطلقًا أن أشكّك في صحة معلومة جاءت على لسان مذيعة تليفزيونية. كما أنني، وهذا أمرٌ مهم، لم ألتق بإمبراطورنا العظيم سوى مرة واحدة فقط.

عضو اليسار: مرة واحدة فقط؟

رئيس الوزراء (كَمَنْ يستحلب ذاكرته): نعم، كان ذلك، إذا لم تخنّي الذاكرة، منذ حوالي ربع قرن. وأذكر أنني يومها لم أجرؤ على سؤال أيّ من الحاضرين عن اسم جلالته، بل إنني لم أجرؤ على النظر إلى ملامح وجهه.

رئيس المجلس (مصدقًا على كلام رئيس الوزراء): ومَن ذا الذي يجرؤ على توجيه سؤال إلى المحيطين بأيّ إمبراطور عن اسم جلالته؟ ومَن ذا الذي

يجرؤ على التطلع إلى وجه أيّ إمبراطور، ناهيك عن التحقق من ملامح هذا الوجه؟ هذه مسألة مستحيلة بغضّ النظر عن الزمان أو المكان. (ثم وهو يشير إلى صورة الإمبراطور الضخمة في خلفية المسرح:) هل تعرفون لماذا تبدو صورُ الأباطرةِ متشابهةً على مرِّ العصور؟ (يتوقف لحظات كأنه ينتظر ردًا، ثم يضيف:) هل تعرفون لماذا تبدو وجوه الأباطرة خالية من التفاصيل الدقيقة على مرِّ العصور؟

رئيس الوزراء (بفضول:) لماذا؟

رئيس المجلس (يمسك عن الجواب لحظات، ثم ينطلق شارحًا بلهجة مَن يعلن حقيقة علمية مجردة لا تقبل الجدل ولا الشك:) لأن عيون النحاتين والرسامين والمصورين لا تجرؤ على إطالة النظر إلى وجوه الأباطرة للتحقق من ملامحها. بل إن عدسات آلات التصوير نفسها، رغم كونها آلات لا روح فيها، ترتعش في يد مَنْ يحملها عندما يوجهها نحو أيّ إمبراطور، فتلك العدسات لا تجرؤ على التقاط أية تفصيلة من تفاصيل ملامح وجوه الأباطرة. وإذا فعلت العدسات ذلك، عن طريق الخطإ أو بسبب خلل ما أصابها، أصلحت أفلام تلك الكاميرات هذه الخطيئة، بالامتناع أو العجز عن استيعاب تفاصيل ملامح الوجوه الإمبراطورية المقدسة حتى لا تحترق إن هي حاولت. لهذا تكتفي الكاميرات وعدساتها وأفلامها بتحويل تلك الملامح إلى هالة من نور. وهذا هو سر ما تتمتع به وجوه الأباطرة من جلال ومهابة، فالناس دائمًا يهابون ما لا يعرفون، ويُجِلّون ما لا يَرَوْن.

عضو اليسار (باستخفاف): أفلام الكاميرات؟ ألا تعلم أن الكاميرات لا تستعمل أفلامًا هذه الأيام، بل تستعمل ما يُعرف بالأقراص الصُلبة؟

رئيس المجلس (محاولًا إخفاء ارتباكه): أعرف طبعًا، لكن المشكلة الحقيقية تكمن في أنك لا تعرف أن هذه الأقراص الصلبة، مهما بلغت صلابتها، لا تقوى على استيعاب تفاصيل وجه إمبراطور ما. أنت لا تعرف، للأسف، أن هذه الأقراص، رغم صلابتها التي تبهر أمثالك، تعجز عن احتواء أو تسجيل ملامح وجه إمبراطوري كريم. فإن حاولت ذلك أحرقتها نظراته وأذابتها كما يذوب قرص الفوَّار في كوب من الماء البارد.

رئيس الوزراء (يحاول أن يعود بالحوار إلى موضوعه الأصلي): على أية حال أعتقد أنكم تتفقون معي على أن اسم الإمبراطور المقصود لا يستحق ذلك النقاش المحظور دستوريًّا، فضلًا عن أن هذا النقاش لن يغير من الموقف شيئًا أو لن يغير من الأمر كثيرًا.

عضو اليمين: ماذا تقصد؟

رئيس الوزراء: أقصد أنه أيًّا كان الاسم فإن إرادة صاحب هذا الاسم، الذي يسكن القصر الإمبراطوري ويحمل لقب إمبراطور السلاحف الذهبية العظمى، قد استقرت على القيام برحلةٍ ما بعد ظهر يومٍ قريب، وواجبنا نحن أن نعمل على تنفيذ ما استقرت عليه الإرادة الإمبراطورية.

رئيس المجلس: هذه مهمة بالغة الصعوبة.

عضو اليمين (مواصلًا هوايته الغريبة): خاصة أننا لم نتفق، حتى الآن، على اسم ولقب ساكن القصر الإمبراطوري.

رئيس الوزراء (بغضب): قلت: دعونا من مشكلة الاسم واللقب الآن، لأن الخلاف حول هذه القضية ليس خلافًا عملياتيًّا يسهل حسمه، بل هو خلاف وجودي فلسفي نظري، يمكن أن يتواصل النقاش حوله لسنوات طويلة. المهم الآن هو أن تفكروا معي في كيفية تنفيذ إرادة صاحب الاسم واللقب، جلالة الإمبراطور، فهو إمبراطور بغضّ النظر عن اسمه، وإرادته إرادة سامية مقدسة واجبة التنفيذ بغضّ النظر عن لقبه. كيف نؤمِّن رحلة صاحب الجلالة الإمبراطور المعظَّم من قصره إلى وادي العَناكِب الوحشيّة المقدسة، وكيف نؤمِّن رحلة عودته من هناك إلى قصره؟

رئيس المجلس: سوف نفكر في ذلك، لا تقلق.

عضو اليسار: عليك فقط أن تمنحنا وقتًا كافيًا للبحث والتفكير.

عضو اليمين (مواصلًا ومؤيدًا كلام عضو اليسار): هذه قضية معقدة ولا نستطيع أن نقدم فيها رأيًا سريعًا.

عضو اليسار (مواصلًا): يجب أن يكون الرأي الذي يخرج عنّا رأيًا مدروسًا وعميقًا.

رئيس المجلس (مواصلًا): لذلك نحن نحتاج إلى عشر جلسات مطولة على الأقل.

عضو اليمين (بسرعة): لا، أنا أعتقد أننا سوف نحتاج إلى ما يزيد عن عشرين جلسة.

عضو اليسار (مواصلًا بنفس السرعة): ونحتاج أيضًا إلى عدد مماثل من الزيارات الميدانية لبعض المواقع المهمة التي تقع على طول خط سير الرحلة.

رئيس الوزراء (وهو لا يصدق أذنيه): عشرون جلسة؟!

عضو اليسار (مؤكدًا): وعشرون زيارة ميدانية.

رئيس الوزراء (بذهول): لماذا؟!

السكرتيرة (تتدخل لتشرح السبب ببساطة وثقة): لأن المزيد من الجلسات يعني المزيد من المكافآت. كما أن المزيد من الجولات والزيارات الميدانية يعني المزيد من بدل السفر والإقامة.

رئيس الوزراء: يعني إيه؟

السكرتيرة (بسخرية): يعني "أَبِّجْني تجدني"!

رئيس الوزراء: هذه سرقة!

رئيس المجلس (محتجًّا): ماذا تقول؟!

السكرتيرة: دولة الرئيس، تريث قليلًا. لا تنس أن نصيبك من تلك المكافآت لن يكون أقل من نصيب أيّ منهم.

رئيس الوزراء (متراجعًا، وكأن هذه التفصيلة لم تخطر على باله قبل ذلك): آه! هكذا؟ برافو عليك! ها أنت تبهرينني للمرة الثانية خلال يوم واحد. ما أثقبَك!

السكرتيرة (بدهشة:) نعم؟!

رئيس الوزراء: أقصد أنك صاحبة رؤية ثاقبة جدًا. (ثم يخاطب أعضاء المجلس:) حضرات السادة الكرام رئيس وأعضاء المجلس الإمبراطوري

القومي الأعلى لحكماء إمبراطورية السلاحف الذهبية العظمى، أرجو أن تنصتوا إليّ جيدًا. نحن في وضع استثنائي خطير يتطلب إجراءات استثنائية خاصة، فالرحلة سوف تبدأ بعد ظهر يوم قريب جدًا. لذلك أطرح عليكم ما يلي: إذا تمكنتم من حسم هذه المشكلة والتوصل إلى حل جيد لها قبل أن تنفضّ هذه الجلسة أعدكم بشرفي أن أوقّع على مستند مالي رسمي يفيد بأنكم قد عقدتم عشرين جلسة عمل رسمية متتالية.

عضو اليسار: أنت تعرف أن التوقيع على المستندات أو إصدارها بدون توقيع أمر محظور.

رئيس الوزراء (وقد أسقط في يده): معك حق، لكنني سوف أجد مخرجًا قانونيًّا لإثبات ذلك.

عضو اليمين: وماذا عن الزيارات الميدانية؟

رئيس الوزراء (بسرعة دون تفكير): أتعهد أمامكم الآن، وأقسم لكم بشرفي وشرف منصبي، بأنني سوف أصرف لكم بدلات السفر والتغذية والإقامة المقررة لعشرين زيارة رسمية خارج العاصمة دون أن تكونوا مضطرين إلى مغادرة هذه الحجرة.

رئيس المجلس (وهو يتبادل مع زميليه نظرات يملؤها الشك): ومَن يضمن لنا تنفيذ هذا الاتفاق؟

رئيس الوزراء (بدهشة): أنا طبعًا. لقد أقسمت لكم بشرفي وشرف منصبي.

عضو اليمين (وهو يتجاهل إجابة رئيس الوزراء:) كيف نضمن أنك لن تخدعنا وأنك لن تنقض عهدك معنا بعد أن تحصل منّا على ما تريد؟

رئيس الوزراء (بغضب وحسم قاطع): الضمانة الوحيدة هي كلمتي ووعدي. ولا تنسَوْا أنني صاحب هذا الاقتراح وأن أحدًا لم يفرضه عليّ.

عضو اليسار (بخبث شديد): ولا تنسوا أيضًا أنه سوف يمنح نفسه من المكافآت والحوافز والبدلات ما يزيد عما سوف يمنحه لنا جميعًا.

رئيس الوزراء (وقد فاض به الكيل): أرجو أن تكفوا جميعًا عن هذا اللغو الفارغ وأن تتفرغوا تمامًا لمهمتكم. (ثم يضيف وهو يلوح بإصبعه محذرًا ومنذرًا:) أمامكم ساعة من الآن، ساعة واحدة فقط. بعدها عليكم أن تقدموا لي حلًّا لوجستيًّا وأمنيًّا كاملًا متكاملًا أو أن تتقدموا باستقالة جماعية لا رجعة فيها. وأنتم تعرفون جيدًا عاقبة المستقيلين.

رئيس المجلس (يندفع بفزع حقيقي): لا، لا، يا سيادة الجنرال. لا تكن متشائمًا هكذا. تفاءل يا رجل!

عضو اليمين (وكأنه يحاول أن يطمئن نفسه): نعم، تفاءل بالخير حتى تجد كل الخير.

عضو اليسار (بثقة): تأكد أننا سوف نتوصل إلى حلٍ ما.

رئيس الوزراء (يسعده ما أثارته تهديداته فيهم من خوف، فيواصل مستغلًا تلك الحالة): عظيم، عظيم جدًا. هذا هو كل ما أريده منكم. أريد حلًا حاسمًا وسريعًا. ومرة أخرى أقولها بكل وضوح: أمامكم واحدٌ من خيارين لا ثالث لهما: حل مشكلة الرحلة، أو حل المجلس.

السكرتيرة (ينطلق صوتها من خلال جهاز التخاطب بفرح): دولة الرئيس، عندي لك خبر سارّ.

رئيس الوزراء (بترقب حذر): خبر سارّ؟! منك أنت؟! لا أظن، رغم ما فاجأتِني به اليوم.

السكرتيرة (تتجاهل تعليقه): سوف ترى بنفسك أن مفاجآتي السارة لا نهاية لها. (ثم بهدوء:) لقد تلقيت الآن مكالمة تليفونية عاجلة من القصر الإمبراطوري.

رئيس الوزراء (باهتمام): مكالمة تليفونية من القصر الإمبراطوري؟

السكرتيرة: نعم.

رئيس الوزراء: (وقد تصاعد اهتمامه) بخصوص؟

السكرتيرة: بخصوص الرحلة طبعًا.

رئيس الوزراء (وقد تحول اهتمامه إلى نوع من القلق): خير!

السكرتيرة (وكأنها تعلن عن مفاجأة كبيرة): لقد تأجلت رحلة صاحب الجلالة لمدة ثلاثة أسابيع.

الأعضاء الثلاثة (يقفزون في الهواء فرحين، وهم يهللون، كمجموعة من التلاميذ الكسالى جاء جرس الفسحة لينقذهم من عقاب ناظر المدرسة): هيييييه! إتأجلت!... إتأجلت!... إتأجلت!

رئيس الوزراء (يلتفت نحو الباب الأيسر مخاطباً السكرتيرة): كيف عرف هؤلاء المهرِّجون خبر تأجيل الرحلة؟

السكرتيرة: لقد صدرت إليّ أوامر جديدة بأن أخاطبك عبر الموجة العادية ذات الترددات المعتادة.

رئيس الوزراء: وماذا عن موضوع تأجيل الرحلة؟ هل أنت واثقة من صحة هذا الخبر؟

السكرتيرة: نعم يا دولة الرئيس، فقد تلقيت المكالمة على القناة التليفزيونية السرية الساخنة، التي تربطنا بمكتب صاحب الجلالة الإمبراطور مباشرة.

رئيس الوزراء (بلهفة وفضول): القناة التليفزيونية السرية الساخنة؟ هل تعنين أن جلالته تحدث إليك بنفسه؟

السكرتيرة: لا أعتقد ذلك يا دولة الرئيس، فمحدثتي كانت امرأة.

رئيس الوزراء: امرأة؟

السكرتيرة (وكأنها تحاول تجسيم كلماتها:) نعم، امرأة، امرأة ساحرة الجمال ذات صوتٍ ملائكي ولكْنةٍ أجنبية.

رئيس الوزراء: ساحرة الجمال!

السكرتيرة: ولها صوت ملائكي.

رئيس الوزراء (بلهجة لا تخلو من الحسد): امرأة ساحرة الجمال تحدثت إليك أنت بصوت ملائكي؟ جاتنا نيلة في حظنا الهباب!

رئيس المجلس (يتبادل مع العضوين الآخرين بعض النظرات والهمسات، ثم يلتفت نحو رئيس الوزراء ويتساءل بترقب قلق:) والآن، دولة رئيس الوزراء، ماذا تنوي أن تفعل بنا بعد تأجيل الرحلة؟

رئيس الوزراء (يفكر للحظات ثم يتخذ قراره): يمكنكم أن تنصرفوا الآن على أن تعودوا إليّ بالحل في الواحدة من بعد ظهر الغد.

رئيس المجلس: ولماذا لا نلتقي بعد يومين أو ثلاثة؟ لقد تأجلت الرحلة ثلاثة أسابيع كما سمعنا جميعًا، ولم يعد هناك مبرر للاستعجال.

رئيس الوزراء (بعد لحظات أخرى من التفكير): وهو كذلك. فلنلتق بعد يومين أو ثلاثة من الآن، في نفس الموعد، الواحدة ظهرًا. والآن هيا (وهو يدفعهم نحو الباب الأيسر، كَمَنْ يهشّ على غنمه:) فلينطلق كلٌّ منكم إلى حال سبيله، وكفى ما أضعتموه من وقتي وطاقتي.

(يغادر أعضاء المجلس الثلاثة الحجرة، واحدًا وراء الآخر، دون أن يؤدي أيٌّ منهم التحية العسكرية الرسمية. بعد خروجهم، يعود رئيس الوزراء إلى مقعده الضخم خلف المكتب)

السكرتيرة (بصوتٍ باسمٍ): هل يطلب دولة الرئيس شيئًا ما من سكرتيرته الغبية؟

رئيس الوزراء (متجاهلًا دعابتها): موش قُلتي عندك أنفلونزا؟!

السكرتيرة: أقصد هل تطلب شيئًا أستطيع تنفيذه من مكاني هنا دون تعريضكم للعدوى؟

رئيس الوزراء: لا.

السكرتيرة: هل ينوي دولة الرئيس الانصراف إلى منزله الآن؟

رئيس الوزراء (يعيد ترديد كلمات السكرتيرة كأنه يفكر بصوت مرتفع): هل ينوي دولة الرئيس الانصراف إلى منزله الآن؟ (يصمت لحظة قبل أن يجيب:) لا، ليس هناك ما يحتم ذلك. دولة الرئيس سوف يقضي الليلة هنا.

السكرتيرة: فعلًا؟

رئيس الوزراء: فعلًا.

السكرتيرة: وإذا سألتْ عنك زوجتك؟ ماذا أقول لها؟

رئيس الوزراء (ساخرًا): ومنذ متى تسأل عني زوجتي؟

السكرتيرة: إذا وقعت المعجزة وحدث ذلك ماذا أقول لها؟

رئيس الوزراء (بأسىً حقيقي): لا تشغلي بالك بهذا الأمر. أنا واثق أن زوجتي لن تسأل عني حتى لو قضيتُ العمر كله خارج المنزل. (ثم، يتذكر فجأةً أمرًا هامًا:) لقد كدتُ أنسى، هل وصلتني أية مكالمات خاصة أثناء اجتماعي بهؤلاء المتخلفين؟

السكرتيرة (بخبث): مكالمة واحدة فقط يا دولة الرئيس.

رئيس الوزراء (بلهفة): ممن؟

السكرتيرة (بخبث): من اللي بالي بالك طبعًا.

رئيس الوزراء (وقد انفرجت أساريره): جوهرة الإمبراطورية!

السكرتيرة (بدلال): صاحبة العصمة! ربَّة الصون والعفاف! معالي وزيرة المناسبات السعيدة واللحظات الجميلة.

رئيس الوزراء (وقد امتزجت فرحته بغضبه): ولماذا لم تخبريني ساعتها؟!

السكرتيرة (وهي ترتدي ثوب البراءة والسذاجة): لأنك كنتَ قد أمرتَ بألّا يزعجك أيُّ إنسان أيًا كان السبب.

رئيس الوزراء (بلهجة خبيثة لعوب): يزعجني؟! وهل يمكن لمكالمة من جوهرة الإمبراطورية أن تُسبب لي إزعاجًا أيتها السكرتيرة الغبية؟!

السكرتيرة (وهي تمهد لإعلان خبر سيئ): على أية حال لا أعتقد أنك كنت سوف تسعد بتلقّي تلك المكالمة بالذات.

رئيس الوزراء (بقلق واضح): لماذا؟ ماذا قالت؟

السكرتيرة (وهي تقدم كلمة، وتؤخر أخرى): طلبتْ مني إبلاغك بأنها حصلت على إذن من أمانة مجلس الوزراء بالغياب لمدة أربعة أسابيع.

رئيس الوزراء (بقلق): أربعة أسابيع؟

السكرتيرة: نعم، أربعة أسابيع.

رئيس الوزراء (بقلق متزايد): هذه فترة طويلة جدًا، فضلًا عن أنها لم تعتد الغياب عني أو عن عملها إطلاقًا. هل ذكرت سبب ذلك الغياب؟

السكرتيرة (بتردد): نعم.

رئيس الوزراء (يتحول قلقه إلى غضب): انطقي! أنا لا أحب تلقي المعلومة الواحدة على دفعات. لماذا تغيب أربعة أسابيع، وهي لم تفعل ذلك منذ عرفتُها؟

السكرتيرة (بتردد مبالغ فيه): لأنها سوف تغادر البلاد مساء اليوم.

رئيس الوزراء: مساء اليوم؟!

السكرتيرة: نعم.

رئيس الوزراء: لماذا؟!

السكرتيرة (بشماتة واضحة): رحلة شهر عسل جديد مع زوجها.

رئيس الوزراء (مستنكرًا): شهر عسل جديد؟!

السكرتيرة: نعم، مع زوجها.

رئيس الوزراء (باستنكارٍ أشد): شهر عسل جديد مع ذلك المخبول، وزير الأمن السياسي للجبال والصحاري؟!

السكرتيرة (بأسفٍ واضح): لقد اتضح أنهما كانا منفصلين منذ فترة طويلة يا دولة الرئيس، وبالأمس فقط ......

رئيس الوزراء (مقاطعًا): عادت إليه مرة أخرى؟

السكرتيرة: لا، تزوجت حارسها الخاص.

رئيس الوزراء (بذهول): حارسها الخاص؟

السكرتيرة: نعم، حارسها الخاص.

رئيس الوزراء (كَمَنْ لا يصدق أذنيه): حارسها الخاص؟! ذلك الحيوان الضخم الذي اخترته بنفسي لحمايتها؟!

السكرتيرة: نعم يا دولة الرئيس، هو بعينه.

رئيس الوزراء: لقد تعمدتُ أن أختاره بغلًا حقيقيًا حتى لا يحدث بينهما ما يمكن أن يَجْرَحني أو يُحْرِجني!

السكرتيرة (بلهجة لا تخلو من السخرية): واضح أن دولتك قد أحسنتَ الاختيار، على الأقل من وجهة نظرها هي.

رئيس الوزراء (والحزن يعتصر قلبه): وأنا؟! وكل ما كان بيننا؟!

السكرتيرة: أنا آسفة جدًا يا دولة الرئيس. إن قلبي ينفطر حزنًا على ما أصابك.

رئيس الوزراء: لكن قلبها هي لم يهتز لفعلتها.

السكرتيرة (بتردد): دولة الرئيس، هذا هو حال النساء في معظم الحالات. لكنني أعتقد أنها لم تنسك تمامًا.

رئيس الوزراء (كغريق يتعلق بقشة): وكيف عرفتِ ذلك؟

السكرتيرة: لقد تركت لك رسالة خاصة.

رئيس الوزراء (كغريق يتعلق بقشةٍ أخرى، بعد أن أفلتت من بين يديه القشة الأولى): جوهرة الإمبراطورية؟ تركت رسالة خاصة؟! لي أنا؟!

السكرتيرة (وقد أعجبتها اللعبة): نعم، جوهرة الإمبراطورية تركت رسالة خاصة، لك أنت.

رئيس الوزراء (بلهفة): وماذا تقول هذه الرسالة؟

السكرتيرة: هل تريد مني أن أقرأها عليك؟

رئيس الوزراء: نعم، طبعًا، وبسرعة.

السكرتيرة: حتى وإن كانت ذات طابعٍ شخصي سري بحت؟

رئيس الوزراء: شخصي سري بحت؟ بعد أن أصبحت الفضيحة على عينك يا تاجر؟! إقري وخلصيني!

السكرتيرة: تقول جوهرة الإمبراطورية، صاحبة العصمة، ربَّة الصون والعفاف، معالي وزيرة المناسبات السعيدة واللحظات الجميلة (تصمت لحظات،

ثم تقرأ الرسالة ببطء متعمد): عزيزي دولة رئيس مجلس الوزراء، تعيش وتاخد غيرها!

رئيس الوزراء: (يسيطر الغضب عليه، ينزع جهاز التخاطب بعنف، يقذف به الباب الوهمي الأيمن وهو يصرخ بغضب هائل، وبكل ما أوتي من قوة)

يا ولاد الكلب!

يهبط الستار بسرعة"

ومن خلال هذا الحوار يتبين لنا كيف تسير الأمور فى تلك الإمبراطورية: فقرارات تُتَّخَذ دون دراسة لتعود فتُنْقَض كما لو كانت لم تتخذ. والحكماء، أو بالأحرى الباقون منهم، منفصلون عن الحياة وعن مجرى الأحداث التى تقع بالإمبراطورية بل لا يعرفون من هو الإمبراطور ولا ما هو اسمه. ورئيس الوزراء مضطرب الرأى مشوش الذهن والفكر، ويلجأ إلى إغرائهم بوعدهم بالبدلات والمكافآت الضخمة وكأنهم مجموعة من الموظفين الصغار. واللغة المتبادلة بينه وبينهم تنحط فى بعض الأحيان إلى مستوى سوقى لا يليق به ولا بهم. وهذا يرينا كيف تمضى الأمور فى البلاد فى تخبط وعشوائية، وكيف تحيط بها المشاكل من كل لون، وكيف يواجهونها دون دراسة بل فى ارتجال وجهل وعدم خبرة، وكل همهم هو الخروج بالبدلات والمكافآت التى سوف يتراجع رئيس الوزراء بعد قليل عما قاله لهم بشأنها. وطريقة تعبيرهم عن مشاعرهم حين يفرحون طريقة طفولية. وعلاقة رئيس الوزراء النسائية

مكشوفة حتى للسكرتيرة. والإيحاء الجنسى فى قوله لهذه السكرتيرة: "ما أثقبك!" لا يمكن أن يفوت انتباه القارئ. وردودها عليه تشى بكل وضوح باحتقارها له رغم ما تحاول من تلطيف ذلك الاحتقار بالكلام المعسول.

وحين يظن المسؤولون أنهم أخيرا قد نجحوا فى تأمين رحلة الإمبراطور تأتى الأنباء بأن الجنود الذين أرسلوا إلى وادى العناكب الوحشية لهذا الغرض قد وقعوا تحت تأثير دعاية المتمردين الخضر عشاق النباتات والزهور والكتب والفكر والثقافة، وأعداء الرمال والقحولة والصفرة وبلادة العقل، وانضموا إليهم ضد الدولة وبدأوا جميعا الزحف على العاصمة للتخلص من النظام كله بعد أن استطاعوا الاتصال ببعض مفاصل الدولة والتنسيق معهم فى تفكيك نظام الإرسال والاستقبال التلفازى الذى أنشأته الحكومة للسيطرة على الشعب وعقول أبنائه ومجريات أموره. ومن ذلك أن سكرتيرة رئيس الوزراء لم تكن سكرتيرته الحقيقية بل هى امرأة زرعها فى هذه الوظيفة جماعات الثوار المتمردين أنصار الخضرة والثقافة والذوق السليم. وهذا كله من شأنه الإشارة إلى أن أولئك الثوار قد نجحوا فى التسلل بسهولة إلى أماكن حساسة فى الدولة. لكننا سوف نفاجأ بفشل هؤلاء الثوار الذريع والشامل وبعد وقت قصير من نجاحهم الأولى. ويزيد المفاجأة غرابة هذا النعاس الذى يجلل أمور المسؤولين الكبار فى الدولة، مما يجعلنا نستغرب كيف نجح المسؤولون فى تلك الدولة فى إفشال الثورة التى من الواضح أنها كانت قد أخذت العدة منذ وقت للمواجهة بينها وبين أولئك المسؤولين؟

ثم ينتهى الأمر بأنه لم تكن هناك رحلة أصلا بل لم يكن هناك إمبراطور، إذ مات الإمبراطور شيكو الحادى عشر منذ وقت بعيد وتلاه أباطرة آخرون، وانتهت مقاليد الإمبراطورية إلى إمبراطورةٍ امرأة، كل ذلك ورئيس الوزراء لا يدرى عن كل تلك المستجدات شيئا، وهو ما يدل على أن أمور الإمبراطورية كلها عبث فى عبث ولا أحد فيها يعرف على وجه الدقة أى شىء عن أى شىء. بل يتضح أيضا، كما ذكرنا آنفا، أن سكرتيرة رئيس الوزراء ليست هى سكرتيرته الحقيقية بل امرأة أخرى تابعة للمتمردين الخضر، ولهذا كانت تعتذر عن الدخول عليه فى مكتبه بحجة إصابتها بالأنفلوانزا وخوفها أن تعديه، وكل ما لاحظه هو أن صوتها متغير بعض الشىء ليس إلا، ومن ثم لم يَرْتَبْ فيها. والنص التالى يرينا شيئا من هذا الذى نقول:

"رئيس الوزراء: (بثقة) نعم، نحن في حالة جهوزية تامة، ليس الآن فقط، ولكن منذ الأمس.

كبير الياوَران: ماذا تقصد؟

رئيس الوزراء: أقصد أن كل شيء أصبح معدًّا. (ثم يحاول أن يتدارك الأمر) كل شيء، عدا بعض الأمور البسيطة التي لم نستطع التعامل معها بشكل حاسم، مثل .....

كبير الياوَران: (يقاطعه متجاهلًا الجزء الثاني من عبارته) كل شيء أصبح معدًّا لأيّ شيء؟ لأيّ غرض؟!

رئيس الوزراء: للرحلة طبعًا!

كبير الياوَران: الرحلة؟!

رئيس الوزراء: نعم، الرحلة، الرحلة الإمبراطورية الميمونة. (بعد توقف قصير) ألم تأت إلى هنا للاطمئنان على ترتيبات الرحلة؟

كبير الياوَران: نعم، هذا صحيح، لكن (بدهشة) هل أفهم من حديثك هذا أنك تحاول أن تخبرني أن أخبار هذه الرحلة قد وصلت إليك؟

رئيس الوزراء: نعم، أخبار الرحلة وصلت إليّ.

كبير الياوَران: (وقد تزايدت دهشته) هذا أمر غريب، غريب جدًا، لم يسبق له مثيل.

رئيس الوزراء: وما وجه الغرابة في ذلك؟!

كبير الياوَران: يا دولة الرئيس، أنا أحاول أن أتصل بك تليفزيونيًا منذ الصباح الباكر دون جدوى، فكيف تسربت إليك أنباء هذه الرحلة السرية، ومتى؟!

رئيس الوزراء: (بزهو مَن حقق إنجازًا فعليًا) في الواقع... لقد تلقيت أنباء هذه الرحلة منذ حوالي أسبوع. (ثم يلتفت نصف التفاتة نحو موقع الشاشة التي تظهر عليها السكرتيرة، بحثًا عن تأكيد لكلماته:) أليس كذلك؟

السكرتيرة (تتجاهل تساؤلات رئيس الوزراء، فلا ترد) ...

الياوَران (وقد تزايدت دهشته): تقول إن أنباء الرحلة قد وصلت إليك منذ حوالي أسبوع؟!

رئيس الوزراء: نعم، وربما منذ ثمانية أيام. (يكرر محاولته مع السكرتيرة:) جاوبي، ساكتة ليه؟!

كبير الياوَران (كَمَنْ تأكد من عدم صحة ما يسمع:) دولة رئيس الوزراء، مع كامل احترامي لدولتك، أرجو أن تأذن لي بأن أقول لك إن ما تحاول إقناعي به أمرٌ مستحيل، بل هو أكثر من مستحيل.

رئيس الوزراء (مندهشًا): أكثر من مستحيل؟!

كبير الياوَران: نعم، أكثر من مستحيل. فصاحبة الجلالة لم تقرر الموافقة على القيام بهذه الرحلة السرية إلّا مساء أمس بعد أسبوع كامل من الإلحاح الشديد من قِبَل عضوات المجلس الإمبراطوري القومي الأعلى لشؤون الوصيفات والمرضعات، وبعد إصرارهن على حتمية هذه الرحلة.

رئيس الوزراء (تسيطر عليه حالة من عدم الفهم، فيلجأ إلى الحديث مع نفسه دون صوت، حديثًا تفضحه كافة ملامح وجهه) ...

كبير الياوَران (يتجاهل كبير الياوَران تصرفات رئيس الوزراء، ويواصل شرح أبعاد الموقف): الموضوع باختصار، بعد أن عقد المجلس الإمبراطوري القومي الأعلى لشؤون الوصيفات والمرضعات اجتماعين متتاليين خلال أسبوع واحد، وهذا حدث تاريخي نادر في حد ذاته، ارتأت العضوات الفُضْلَيات أنه من الأفضل أن تُغادر جلالتها البلاد، وأن تقضي الأسابيع القليلة القادمة في الخارج لاعتبارات أمنية احترازية حتى تنقشع تلك الغمّة التي تخيِّم على هذه الأمة، وحتى يتوصل خبراء الصيانة الأجانب في وزارة الدعايات والتوجيهات والتعريضات التليفزيونية، وخبراء التحسُس والتجسُس في وزارة الاستشعار الأمني عن بُعد إلى معرفة الأسباب التي أدت إلى توقف أجهزة الإرسال والاستقبال التليفزيوني داخل القصر الإمبراطوري وخارجه عن

العمل، وحتى تتوصل الأجهزة الأمنية المعنية، محلية ودولية، إلى معرفة أسباب تعذُّر التواصل المسموع والمرئي بين القصر وأيّ مكان يقع خارج أسواره.

رئيس الوزراء (تسيطر عليه حالة من الذهول تفقده القدرة على تنظيم تَتابع أفكاره وألفاظه، فيقطع الصمت ويهذي بكلمات مضطربة كأنه يخاطب نفسه:) هايل! جميل! صاحبة الجلالة قلقانة، والمرضعات يرضعن أجهزة التليفزيون، والأجهزة الأمنية تمارس التحسس والتجسس، والمربيات طالعين رحلة أمنية، وأنا وأنت موش فاهمين حاجة. (ثم يلتفت نحو كبير الياوَران مرددًا:) سعادتك اللي بتوصفه ده اسمه طبَق سمك لبن تمر هندي، وحرنكش.

كبير الياوَران (بسخرية واضحة): سمك لبن تمر هندي؟

رئيس الوزراء: وحَرَنْكَشْ كمان، والحلو حَلَابِسّة.

كبير الياوَران (وهو لا يصدق أذنيه): نعم؟

رئيس الوزراء (دون أن تفارقه حالة الذهول): أنعم الله عليك يا خويا! هو أنا ناقصك؟! (بلهجة أكثر جدية:) أنا لا أفهم شيئًا مما تقول. مَن هي صاحبة الجلالة هذه التي تتحدث عنها؟ وما هي هذه الرحلة الاحترازية؟ وتحسُّبًا لأيّ شيء تَقَرَّر القيام بها؟!

كبير الياوَران (بسخرية واضحة): دولة رئيس الوزراء، إنت متأكد إنك موش سكران؟

رئيس الوزراء (دون أن تفارقه حالة الذهول): طبعًا، لكنني لا أفهم عمن تتحدث!

كبير الياوَران (بفخر واعتزاز واضحين): أنا أتحدث عن سيدة البلاد والعباد، ينبوع الشرف والفضيلة المتدفق دومًا، صاحبة الجلالة كَيْليكا كودا الأولى إمبراطورة عرش السلاحف الذهبية العظمى، والوريثة الوحيدة لعرش إمبراطورية الطاووس الصَدّاح الكبرى.

رئيس الوزراء (وهو لا يصدق أذنيه): كَيْليكا كودا الأولى إمبراطورة السلاحف الذهبية العظمى؟!

كبير الياوَران (مؤكدًا): والوريثة الوحيدة لعرش والدها العظيم حضرة صاحب الجلالة كَوْلاري كودا السابع عشر، إمبراطور إمبراطورية الطاووس الصَّدّاح الكبرى.

رئيس الوزراء: كمان؟!

كبير الياوَران (باستهزاء): هذا إذا لم يكن لدى دولتكم مانع!

رئيس الوزراء (وكأنه لا يجد كلمات مناسبة): أنا؟ وأنا مالي ياخويا؟ هي كانت سلاحف أمي ولّا طاووس أبويا؟ أهي كلها شوربة، وبالهنا والشفا...

كبير الياوَران (بصوت لا يخلو من رنة تهديد خفية): يبدو أن الأخبار التي تسللت إلى القصر صحيحة إلى حد بعيد. أنت لم تعد قادرًا على القيام بمهام منصبك، بسبب الإحباطات العاطفية المتوالية التي أصابتك مؤخرًا.

رئيس الوزراء: (يبدأ في إدراك أبعاد الموقف، فيصرخ بفزع) لا، لا، لا تقل ذلك، فكل شيء على ما يرام، أقصد أن كل شيء سوف يكون على ما يرام.

كبير الياوَران: متى؟

رئيس الوزراء: حالًا، في التو واللحظة.

كبير الياوَران: (وهو ينظر إلى رئيس الوزراء نظرة مَن لا يصدق ما يسمع) أكيد؟

رئيس الوزراء: (مؤكدًا صدق وعده) أقسم لك بشرفي أن كل شيء سوف يكون على ما يرام.

كبير الياوَران: (بلهجة أستاذ يمنح تلميذه المخطئ فرصة أخيرة) سوف أصدقك هذه المرة، ولكن على شرط واحد، أن تستمع جيدًا لما سوف أقول، وألّا تقاطعني بمزيدٍ من تعليقاتك البلهاء. التزم الصمت تمامًا حتى أفرغ من إلقاء ما لديّ من تعليمات.

رئيس الوزراء: تفضل يا سيادة اللواء، قل ما تريد.

كبير الياوَران (معترضًا ومحذرًا): سيادة الفريق، اسمي الفريق رِزْق الأَخْضَراوي كبير الياوَران.

رئيس الوزراء (مرتبكًا): سيادة الفريق. طبعًا، طبعًا سيادة الفريق. وهل يخفى القمر؟ تفضل.

كبير الياوَران (يبدأ في شرح مهمته بهدوء وثقة واهتمام): تنفيذًا لتوصيات صاحبات الشرف والعفة والفضيلة عضوات المجلس الإمبراطوري القومي الأعلى لشؤون الوصيفات والمرضعات، واستجابة لتوسلاتهن الحارّة، قررتْ ينبوع الشرف والفضيلة المتدفق دومًا صاحبة الجلالة كَيْليكا كودا الأولى إمبراطورة إمبراطورية السلاحف الذهبية العظمى، والوريثة الوحيدة لعرش

إمبراطورية الطاووس الصَّدّاح الكبرى مغادرة عاصمة البلاد عند منتصف الليلة متوجهة إلى دُرّة الكون ولؤلؤته، طَوْطَسْ الكبرى عاصمة والدها حضرة صاحب الجلالة كَوْلاري كودا السابع عشر، لتقضي في ملاعب طفولتها وملاهي شبابها إجازة نتعشم أن تكون قصيرة. ومن المقرر، من حيث المبدأ، أن تمتد هذه الزيارة إلى أن نتكشف أسرار وخلفيات الأحداث الغريبة التي تجري هنا في إمبراطورية السلاحف الذهبية العظمى. وبهذه المناسبة تأمر جلالتها دولتك شخصيًا، وكافة أعضاء الحكومة، بأن تتخذوا كافة الإجراءات التي تضمن سرية هذه الرحلة، وسلامتها.

رئيس الوزراء (تعاود الفوضى بسط نفوذها على تفكيره مرة أخرى، غير أنه يحاول أن يتشبث بكبير الياوَران كغريق يتعلق بقشة): صاحب المعالي كبير الياوَران، أرجوك وأتوسل إليك. حاول أن تفهمني، وحاول أن تمنحني فرصة حقيقية لفهم ما يدور حولي. لقد أُبلِغتُ رسميًّا، منذ أكثر من أسبوع، أن صاحب الجلالة شيكو الثاني عشر هو الذي يعتزم القيام برحلة لا صاحبة الجلالة كَيْليكا كودا الأولى التي أسمع اسمها لأول مرة. كما أُبْلِغتُ أن الرحلة سوف نتوجه إلى وادي العَناكِب الوحشيّة المقدسة، لا إلى طَوْطَسْ الكبرى عاصمة إمبراطورية الطاووس الصَّدّاح الكبرى.

كبير الياوَران (بدهشة): صاحب الجلالة شيكو الثاني عشر!

رئيس الوزراء: نعم.

كبير الياوَران (تتحول الدهشة إلى سخرية): يعتزم القيام بزيارة إلى وادي العَناكِب الوحشيّة المقدسة!

رئيس الوزراء: هكذا أُبْلِغتُ.

كبير الياوَران (يقاطعه مؤنبًا): أولًا كيف يمكن أن تكون رئيسًا لوزراء صاحبة الجلالة كَيْليكا كودا الأولى، ثم تدّعي أنك تسمع اسمها لأول مرة؟

رئيس الوزراء (يعجز عن تفسير الموقف، فيلتزم الصمت) ...

كبير الياوَران (يواصل نوبة التأنيب): ثانيًا كيف يمكن أن تكون رئيسًا لوزراء صاحبة الجلالة كَيْليكا كودا الأولى، ولا تعرف أن وادي العَناكِب الوحشيّة المقدسة مغلقٌ منذ عدة سنوات بعد أن حلّت عليه لعنة غامضة؟

رئيس الوزراء: لعنة غامضة؟

كبير الياوَران: نعم، حلّت عليه لعنة غامضة بعد أن سكنته مجموعات من السَّفَلة المتمردين الأغبياء. لهذا صدرت أوامر مشددة بقطع كافة الخدمات عن هذا الوادي الملعون، وزرع أرضه بالحُفَر والمطبّات، وتطويقه بمتاريس تحيط بها أسلاك شائكة مُكَهْربة بغرض عزله عن بقية أقاليم الإمبراطورية لدواعي الأمن والأمان.

رئيس الوزراء: يعني الحُفَر والمطبّات والمتاريس المُكَهْربة أقيمت هناك عن عمد لتأمين العاصمة؟

كبير الياوَران: بل لتأمين الإمبراطورية كلها.

رئيس الوزراء (وهو يلطم خديه): يا ليلة سودة يا أولاد! (ثم يضيف مخاطبًا نفسه بصوت خافت:) ده أنا صرفت ملايين علشان أشيل المتاريس والكهارب!

كبير الياوَران (يتجاهل رد فعل رئيس الوزراء الصبياني، مواصلًا حملة التأنيب): ألا ترى أن جهلَك بهذه الحقائق الجغرافية والتاريخية والأمنية المهمة أمرٌ مخجل؟!

رئيس الوزراء (وهو لا يزال متشبثًا بما لديه من معلومات): لقد قيل لي إن حضرة صاحب الجلالة شيكو الثاني عشر ينوي زيارة قبور أسلافه في ذلك الوادي.

كبير الياوَران: دولة رئيس مجلس الوزراء الموقر، من الواضح أنك قد فقدت ذاكرتك تمامًا!

رئيس الوزراء: (بفزع): لماذا؟

كبير الياوَران (محاولًا الاحتفاظ بهدوئه): لأن الجميع يعرفون أن قبور أباطرة السلاحف الذهبية العظمى السابقين قد نُقِلَتْ منذ سنوات طويلة، في رحلة أسطورية واحتفال عالمي مهيب، إلى المكان الذي كانت تشغله حدائق القصر الإمبراطوري. وقد حلت شواهد تلك القبور المصنوعة من أغلى أنواع المرمر، وقباب أضرحتها المصنوعة من أنقى أنواع البِلّوْر، محل الأشجار والزهور والنخيل التي كانت تشوِّه جمال الساحة الخلفية للقصر الإمبراطوري.

رئيس الوزراء (يتردد للحظات ثم يجيب): إذا كان ما تقوله صحيحًا كيف تفسر لي عدم دعوتي إلى حضور هذا الاحتفال؟

كبير الياوَران: السؤال هو: كيف لا تتذكر هذا الاحتفال الذي أذيع على الهواء مباشرة في جميع أنحاء العالم؟!

رئيس الوزراء (لا يجد جوابًا مناسبًا، فيلتفت نصف التفاتة إلى حيث توجد الشاشة التي يُفترض أن تظهر عليها صورة السكرتيرة، وهو ينادي مستنجدًا): أين أنتِ؟ أين تختفين؟ ولماذا لا تقولين شيئًا؟

السكرتيرة: (تتجاهل تساؤلات رئيس الوزراء فلا ترد)

رئيس الوزراء (وهو لا يزال ملتفتًا باتجاه الشاشة نصف التفاتة): ألم نُبلَّغ رسميًا بأمر رحلة صاحب الجلالة شيكو الثاني عشر إلى وادي العَناكِب الوحشيّة المقدسة؟

السكرتيرة (تتجاهل تساؤلات رئيس الوزراء، فلا ترد)

كبير الياوَران: مَن الذي أبلغك بأمر هذه الرحلة رسميًا كما تدّعي؟

رئيس الوزراء (يتردد للحظات، ثم يجيب): أنت!

كبير الياوَران (يتظاهر بالدهشة): أنا؟!

رئيس الوزراء: ألَستَ، كما تقول، كبير الياوَران؟

كبير الياوَران: أظن ذلك!

رئيس الوزراء: وليس هناك أحد آخر يتقاسم معك أو ينازعك هذا المنصب الخطير؟

كبير الياوَران: نعم، لحسن الحظ، ليس لي منافس معلوم ولا مجهول.

رئيس الوزراء: إذًن فأنت الذي كنت هنا منذ أسبوع، وأنت الذي أبلغتني رسميًا بأمر تلك الرحلة، غير أنك كنت تبدو يومها أصغر سنًا، وأكبر حجمًا، وكان اسمك آنذاك، اللواء خِضْر الأزْرقاني.

كبير الياوَران: ها قد عدنا مرة أخرى إلى تلك الخزعبلات. يا دولة رئيس الوزراء الموقر، إن هذا الرجل الذي يجلس أمامك الآن، والذي تتهمه بزيارة مكتبك الأسبوع الماضي، منتحلًا شخصية رجلٍ آخر، متخذًا اسمًا آخر، لم يغادر فراش صاحبة الـ... (ثم يصحح مرتبكًا:) لم يغادر جناح ينبوع الشرف والفضيلة المتدفق دومًا، صاحبة الجلالة، كَلْيكا كودا الأولى منذ شهرين إلّا هذا الصباح بعد أن كلفتني جلالتها بنقل أوامرها إليك. وقد جاءت هذه المهمة في الوقت المناسب لي تمامًا لتكون فرصة ألتقط خلالها أنفاسي، وأجدد نشاطي. (ثم يضيف وكأنه يخاطب نفسه:) لا أحد في الكون يمكنه أن يتخيّل حجم المسؤوليات التي يحملها المرء على عاتقه عندما يخدم، لثلاثة أشهر متواصلة، في جناح إمبراطورة ساحرة الجمال، خاصة إذا كانت هذه الإمبراطورة الجميلة أرملة وحيدة.

رئيس الوزراء (وقد فقد آخر أوراقه): صاحب المعالي كبير الياوَران، سيادة اللواء، أو الفريق، أرجو أن تفكر جيدًا. حاول أن تتذكر، فأنا واثق مما أقول.

كبير الياوَران (بلهجة لا تخلو من سخرية): حتى لو كنتَ واثقًا مما تقول، بل حتى لو جئتَ بعشرات الشهود ليقسموا على صدق ما تقول، فإن هذا كله لن يغير من موقفك شيئًا. هل تعرف لماذا؟

رئيس الوزراء (بيأس): لماذا؟

كبير الياوَران (ببساطة تحسم الأمر كله): لأن حضرة صاحب الجلالة، شيكو الثاني عشر، الذي تدّعي أنني قد أبلغتك بأنه يعتزم القيام برحلة إلى

وادي العَناكِب الوحشيّة المقدسة اليوم أو غدًا لا يستطيع الانتقال إلى أيّ مكان في العالم لا اليوم ولا غدًا ولا بعد ألف عام.

رئيس الوزراء (بدهشة كبيرة): لماذا؟

كبير الياوَران (ببساطة تحسم الأمر كله): لأن حضرة صاحب الجلالة، شيكو الثاني عشر، مدفون في مقبرة فاخرة عند أحد أطراف حديقة القصر الإمبراطوري.

رئيس الوزراء (بذهول): مدفون؟

كبير الياوَران: نعم، مدفون، لأنه مات وشبع موتًا منذ ما يزيد على خمسة أعوام.

رئيس الوزراء (ببلادة لا تتناسب مع خطورة الخبر): مات؟

كبير الياوَران: نعم، مات بعد أن تناول وجبة عشاء كانت على الأرجح مسمومة.

رئيس الوزراء: شيكو الثاني عشر؟

كبير الياوَران: نعم.

رئيس الوزراء: مات؟

كبير الياوَران (بلهجة إخبارية تقريرية باردة لا انفعال فيها): نعم، مات مسمومًا على يد مجهول أو مجهولين بعد عامين من زواجه من ينبوع الشرف والفضيلة المتدفق دومًا صاحبة الجلالة كَيْليكا كودا الأولى. وقد وقعت الوفاة عند الفجر بعد ليلة طويلة شهدت عشاء صُلْح شهيًّا أنهى مناقشة ودية حامية دارت بينه وبين صاحبة الجلالة، التي كانت ترى، بنظرتها الثاقبة للأمور

السياسية المستقبلية، حتمية التعجيل بإعلان الاندماج الكامل بين إمبراطورية السلاحف الذهبية العظمى وإمبراطورية الطاووس الصَّدّاح الكبرى. وقد اهتدت إلى هذا الحل بعد أن أكدت لها لجنة مشتركة من أطباء الإمبراطوريتين أن جلالته لن يستطيع إنجاب وريثٍ لعرش السلاحف الذهبية العظمى بسبب عيب خِلْقي لا يمكن إصلاحه.

رئيس الوزراء: أعرف ذلك، وأعرف أنه ورِث هذا العيب الخِلْقي عن أبيه، الذي كان رحمه الله عاقرًا كما تبين لاحقًا.

كبير الياوَران (مواصلًا حكايته): وبعد مصرع شيكو الثاني عشر تصدّت صاحبة الجلالة كَيْليكا كودا الأولى لمحاولات كثيرة لإقناعها بأن تعود إلى بلادها حيث يمكن أن تبدأ حياتها هناك من جديد. وفضلت أن تبقى هنا، حيث شاء لها قدرها، إمبراطورة أرملة وحيدة، بلا زوج ولا ولد حتى لا تترك في بلادكم فراغًا دستوريًّا تعرف جيدًا أنكم لا تستطيعون ملأه. (ثم بلهجة من يُمنّ على مَن هو دونه مرتبة:) من أجلكم أنتم، من أجل شعبكم أنتم، من أجل هذه البلاد الغريبة، بَقيت جلالتُها، فبقينا معها".

وعلاوة على كل هذا فإن العلاقة بين الرجال والنساء فى أعلى مستويات السلطة، كما رأينا من النصوص التى اقتبسناها من المسرحية، علاقات عشق وخيانة ومكايدة ونميمة وطلاق بما فى ذلك العلاقة بين الإمبراطورة وكبير الياوران حسبما زل لسانه وفضح تلك العلاقة، إذ بدلا من أن يقول إنه كان فى حراستها لمدة ثلاثة أشهر أو حتى فى معيتها، تلك الكلمة المحايدة، عجل لسانه فقال: "فى فراشها". ومن هنا ساد الفشل فى كل مفاصل الدولة ووزاراتها

المختلفة حتى لقد عجز المسؤولون المختصون بتأمين الرحلة الإمبراطورية عن ذلك التأمين رغم أنه كان الأمر الوحيد الذى تمخضت الحكومة كلها من أولها إلى آخرها للقيام به. ناهيك عن أن تلك الرحلة لم يكن لها وجود أصلا لأن الإمبراطور الذى كان من المفترض أن يقوم بها كان قد مات وشبع موتا، وانتهى الأمر بتولى إمبراطورة امرأة سدة الحكم بعد إمبراطورنا صاحب الرحلة الموهومة. وهذا يعطينا فكرة عن الأوضاع البائسة فى كثير من بلاد العالم الثالث التى ترمز إليها إمبراطورية السلاحف الذهبية المقدسة. كما نلاحظ فى المسرحية كيف أنه لا أحد من المسؤولين يحترم أحدا حتى لقد كنت أستغرب كيف تجرؤ سكرتيرة رئيس الوزراء مثلا عليه تقريعا وتهكما فى بعض الأحيان، ودعنا من تهكم كبير الياوران عليه وتقريعه له.

وفى المسرحية أيضا تصوير ساخر للتصرفات الشاذة لحكام البلاد ومسؤوليها ا لكبار: فعلى سبيل المثال يدخل اللواء خِضْر الأَزْرقاني (ولنلاحظ التناقض بين الاسم واللقب)، كبير الياوَران، ويتقدم مباشرة إلى منتصف الحجرة حيث يشد قامته، ويؤدي التحية العسكرية الرسمية للإمبراطورية، وذلك عن طريق الإمساك بشَحْمَة الأذن اليمنى بأطراف أصابع اليد اليسرى والإمساك بشَحْمَة الأذن اليسرى بأطراف أصابع اليد اليمنى وجذب الاثنتين لأسفل بقوة، مع ثني الجذع للأمام بزاوية قائمة، وتكرار تلك العملية ثلاث مرات متتاليات، وهو يردد بلهجة حماسية: فليحيا إمبراطورُ السلاحفِ الذهبيةِ العظمى". وهذا يذكرنا بما يقع فى مثل هذا الموقف فى فلم "صاحب الجلالة" (بطولة فريد شوقى وفؤاد المهندس)، إذ نشاهد الأخير يحيي فريد شوقى القائم بدور السلطان

ماريبخوس الأول، فيحنى رأسه ويثنى ركبتيه وهو واقف ثم يفردهما على نحو مضحك صائحا بطريقة مضحكة وقد رفع يده اليمنى إلى صدغه: "طويل العمر يطوّلْ عمره، ويزهزهْ عصرُه، وينصرهْ على مِنْ يعاديهْ. هاىْ هِئْ".

كذلك فاسم السلطان فى ذلك الفلم هو ماريبخوس، واسم الحاكم فى مسرحيتنا كيمو وشيكو وما أشبه من تلك الأسماء المضحكة. وفى المسرحية أيضا تمثال نصفي ضخم للإمبراطور وقد ارتدى بدلة تشريفات صفراء يتناثر على صدرها، في فوضى واضحة، عدد من الأوسمة والنياشين، ونماذج مصغرة لجماجم آدمية. ولا أظن من الصعب على القارئ تخمين الحاكم العربى المقصود بهذا التصوير التهكمى، وإن لم يكن مقصودا بشخصه بل برمزه، وهو حكام دول العرب والمسلمين بوجه عام. وجدير بالذكر أن الزي الرسمي للإمبراطورية هو خوذة بلاستيكية توضع على الرأس وفوق قبَّتِها طبَقُ استقبال تليفزيوني صغير. ويا له من زى مضحك ساخر. كذلك ففى كل من الفلم والمسرحية انشغال رهيب بتأمين حياة الحاكم وتفادى أية خطورة أو مؤامرة على حياته فقط، وكأنه لا يوجد عمل لهم غير هذا. فالدولة هى الحاكم، والحاكم هو الدولة، ولا قيمة للشعوب.

ومعروف أن لبعض الأنظمة السياسية قرارات ومراسيم عجيبة: فقد كان الحاكم بأمر الله الفاطمى يحرم على الشعب أكل القراميط وكل ما ليس له من السمك قشور، وعن أكل الملوخية. وفى ألبانيا بعد التحرر من الحكم الشيوعى كانت قارئات نشرة الأخبار التلفازية يُظْهِرْن معظم أثدائهن من تحت ستراتهن

إشارة إلى تحرر البلاد من العسف والتقييد المرعب الذى كانت تعيش فيه، ولا أدرى أية صلة تربط بين الأمرين.

وفى رواية "١٩٨٤" للكاتب البريطانى جورج أورويل، وكانت البلاد التى تدور فيها وقائع الرواية بلادا يسارية استبدادية، كانت شاشات التلفاز التى يظهر فيها الأخ الأكبر قائد الحزب الحاكم منتشرة فى كل مكان داخل البيوت والمبانى بما فى ذلك الحمامات والمراحيض وفى الشوارع والميادين لإشعار الشعب أنه مراقَب فى كل مكان ولا يمكنه أن يأتى هذا التصرف أو ذاك براحته وإلا انكشف أمره وذهب إلى المعتقل حيث يلقى ألوان التعذيب التى لا تخطر على بال. وفى مسرحيتنا تتناثر مجموعة كبيرة من أجهزة التليفزيون التي تعمل جميعها في وقت واحد، دون أن يبثَّ أيٌّ منها ما تبثّه الأجهزة الأخرى. وعلى واحدة أو أكثر من هذه الشاشات التليفزيونية تظهر السكرتيرة من وقت إلى آخر، وعلى شاشات أخرى تُعرَض مشاهد من الحياة اليومية داخل البيوت وخارجها، وهي مشاهد يبدو واضحًا أنها منقولة عن كاميرات للمراقبة. كما يمكن استغلال بعض هذه الشاشات، في بعض الحالات، لعرض مشاهد تتوافق مع ما يقال على المسرح أو تتناقض معه تمامًا، بكلمات أخرى: مشاهد تثبت صدق أو كذب ما يقال على المسرح. وفى مسرحيتنا أيضا نرى اغتيال المسؤولين الذين يخرجون عن الخط أمرا اعتياديا لا يثير استغرابا ولا تعجبا.

وفى رواية جورج أورويل: "١٩٤٨" نجد المواطنين يرزحون رزوحا رهيبا تحت الرقابة الحكومية الخانقة فى ظل نظامٍ سياسيٍّ يزعم أنه يقوم على "الاشتراكية" حيث تتسلط فيه نخبة من أعضاء الحزبٍ الذين يلاحقون الفردية

والتفكير الحر بوصفها جرائم فكر، ويُجَسِّد الأخ الكبير طغيان النظام، وهو زعيم تسوِّقه أبواق ذلك النظام بأنه قائد معصوم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ومن وزارات تلك الحكومة ما يسمى بـ"وزارة الحقيقة"، ومسؤوليتها هى الدعاية ومراجعة التاريخ لتغيير حقائقه بحيث تتفق مع ما يعلنه الحزب من أكاذيب على الدوام، إذ يتلقى الموظفون في تلك الوزارة تعليماتٍ تحدد التصحيحات المطلوبة التى توصف بـ"التعديلات" عوضًا عن "التزييفات والأكاذيب". وهناك أيضا "وزارة الحب"، وتقوم بتعذيب المواطنين وغسل أدمغتهم، و"وزارة الوفرة"، ومهمتها الحقيقية التعامل مع نقص الموارد والضغط عليهم لترشيد الاستهلاك، و"وزارة السلام"، وعملها شن الحرب والعدوان... فرواية "١٩٨٤" هى عمل خيالي سياسي يقوم على الخداع الحكومي والمراقبة السرية وتلاعب الدولة الشمولية السلطوية بالتاريخ الموثق.

كذلك غيرت إمبراطوية السلاحف الذهبية العظمى، التى تقع فيها أحداث مسرحيتنا، لغتها إلى اللغة الأمبيقانية مثلما ظهرت فى دولة رواية "١٩٤٨" الـ"نيو سبيك"، أى اللغة الجديدة حيث تعنى الكلمات عكس معناها تماما. وهذا أو قريب منه هو ما يقوم عليه النظام السياسى فى مسرحيتنا الحالية. ففى هذه المسرحية نشاهد كبير الياوَران يتحدث بفخر واعتزاز عن "لغتنا القومية الجديدة التي توصلت إلى اختراعها مجموعةٌ من أفضل أساتذة اختراع وتزييف اللغات في إحدى الدول الصديقة، بناء على اقتراح من أعضاء المجلس الإمبراطوري القومي الأعلى لتربية الناشئين وتقويم الراشدين. وقد صدر مرسوم إمبراطوري بتَبَنِّي هذه اللغة، وتعميم استخدامها في جميع أنحاء الإمبراطورية،

كي تحلّ محل لغتنا القديمة البالية خلال خمس سنوات على أقصى تقدير"، "نعم، وهذا هو الهدف من وراء ابتكار هذه اللغة، وإحلالها محل لغتنا القديمة التي أصبحت سهلة، بل ومبتذلة. المطلوب أن تكون القراءة والكتابة عملياتٍ شاقةً مزعجة حتى لا يكون في مقدور كل من هبَّ ودبَّ أن يمارسها" (ص٣٨-٣٩). ذلك أن هذه الإمبراطورية قد وضعت نصب عينيها استئصال الخضرة من نباتات وأشجار فى البلاد وتدمير الكتب وكل ما يتعلق بها بحيث يسود أرجاءَ البلاد الرملُ والجهلُ. ومن أسماء أبطال المسرحية التى تعنى عكس ما تقول اسم "حكمان الحُمُيْقان" و"رشّود الرُّشَيْدان" مثلا، وهما اثنان من مجلس حكماء الإمبراطورية يفتقران فى الواقع كسائر أعضاء هذا المجلس إلى الحكمة والرشد تماما. ولدينا أيضا "رُمَيْضان الفطرنجى"، وهو اسم رئيس الوزراء الجديد، وواضح جدا التناقض الساطع بين الاسم واللقب. ومثل ذلك لقب "وزيرة المناسبات الجميلة واللحظات السعيدة" و"وزير الدعايات والتوجيهات والتعريضات التليفزيونية".

وليس معنى هذه المقارنات أن الكاتب قد استوحى تلك الأعمال التى ذكرتها هنا، وإن لم يكن فى ذلك الاستيحاء ما يعيب، بل قد يكون الأمر مجرد اتفاق بالمصادفة، وما أكثر مثل تلك المصادفات فى حياتنا. كما أن طبيعة المسرحية ومواقع أحداثها وأبطالها واتجاهاتها ومغازيها تختلف إلى حد بعيد عن نظائرها فى تلك الأعمال مثلما هو واضح بيّن. وقد يكون لتلك الأعمال تأثير على المبدع لكن على نحو غير مباشر، إذ إننا بعد الانتهاء من قراءة أى عمل إبداعى عادة ما ننساه، بمعنى أنه يهبط إلى قاع الذاكرة لكنه لا يتوقف عن النشاط

بل يمكن جدا أن يوجه إبداعنا فى الخفاء والظلام، وإلا فمن أين نستمد القدرة على الإنتاج الأدبى والفنى؟ إننا لا نستمدها من الهواء ولا من الفضاء الخارجى بل من تجاربنا وخبراتنا وقراءاتنا ومشاهداتنا ومحاوراتنا ومحاولاتنا إلى جانب تفكيرنا وموهبتنا وبراعتنا فى الاستفادة من كل ذلك.

فإذا ما أتينا إلى لغة المسرحية ألفيناها سلسة ومحكمة إلى حد بعيد فلا تحس أن كلمة أو عبارة كان ينبغى أن تتقدم أو تتأخر أو تحذف أو تستبدل. كما أن مستوى اللغة والتفكير يناسبان المتحدث، وإن كنا نرى سكرتيرة رئيس الوزراء تخاطبه أحيانا بشىء من التقريع الوقح لشعورها بأنه واقع فى هواها أو حين تراه قلقا متوترا مرتبكا لا يستطيع التصرف من تلقاء فكره بل يحتاج إلى مساعدتها. ومن حين إلى آخر يُقْحِم الكاتب كلمة أو عبارة عامية على غير انتظار: فى مواقف التوبيخ أو التهكم على الشخص الموجهة إليه. وليست هناك أخطاء نحوية أو صرفية إلا فيما ندر، مثل "فلتحيا إمبراطورية السلاحف الذهبية" بالإبقاء على ألف "تحيا" رغم أنه مضارع مجزوم بلام الأمر (وذلك بصفة دائمة فى المسرحية كلها). و"قررنا نحن شيكو الثانى عشر إمبراطورُ السلاحف الذهبية العظمى ما هو آت" (ص٣٩)، والمفروض أن تفتح الراء الأخيرة من "الإمبراطور" لأنها بدل من "شيكو" المنصوب على الاختصاص كما فى الجمل التالية: "نحن العربَ ناسٌ مهادنون لأعدائنا" و"أنت ابنَ وزير التربية والتعليم ينقصك الكثير من التربية والتعليم". ومن تلك الملاحظات اللغوية

التى يمكن أن تورد فى هذا السياق قول كبير الياوران: "رغم أنني لم أشاهد في هذه الصور مطباتٍ هوائية لكنني أعتذر لدولتك عن خطأ غير مقصود وقعتُ فيه" (ص٦١)، إذ بعد "رغم أنّ/ مع أنّ" لا يصح استعمال "إلا أنّ / لكن"، بل ينبغى أن نقول مثلا: "فقد.../ فإن..." أو ما شاكل، ذلك أنه لا مجال هنا لاستثناء أو استدراك لأن الجملة لم تنته بعد. ومن الأخطاء أيضا عبارة "لا بد وأن..." (ص٦٣، ٦٤) بزيادة واو بين "لا بد" و"أن"، إذ إن أصل العبارة هو "لا بد من أن..."، أى "لا مفر من أن..."، ثم حُذِفَتْ "من"، وهى حرف جر، ولا يصح أن نضع مكان "مِنْ" هذه واوا. ومن الملاحظات اللغوية أيضا الجواب عن سؤال من نوع "أليس الأمر كذلك؟" فى حالة الإثبات بـ"نعم" بدلا من "بلى". وقد تكررت هذه الملاحظة. ومعروف أن البيت الثانى من قصيدة أبى فراس الحمدانى: "أراك عصىَّ الدمع" التى تشدو بها أم كلثوم كان فى أصله يجرى على النحو التالى:

أَراكَ عَصِيَّ الدَّمعِ شِيمَتُكَ الصَّبْرُ = أَما لِلهَوى نَهْيٌ عَلَيكَ وَلا أَمْرُ؟

بَلى، أَنا مُشتاقٌ وَعِندِيَ لَوعَةٌ = وَلَكِنَّ مِثْلِي لا يُذاعُ لَهُ سِرُّ

أى يبدأ بـ"بلى. أنا مشتاق" لأنه جواب إثباتى على "أما للهوى نهى عليك ولا أمر؟"، لكن كوكب الشرق، فيما قرأنا، استبدلت كلمة "نعم" بـ"بلى" لأنها غريبة على آذان المصريين على عكس الوضع فى بعض البلاد العربية الأخرى كقَطَر مثلا حيث يستخدمون "بلى" عادة فى الإثبات والنفى.

وهناك تأثر بأسلوب القرآن فى عدة مواضع كما فى قول كبير الياوران: "وإذا كنتَ في شكٍ من هذا يكفي أن تراجع..." (ص٤٥- "وإن كنتَ فى

شكٍّ مما أوحينا إليك فاسأل..."/ سورة هود)، وقوله عن كبير الياوران: "يردد فى مبالغة واضحة كأنه يستصرخ السماوات أن يتساقطن كِسَفًا على الأرض" (ص٦٣- "وإن يروا كِسْفا من السماء ساقطا يقولوا: سحابٌ مركومٌ/ سورة الطور)، و"كلماتك أشد إيلاما من نحاس مصهور" (ص٧٩- "يُرْسَل عليكما شُواظٌ من نارٍ ونُحَاسٌ فلا تنتصران/ سورة الرحمن). ومن الواضح أن الكاتب لم ينقل العبارات القرآنية كما هى بل كانت فى أعماق ذاكرته حين كان يكتب، ولم تكن اقتباسا مباشرا من الكتاب المجيد. ومن ثم بدت طبيعية تلقائية كأنها جزء عضوى من كتابته.

هذا، وقد سبق القول إن المسرحية تتكون من ستة مشاهد، والآن نضيف أن كل مشهد من المشاهد الخمسة الأولى ينتهى بصراخ رئيس الوزراء قائلا: "يا ولاد الكلب"، بينما تأتى تلك الشتمة قبل نهاية المشهد السادس بقليل حين يباغت بطوفان الأضواء المسلط على عينيه وفى إثره طوفان المتمردين الذين وضعوا أيديهم أولا على وادى العناكب الوحشية ثم اندفعوا هادرين نحو العاصمة واقتحموها واقتحموا مبنى مجلس الوزراء، وإن كانت الدولة العميقة قد استطاعت استعادة سيطرتها على زمام الأمور بعد الانتصار الوقتى لأولئك المتمردين، وذلك بسبب انعدام القيادة الخبيرة المدربة. وهذا الصراخ يذكرنا بصراخ نور الشريف (الأسطى حسن)، في نهاية فلم "سواق الأوتوبيس"، الذى خرج للعرض عام ١٩٨٢، بعبارة "يا اولاد الكلب" في وجه لص سرق أحد الركاب بينما يكيل له اللكمات، وكأنه ينتقم ممن سرقوا ورشة أبيه، تلك الورشة التي يرى بعض من كتبوا عن الفلم أنها ترمز إلى "مصر المحروسة"

المهددة من قِبَل لصوص الوطن الكبار في ذلك الوقت. لكن شتان الأسطى حسن سواق الأوتوبيس ورئيس الوزراء فى المسرحية: فالأسطى حسن يمثل المظلومين المسروقين فى حين أن رئيس الوزراء هو أحد أعمدة النظام الإمبراطورى الفاسد بكل المقاييس حتى فى محاولة تأمين رحلة الإمبراطور وحتى على مستوى علاقته بزوجته وبالسكرتيرة وحتى فى تعامله مع مرؤوسيه من الوزراء، إذ لم يكونوا يراعون مكانته فكانوا يجيبونه أحيانا بعبارات لا يصح توجيهها إليه ويقرّعونه ويخطّئونه، وقد يهددونه. وهو ختام يدل على احترافية الكاتب إذ نراه يترك وقائع المشهد تجرى فى طريقها الحر، لكنه ما إن يقترب المشهد من نهايته حتى يمسك لجامها ويحول طريقها ببراعة نحو هذه العبارة بحيث لا يمكنك تخيل انتهاء المشهد بعبارة سواها. أما فى نهاية المشهد السادس والمسرحية فقد رأينا رئيس الوزراء يجيب نداءات سكرتيرته الثانية بنبرات تشبه نبرات صبى القهوة: أَيْوووووَه جااااااااى! وقد مرت عليه بعض الأحوال وهو يغنى ويرقص ويتحدث بالعامية شاتما أو متهكما على الأوضاع. وتكرر أكثر من مرة ظهوره وهو حائر بائر لا يدرى من أمر نفسه ولا أمر البلاد التى يرأس مجلس وزرائها شيئا وكأنه "الأطرش فى الزَّفَّة" كما نقول فى العامية المصرية.

والآن أجدنى حيران أمام بعض الأشياء فى المسرحية: فمثلا كون الثوار قد استطاعوا الوصول إلى مكتب رئيس الوزراء وتعيين سكرتيرة أخرى بدلا من سكرتيرته الحقيقية بل واستبدال كبير ياوران من لدنهم بكبير الياوران الأصلى، وقبل ذلك نجاحهم فى التلاعب بالبث التلفازى فى أرجاء

الإمبراطورية لمصلحتهم، زيادة على انتصارهم على الدولة باقتطاع جزء منها جعلوه منطلقا للزحف على العاصمة لأخذها، وكسبهم عقول وقلوب الجنود الذين أُرْسِلوا لقمع تمردهم، معناه أنهم ثوار ناجحون أذكياء يخططون جيدا لكل معركة يدخلونها مع النظام الحكومى. فكيف إذن كان انهيارهم سريعا فى آخر المسرحية رغم أنه لم يستجد شىء يجعل دفة الأمور تستدير مائة وثمانين درجة على هذا النحو؟ ثم أين ذهبت السكرتيرة وكبير الياوران الحقيقيان فى الفترة التى كانا مختفيين فيها عن الأنظار؟ وكيف عادا مرة أخرى إلى مكانيهما اللذين كانا يشغلانهما قبل تبديلهما من قِبَل الثوار؟

لو كان بين المسؤولين الكبار فى الإمبراطورية ناس حكماء دهاة ذوو عقول سياسية قديرة على ملاعبة الخصوم بطريقة عبقرية تدوخ الرؤوس لقلنا إن الثوار لم يكونوا جاهزين لملاقاة مثل تلك العقول الدواهى. لكننا، كما شاهدنا، لم يقابلنا هذا الصنف من رجال السياسة وحُكْم الدول بل كانت كفة الثوار طوال الوقت هى الراجحة، وفشلت الحكومة فى كل نزال دخلته معهم حتى وصلوا إلى العاصمة. لو كانت القوى الكبرى تقف مع الإمبراطورة وأرسلت إمدادات عسكرية أو لوجستية وبعضا من رجالها المضرسين المنقوعين فى ماء التخطيط الجهنمى لامتصاص الثورة وقلب المائدة على رؤوس أصحابها لقلنا إن الثوار لم يكونوا على مستوى هذا الصراع. لكن المسرحية لم تشر إلى شىء من هذا. وأنا كلما سمعت أحدا يقارن بين نجاح ثورات الغرب وفشل ثوراتنا الشعبية كان جوابى أن ثوار الغرب لم تكن تحاربهم الدول الكبرى المجرمة التى آلت على نفسها ألا تترك نَفَسًا عربيًّا أو إسلاميًّا يتردد فى صدر أى شخص

كريم يحب وطنه ودينه وأمته ويعتز بها، وعملت وما زالت تعمل كل ما فى وسعها على إجهاض هذا النَّفَس العطر المبارك لصالح أصحاب الأنفاس المنتنة الكريهة الملعونة. ثم لا ينبغى أن ننسى أن الصراع بين الحكام والثوار فى أوربا كان بين طرفين متقاربين فى القدرة العسكرية، فلم تكن هناك طائرات ولا دبابات ولا عربات مصفحة ولا جرافات تهرس بها الحكومات الثوار وتطحن عظامهم بل كانت الأسلحة آنذاك بسيطة نسبيا فيمكن مقاومتها ولو بالحجارة والحرائق. كما أنه لم يكن هناك مذياع ولا تلفاز ولا سجلات تحتوى على أسماء رجال الثورة المطلوبة رؤوسهم وتعلن ذلك فى كل مكان وفى جميع وسائل الإعلام بحيث لا يستطيع الثائرون الخروج من مكامنهم لأن مصيرهم حينئذ معروف مسبقا، وبخاصة أن الخونة المبلغين عن الثوار فى بلاد العالم الثالث كثر ككثرة الهم على القلب، إذ هم يبغضون بغضا ساما من لم يكن على شاكلتهم من الخيانة والانحطاط والغدر أو على الأقل: التبلد والجبن والرضا بالخزى والمهانة لأنه يشعرهم بوضاعتهم، فهم لا يطيقون رؤيته. وفوق هذا كانت الشعوب الأوربية، من فرط حيويتها التى اكتسبتها بعد نهوضها من رقادها وتبلدها الطويل، تستجيب لكُتّابها الذين يعملون على توعيتها وتنويرها، ولديها حِسٌّ تمردىٌّ عنيفٌ رغم أنها كانت إلى وقت قريب من ذلك التاريخ تعيش فى ضنك وبؤس وجهل ومرض وفقر شنيع واستبداد كافر يمارسه عليها الملوك ورجال الكنيسة، لكنها نهضت وتوثبت وطمحت إلى الانعتاق من هذا كله، فكان لها ما أرادت، وهو ما تفتقده الثورات العربية بنسبة كبيرة للأسف. وحسبما نعرف جميعا فإن العرب والمسلمين لم يعودوا يقرأون لنفورهم

من العلم كما لو كان بَرَصًا أو عَمًى، والعياذ بالله. وعلى هذا ينقصهم الوعى المطلوب للثورة والإحساس بوجوب مقاومة الاستبداد والفساد والتنبه الصادق العميق لحقوقهم لمن يريد المعالى والعيش الكريم، إذ الغالبية منهم تتصور أن كل ما تملكه الدولة هو ملك شخصى للحاكم، ومن الطبيعى إذن أن يعطى من يريد ويحرم من يريد لأن الإنسان لا يلام على ما يصنعه بماله. وكما يقول المثل: "مَنْ حَكَمَ فى ماله ما ظَلَمَ". فإذا ما رمى لهم بعض الفتات كما نرمى للقطط والكلاب عظم اللحم وشوك السمك هز ذيله ابتهاجا ومسرة وكأن الدنيا قد أمطرته بوابل من الذهب والألماس. وبدلا من أن يرى أن هذا الحاكم لص ومجرم وطاغية عتيد ينظر إليه على أنه صاحب الفضل والمنة، ويؤلهه تأليها.

وفى نهاية المسرحية نجد الدولة العميقة فى إمبراطورية السلاحف الذهبية العظمى تنتصر على الثوار، وبالتالى تعود الأمور إلى ما كانت عليه، أى كأنك يا أبا زيد ما غزوت ولا كانت هناك ثورة ولا يحزنون ولا يفرحون. فنحن أناس بلا ذاكرة، فلا نتعلم الدرس ولا نتعظ أبدا مما يقع لنا أو على رؤوسنا من كوارث لأننا من قبائل "نيام نيام". وهذا المعنى قد ذكره المؤلف بكل وضوح فى مقدمته التى مهد بها لمسرحيته العجيبة، وهو فعلا ما ينطبق على أمتنا وعلى كثير من شعوب العالم الثالث. ولا أظن إلا أن المؤلف قد أراد فى مسرحيته تصوير ما حدث لما يسمى بثورات "الربيع العربى"، فقد انتكست تلك الثورات جميعا ولم تصل أى منها لما تريد بل رجعت الأمور إلى سابق العهد بل أسوأ من سابق العهد. فالدولة العميقة ظلت ساكنة أيام الهيجان

و"لابدة فى غيط الذرة" كما نقول فى تعبيراتنا العامية، وتركت الهائجين يصنعون ما بدا لهم ظانين أن أزمة الأمور فى أيديهم بينما هى فى الواقع فى يد تلك الدولة العميقة، وبخاصة أن المتمردين سرعان ما افترقوا شيعا وأحزابا على عكس ما حذرهم القرآن من مغبة التشيع والتحزب، بالإضافة إلى أن الثورة لم يكن لها رأس بل كانت مجرد هبة لا تعرف التخطيط ولا تأخذ زمام المبادرة بل كانت تنتظر الفعل فيكون لها رد فعل فى وقته ليس إلا.

لكن هذا، وإن كان هو ما حدث فى الواقع كما نعلم جميعا، لم يكن هو ما توقعناه فى المسرحية. لقد جعلت المسرحية الثوار هم الذين يأخذون زمام المبادرة فى أيديهم حتى لقد نجحوا فى التسلل إلى مفاصل الدولة وتحكموا فى أنظمتها ومؤسساتها كما سبق القول، وجعلتهم ينجحون فى الاستيلاء على جزء مهم من البلاد وينجحون فى إقناع القوات العسكرية التى أرسلت إليهم لاستخلاص ذلك الجزء الذى استولَوْا عليه وسحقهم وإعادة الأوضاع إلى حالتها السالفة وضموهم إليهم، وهو شىء جديد لم يحدث فى واقع ثورات الربيع العربى، فكنا مهيئين لتوقع انتصار الثوار ما داموا بهذه القوة والتنظيم والجراءة، لكنهم سرعان ما فشلوا. هذا على الأقل ما بدا لى، وقد أكون قرأت المسرحية خطأً، ويكون لدى المؤلف شىء آخر غير هذا الذى فهمت، ولعله يوضح لنا ما غُمَّ علينا. والكرة الآن فى ملعبه أو، إذا كنت أفهم المقصود من هذا التعبير فينبغى أن أقول إنها فى نصف ملعبه. ويكفيه نصف الملعب، ونأخذ نحن النصف الآخر. أليس كذلك؟ أم ماذا؟

والآن نأتى إلى ما يقال من أن المسرحية لا تكون مسرحية إلا إذا قامت على الصراع. فهل هذا صحيح؟ فأما رأيى فليس شرطا أن تدور المسرحية على الصراع، بل قد تحتوى عليه وقد تخلو منه، وهى مع ذلك مسرحية. ولنأخذ مسرحية "أوديب ملكا"، وهى أشهر المسرحيات فى تاريخ الفن المسرحى، وهى أيضا المسرحية التى اتخذ منها أرسطو نموذجا للمأساة فى وضعها المثالى. فهل هى حقا تقوم على الصراع؟ أرجو من أحد القراء أو النقاد أن يدلنى على موضع هذا الصراع منها. سيقال إنه صراع بين الإنسان والقدر. فأين بالله عليكم نجد هذا الصراع المفترض؟ إننا نرى عرافة تتنبأ بأن الملك سوف ينجب ولدا يقتله ويتزوج أمه. لكن هذا كلام عرافين. سيقال: لكن الإغريق كانوا يؤمنون بأن العرافين والعرافات يعرفون الغيب. وهذا طبعا اعتقاد مبنى على وهم فاسد لا أساس له ولا أصل. بل إنى أرى أن كلام العرافة عن المستقبل لا يعنى إلا أن هذا المستقبل يمكن تجنبه، وإلا فلم تكلمت؟ لقد كان ينبغى أن تغلق فمها على اعتبار أن كلامها لا يقدم ولا يؤخر. أليس كذلك؟ وحتى لو كان ذلك صحيحا فهل كان فى ذهن الملك ساعتئذ أن يصارع القدر؟ هذا غير صحيح، وإلا فلو كان يؤمن بأن القدر غالب لا محالة وأن العرافة لا تنزل كلمتها الأرض أبدا ما كان قد أمر أحد خدم القصر أن يخلصه من ابنه لأنه يعرف أن هذا عبث لا معنى له. الحق أن كل ما صنعه الملك هو أنه تصرف كما يتصرف الإنسان حين يخبره الطبيب أنه لو استمر على سلوكه الفلانى فلسوف يصاب بالمرض العلانى، إذ يعمل كل ما فى وسعه عند سماع هذا الكلام من الطبيب الصادق الموثوق، وهذا لو كان عاقلا ذا عزيمةٍ وجَلَدٍ، على الابتعاد

عن التصرف الذى حذره منه الطبيب أملا فى أن يتجنب سوء المصير ويظل متمتعا بصحته.

ليس هذا فحسب، بل هناك الرجل الذى كلفه الملك بقتل الطفل الوليد لكن قلبه الرحيم لم يشأ أن ينفذ رغبة الملك، فأعطاه لأحد الرعاة ليربيه، فرباه الراعى. فهل كان الخادم المكلف بقتل ابن الملك يصارع القدر حين أخذته الشفقة فلم يقتله وسلمه بدلا من ذلك للراعى متصورا أنه أراح الملك من الهواجس التى تنغص عليه عيشته؟ بالطبع لا. كذلك فإن أوديب، حين كبر واشتبك مع أبيه عندما اعتدى عليه الأب فرد العدوان بمثله مما نتج عنه قتل الملك المعتدى، لم يكن يعرف هو ولا أبوه شيئا عن الآخر. ولا أظن أحدا يمكنه أن يقول إن أيا منهما كان أوانذاك يصارع القدر. ونفس الشىء يقال عن تزوج أوديب بأمه فلا هو ولا هى كان يعرف شيئا عن الطرف المقابل... وهكذا، وهكذا. وهو ما يُرَدّ به أيضا وبكل بساطة على نظرية فرويد فى عقدة أوديب من أن الولد يعشق أمه ويغار من أبيه حتى إنه من الممكن أن يقتله ولو فى ضميره ليتخلص من مزاحمته على قلب أمه وغير قلبها، إذ لم يفكر أوديب يوما فى شىء من ذلك بتاتا بدليل أنه حين تبين له أنه قتل أباه وعاشر أمه فقأ عينيه وترك البلاد وهام على وجهه فى الأرض بعيدا عن مكان جريمته، التى ليست فى الواقع بجريمة على الإطلاق إلا فى عقول السذج السطحيين الذين يرون فى فرويد ما لا وجود له.

هذا رأيى فى المقولة الخاصة بوجوب احتواء المسرحية على صراع. وقد سبق أن قلت ذلك فى آخر فقرة فى كتابى: "دراسات فى المسرح" لدن تناولى

النقدى لمسرحية د. هشام السلامونى، فالمسرحية تدور حول سرقة الخادمة فاطمة من بيت مخدوميها ذهب ربة البيت وهروبها منهم واتفاقها، مع حبيبها كوّاء الحىّ الذى يفترض أن يتزوجها، على الاختباء فى شقته فى منطقة شعبية وانتظاره هناك حتى يفرا إلى مكان آمن ويتزوجا. وكان الذهب معها، لكنها حين سمعت صفارة عربة شرطة ظنت أن الشرطة أتت للقبض عليها فألقت المصاغ فى المرحاض البلدى بالشقة تخلصا من جسم الجريمة، ثم اتضح أن العربة لا علاقة لها بالبحث عنها بل كانت مارة بالمصادفة. وهكذا انتهت هذه المهزلة السوداء، فقد خسرت فاطمة عملها لدن مخدوميها الطيبين الذين يكرمونها وخسرت خطيبها، الذى لم يف بوعده لأنها تخلصت من الذهب ولم تعد تمثل له أية أهمية أو قيمة.

وهذا نص ما قلته: "والمسرحية تخلو من الصراع، فهى مجرد تتابع حالات شعورية من وحى الموقف الذى تجد فاطمة نفسها فيه ووحى الذكريات: ذكرياتها فى بيتها هى، وذكرياتها فى بيت مخدوميها. وهى فى خلال ذلك تُطْلِعنا بثرثرتها التى لا تنتهى على ماضيها كله تقريبًا، رغم أن زمن المسرحية لا يتعدى الساعة إلا قليلًا. وهذا يدل على أن الصراع ليس شرطًا فى المسرح، ومن ثم فإن تعليل عدم معرفة العرب القدماء للفن المسرحى بأنهم لما وجدوه يقوم عند اليونان على الصراع بين البشر والآلهة، وكان ذلك مما يتنافى مع الإسلام، لم يقبلوا عليه، هو تعليل غير مقنع. وعلى رغم أن القائلين بذلك لم يقدّموا دليلًا واحدًا فى حدود علمى على أن العرب القدماء قد اطلعوا على المآسى الإغريقية التى تقوم على هذا اللون من الصراع فإننى لا أقف عند هذه النقطة بل أتخطاها

إلى القول بأن الصراع ألوان وأشكال: فهناك مثلا الصراع بين الحكام بعضهم وبعض، أو بين الحكام والثائرين عليهم، أو بين طبقة وأخرى، أو بين الرجل وجاره، أو الرجل وزوجته، أو المرؤوس ورئيسه. وقد يكون الصراع داخل النفس بين عاطفتين متضادتين، أو بين العاطفة والواجب، أو بين الشهوة والتديُّن إلخ... إلخ. وربما لم يكن هناك صراع أصلاً. والعمل الذى نحن بصدده الآن خير مثال على ذلك".

وفى مسرحيتنا هذه أيضا أستطيع القول بأن الصراع فيها غير واضح إن لم أقل إنه لا وجود له. طبعا يمكن أن يقال إن هناك صراعا بين رئيس الوزراء وكبير الياوران، أو بينه وبين مجلس حكماء الإمبراطورية، أو بين فريق الرمل والصفرة والقحولة وكراهية الكتاب لحساب الجردل واللاقط الموجودَيْن على رأس كل مواطن فى تلك الدولة، وفريق الخضرة والنباتات والزهور والكِتَاب والقراءة... لكن لا ينبغى أن يغيب عن انتباهنا أن هذه الصراعات إما فردية لا تترك وراءها نتائج ذات قيمة أو صراعات خبرية، أى نعلم بها من خلال حوار الشخصيات بعضها مع بعض ولا نراها متجسدة فى مواقف متوترة تجعلنا نقف على أصابع أرجلنا قلقين منتظرين لنعرف كيف تنجلى الأمور ومن يكسب ومن يخسر وكيف يحاول كل من الطرفين أن يضرب الطرف الآخر ضربته التى تكسره وتحطمه. فمثلا لقد نجح الفريق الثانى فى كسب عقول وقلوب العساكر الذين أرسلوا إليهم فى طرف البلاد ليقضوا عليهم، فانقلب الوضع وانحاز العساكر إلى المتمردين، لكننا لم نر شيئا من ذلك مواجهة بل سمعنا بعض شخصيات المسرحية يتحدث عنه وكان الحديث عارضا. كذلك عرفنا فى

آخر المسرحية أن أولئك المتمردين كانوا قد نجحوا فى اختراق مؤسسات الدولة، فكان منهم كبير الياوران، وكانت منهم سكرتيرة مكتب رئيس الوزراء، واستطاعوا إفساد البث التلفازى الذى كانت تعتمد عليه الدولة تمام الاعتماد فى الحياة كلها، بيد أننا أولا لم نكن نعلم بأن هذا جميعه هو من عمل الثوار إلى قريب من نهاية المسرحية، علاوة على أن معرفتنا به كانت ضئيلة وعلى نحوٍ عَرَضِىٍّ سريع. خلاصة ما أريد قوله هو أن الصراع ليس شرطا فى الإبداع المسرحى. وها هى ذى مسرحيتنا قد نجحت فى تصوير دولة السلاحف الذهبية العظمى والتهكم بها وبحكامها وغبائهم وكراهيتهم لكل شىء حضارى وسطحية المسؤولين بها وبطء الإجراءات التى تتخذها المؤسسات هناك (إن اتخذت شيئا أصلا) وتضييع الوقت والجهد فى الثرثرة والوله العجيب الذى ليس له نظير بتستيف الأوراق كما فى كثير من بلاد العرب والمسلمين والعالم الثالث وتفاهة الاهتمامات لدن هؤلاء الناس، كل ذلك دون أن يكون هناك صراع أو دون أن يكون هناك صراع مما يشترطه نقاد المسرح ومنظّروه.

على أن ثمة عنصرا آخر فى المسرحية أفاض عليها حرارة وحيوية، وهو ما تبين لنا فى نهايتها من أن السكرتيرة وكبير الياوران، وربما غيرهما أيضا، ممن كان رئيس الوزراء يتعامل معهم طوال الوقت على أنهم هم السكرتيرة وكبير الياوران ... الحقيقيون لم يكونوا كذلك بل كانوا تابعين لجماعات المتمردين. وهى مباغتة عنيفة وعجيبة لم تخطر لى أنا على الأقل ببال قبل ختام الرواية وبمعونة الكاتب رغم أنه كانت هناك شواهد من شأنها أن تجعل الفأر يلعب فى عُبِّى وعُبِّ كل قارئ، إذ كانت السكرتيرة مثلا تعتذر عن الدخول على

الوزير الأول كلما طلبها، وكان لا يكف عن دعائها إلى مكتبه، لكنها كانت تتحجج بأن عندها نزلة برد تخشى أن تعديه، فكان يسكت على مضض. وكلما استدار إلى شاشة التلفاز ليراها وهى تكلمه امَّحَتِ الصورة ولم يعد يظهر عليها سوى تشويش ضوئى. وهو ما كان سببه عبث المتمردين الذين انتشروا فى عدد من مفاصل الحكومة بالنظام التلفازى بحيث لا يستطيع الوزير على سبيل المثال معرفة حقيقة السكرتيرة. فهذه المباغتة التى اكتسحتنا فى نهاية المسرحية قد أضفت عليها إثارة وسخّنت الأجواء.

الفهرست

- مع قصة "على حافة الأرض"
مصطفى الخطيب ٣
- رواية "ترنيمة غرناطة الأخيرة"
لمحمود القاعود ٣٧
- رواية "الطوفان الكبير"
لعبد الرحيم درويش ٩٠
- رواية "بونابرته"
لنشأت المصرى ١٣٣
- رواية "زهرة من حى الغجر"
لصلاح شعير ٢٤٨
- مع مسرحية "المُتَلْفِزون"
لإسماعيل بهاء الدين ٢٨٨